مع المجتمع العربي

لمحمد الأسمر

(دراسة ونقد)

دكتورة

نادية أحمد سعد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - فرع البنات بالقاهرة

١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى راية الإســلام ومجــده العــــامر

إلى روح مصــــر وقلبــــها الطاهـــــر

إلى معهــــد العلوم وتاجهــــا البـــاهر

إلى رحاب الهـــــدى وروضــــــة المآثر

نهـــر المعــــالى ومنبــــع السمو والمفاخر

صاحب العــزة والشموخ والشـــرف الأكبر

تحيـــة إجلال تتغنى بنــــور الأزهـــــر

د. ناوية أحمد مسعد

تصــدير

يعد الأدب المرأة الصادقة للبيئة حيث يعكس بجلاء واقعها الاجتماعى والفكرى والسياسى فيترجم نبضها وهمسها وأنينها وتغريدها وأحلامها وأفكارها وتقاليدها وقبولها ورفضها ولهذا فهو المعيار الدقيق لحيوية الأمة وتجاوبها مع طبيعة الأحداث وأمتنا المصرية تتميز من بين الأمم بفيض متجدد من الطاقات البشرية الخصبة التى تنير سبل الحياة فى كل مجال ففى سماء الأدب أشرقت نجوم ساطعة ما زال نورها يضىء أرجاء الوطن المصرى فقد جسدت ذكريات ماضيها التليد وصورت حاضرها وتغنت بمستقبلها المأمول الذى تتلاشى فيه الآلام فتتفرع غصون الآمال التى تنشر راية السعادة على أبناء الأمة المصرية الغالية .

والباحث الكريم فى مجال الأدب يجد المكتبة الأدبية ذاخرة بالأجناس المثمرة التى تبلور حياة كل عصر من عصور الوطن المصرى ومن هذه الثمار الطيبة كتاب (مع المجتمع) لمحمد الأسمر الذى صور بحيوية ونضارة ما يدور داخل المجتمع من سلوكيات وما يجول داخل النفس من أحاسيس ومشاعر نبعت جميعها من وحى البيئة المصرية . وكتاب (مع المجتمع) يضم بين طياته مقالات عدة تتسم بالطابع الاجتماعى الحى الذى يجسد المواقف والأحداث ويناجى الخواطر ويداعب خلجات الوجدان بروح مصرية أصيلة تكشف الستار عن حياة الشعب المصرى بأسلوب يجعل المتذوق يعيش فى بؤرة الأحداث كأنه منها حيث يشاهد فيها ذاته أو أحد أفراد أسرته أو صديقه أى يرى النماذج الإنسانية المحيطة به مصورة فى قطاع ينبض بالحياة يجعل المتلقى يرصد بجلاء طبيعة حركاتها وحديثها ويستجيب لعواطفها ويتفاعل معها ومصدر هذه المشاركة ما اتصفت به مقالات محمد

الأسمر من صدق تعبيرى نبع من وضوح الرؤية العاطفية إلى جانب إجادته للصياغة الأدبية يضاف إلى هذا أن مقالات (مع المجتمع) طبعت بالطابع الوصفى والتأملى الفلسفى الذى يتخذ من التحليل وسيلة لإحداث المشاركة الوجدانية بين المنشىء والمتلقى . وقد قسم الأسمر كتابه (مع المجتمع) إلى الأبواب الآتية :

(من وحى الحياة) ، و (من وحى الحرب) ، و (من وحى الدين) ، و (من وحى النيل) ، و (من وحى الأغانى) ، و (من وحى الدعابة) ولكل باب موضوعاته التى تنبثق من خيوطه لتشكل نسيجًا متكاملاً من الأفكار والمعانى وما يحفها من عواطف وانفعالات عبر إيحاء وجدانى تهدى إليه نغمات الرنين الصوتى للعبارات والفقرات وقد عرف محمد الأسمر بين روضة الأدب بشاعريته المرهفة ونظمه المتميز الذى جعله شاعر الأهرام وشاعر العروبة وشاعر الأزهر الذى ترنم بالأحداث الاجتماعية والقومية ويتصف شعره بالطبع والرقة وجمال الديباجة والمهارة الفنية والقدرة التعبيرية فكان من رواد الشعرفى العصر الحديث وعندما تصفحت كتابه (مع المجتمع) .

وجدت أن محمداً الأسمر من رواد النثر فى العصر الحديث مما دفعنى لعرض كتابه (مع المجتمع) الذى سيكشف - بإذن الله - خصائص كاتبنا الأدبية والفنية .

خطة البحث

تبدأ خيوط البحث بتصدير بين أن محمداً الأسمر صاحب منزلة نثرية .

الفصل الأول : ينقسم إلى مبحثين :

المبحث الأول : يتناول الظروف العامة للمجتمع المصرى التى عاصرها الأسمر فشكلت عناصر فكره وسطع نورها من بين عبارات كتابه (مع المجتمع) مما حقق لهذا الكتاب مصداقية الأحاسيس والمشاعر التى دفعت بدورها إلى خلوده الأدبى .

المبحث الثانى : يتناول الظروف التى شكلت شخصية الكاتب والروافد التى استقى من معينها فكرة فأثمرت نتاجه الأدبى .

الفصل الثانى : عرض لموضوعات كتاب (مع المجتمع) يعتمد على التحليل الأدبى الذى يبرز مهارة الكاتب الفنية وقدرته التصويرية وإبداعه التعبيرى من خلال تذوق الألفاظ والعبارات والكشف عن مكنون إيقاع الدلالات الاجتماعية والفكرية والوجدانية مع بيان ما يتمتع به الكاتب من إحساس مرهف ومشاعر فياضة مهدت السبيل لتوظيف الألفاظ توظيفاً جيداً حدد بجلاء الأشكال والحركات والهيئات .

كما بين هذا الفصل تنوع مقالات محمد الأسمر بين الاجتماعى والوصفى والتأملى والموضوعى والانطباعى والتاريخى إلى جانب مقال السيرة .

وقد كشف هذا الفصل أيضاً عن درجة تناسق الأفكار وانسياب المعانى وتشابكها بحيوية نسجت صوراً تفيض بالصدق الشعورى والفنى .

الفصل الثالث : عرض الخصائص الأدبية عبر لمحات نقدية لأفكار وقضايا الكتاب ومن الجدير بالذكر أن كاتبنا كشف عن منهجه فى مقدمة كتابه فقال : " هذه مجموعة لكلمات لم نحلق فيها بين سماء الشعر ولم نغص فيها بين أعماق الفلسفة ولم نتعلق فيها بأدب نشرحه أو ننقده ولكنها كلمات تضمن أشياء شاهدناها فهى (لوحات) فى صفحات صورها لك قلم من الأقلام وهذه الكلمات أوحى بها ما يحيط بنا من شؤون الحياة لم أتكلف موضوعها ولم أزخرف ألفاظها فهى حديث الصديق . للصديق أقرب منها إلى تدبيج الأديب للأديب وإذا كان لكل أديب فى كتابه أسلوبه الخاص فكذلك لكل أديب فى حديثه أسلوبه الخاص ..... فإذا تأملت هذا الكتاب فتأمله على أنه (لوحات) لا صفحات وإذا قرأته فاقرأه على أنه حديث صديق لصديق لا تدبيج أديب وإذا نظرت إليه فانظر إليه كما تنظر إلى السحاب .

وبعد فهذا الكتاب لم يكن مقسماً أبواباً وإنما هو كلمات أرسلت إرسالاً أوحت بها مناسبات مختلفة وقد رأيت حين اعتزمت طبعه أن أجمع بين الكلمات التى من جو واحد فى باب واحد فجاء فيما سنقرؤه من الأبواب) .

والكلمات السابقة تكشف بجلاء عن منهج كاتبنا وخطته فى عرض موضوعاته الأدبية من سلاسة ووضوح عبر رؤية واعية تتدفق من وحى عواطف ناضجة وانفعالات صادقة وقد بين كاتبنا للمتذوق كيفية تذوق موضوعات فى تعبيره (إذا تأملت هذا الكتاب فتأمله على أنه (لوحات) لا صفحات) مما يوحى بإن الموضوع وحدة وجدانية اجتماعية حية متكاملة الملامح يهدى بعضها إلى البعض تنسجم ألحانها وحديثها وحركاتها وأفكارها لتدل على المغزى الواضح لرؤية اجتماعية ترصد سلوكيات المجتمع .

وثمرة القول :

إن بحث (مع المجتمع) يستقى معينه من رافدين أولهما دراسة تعتمد على العرض والتحليل وثانيهما دراسة نقدية تطبيقية مع ربطهما بالطابع الاجتماعى الذى شكل النسيج المتكامل للمقالات .

ومن الجدير بالذكر أننى أثرت عرض المقالات كما سطرها الأسمر حتى يتذوقها المتلقى بجلاء وذلك لأنها مترابطة الفقرات متشابكة العناصر والحذف منها يحدث فى نفسية المتذوق القلق الذى يشوش ملامح الصورة ثم عقبت بالتحليل الأدبى .

الفصل الأول

المبحث الأول : مجتمع محمد الأسمر

المبحث الثانى : محمد الأسمر حياته ومكانته الأدبية

المبحث الأول

مجتمع محمد الأسمر

المجتمع البشرى هو مجموعة كبيرة من الناس تعيش فى منطقة لها سمات جغرافية ومناخية تترابط أفرادها بروابط التعاون والتكامل والألفة وتعد هذه الروابط المعيار الصحيح الذى يحافظ على استمرار حياة المجتمع وتوثيق علاقة أفراده بعضهم البعض كما تترابط هذه الجماعة بقيم وعادات وتقاليد ونظم اجتماعية ومظاهر حضارية تميزها عن غيرها من المجتمعات ومجتمعنا المصرى الإسلامى أفضل المجتمعات التى تظهر فيها بجلاء جمال الروابط الاجتماعية ولكنه تعرض لطوفان من المظالم الأجنبية التى حاولت جاهدة تبديد سماته الحضارية وتمزيق روابطه الاجتماعية فقد انتكست الحياة فى مصر من جميع وجوهها نكسة خطيرة إذ استولى العثمانيون وعملاؤهم من المماليك على الأرض وكل ما نتج من ثمرات وكادوا لا يبقون لأصحابها الحقيقيين على شيء يقيمون به أودهم فكان طبيعياً أن يجف الضرع وأن يعم الظلام وأن تهوى كل الصروح التى شادها الأسلاف فى العلوم والآداب وفى الحضارة والصناعات والعمارة ومع ذلك فقد ظل الشعب المصرى محتفظاً بشخصيته وثار أكثر من مرة ولكن لم تنجح ثوراته ويشرف القرن الثامن عشر بغزو فرنسا لمصر وقد حاول نابليون جلب رضا الشعب المصرى عن طريق جذب رجال الأزهر إلا أن أخفق فقد أبصر المصريون جنده يحتسون الخمر ويأتون المنكرات ومن ثم قاوموه هو وحملته مقاومة عنيفة بقيادة رواد الأزهر الشرقاء كما تجرع المجتمع المصرى مظالم محمد علي وأسرته حيث كانت الأرض الزراعية له ولأسرته وحاشيته وقد ضاعف من عناء المجتمع المصرى نكسة التجارة التى نتج عنها تحول مصر الغالية إلى كلأ مباح

لا للمتاجر الأجنبية فحسب بل للأجانب أنفسهم ولحثالاتهم وشراذمهم التى قذف بها الغرب إلى ساحات بلادنا فملأوها بالمشارب والملاهى .

ومما سبق يتبين مرارة المعاناة التى تجرعها الشعب المصرى فى العصر الحديث ودفعت إلى فقدان التوازن الاجتماعى الذى دفع بدوره إلى تفشى الاضطرابات السلوكية والوجدانية وقد كشفت د. نجوى حسين عن نتائج طوفان المظالم التى تعرض لها الشعب المصرى فى كتابها (المجتمع المصرى قبل الثورة فى الصحافة المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢)(١) فقد تحدثت عن ظروف المجتمع المصرى بعد الحرب العالمية الثانية مشيرة إلى فقدان العدالة والمساواة بين طبقات الشعب وانتشار البطالة وشيوع الأمية وتفشى الأمراض بسبب سوء التغذية إلى جانب ارتفاع الأسعار الذى تولد عنه التدهور الاقتصادى كما ذكرت انتشار الأمراض الأخلاقية مثل الرشوة والمحسوبية والغش والتزوير والاختلاس والحقد والنفاق والتزلف وتعاطى المخدرات ولعب الميسر وقد أبرزت الدراسة أن الأزمات السياسية التى تعرضت لها مصر كانت السبب المباشر فى الاضطرابات الاجتماعية .

هذه هى الصورة العامة للمجتمع المصرى التى عاش فيها محمد الأسمر وقد تفاعل معها بصدق فسطرها فى كتابه النثرى الجيد (مع المجتمع) الذى عرض فى كل باب من أبوابه لمحات حية عن العادات والتقاليد والسلوكيات المصرية ففى باب (من وحى الحياة) كشف عن اضطراب ميزان العدل الاجتماعى وفى (باب من وحى الحرب) أعلن عن صلابة أبناء مصر وشرفهم وصمودهم أمام الطغيان وفى باب (من وحى الدين) أعلن أن القيم

---

(١) المجتمع المصرى قبل الثورة - إعداد د. نجوى حسين - هيئة الكتاب طبعة ١٩٩٥م - صفحات متفرقة .

الإسلامية سبيل النجاة والنصر وفى (باب من وحى النيل) حذر من فتن الأجنبى التى تحاول تمزيق الوحدة العربية وفى باب (من وحى الأغانى) حذر من تيار المجون الذى ورد مع الحملة الفرنسة مبينًا أننا أصحاب المثل الإسلامية الرفيعة التى تنادى بالفضيلة وفى باب (من وحى الدعابة) بين أثر الأمل فى البناء الاجتماعى الصحيح حيث يغرس فى النفس روح التحدى التى تثمر زهور الفوز الحضارى التقدمى النابع من العمل الجاد.

وبهذا فقد جمع كتاب مع المجتمع لمحات ناطقة من حياة المجتمع المصرى من طرح الحلول لحياة كريمة فاضلة وتميز بالحديث الموضوعى عن الإعلام المصرى وبين ضرورة ربطه بالقيم الإسلامية الشريفة والإطار الاجتماعى الذى يعبر عن الأصالة المصرية حيث ترجم بحس مرهف وصورة تعبيرية راقية نبضـــات المجتمع المصرى(١) ومشاعره وانفعالاته لأنه يعبر عن خواطره الذاتية ورؤيته الإيجابية لأنه جزء من بيئته المصرية التى عشقها بوعى وإجلال فقد عاش محمد الأسمر فى أحضان مصر

---

(١) راجع :

- علم النفس لتربوى والتوافق الاجتماعى د. عبد المجيد عبد الرحيم الطبعة الثانية ص٤٦ وما بعدها .
- مقدمة ابن خلدون . تحقيق د/ على عبد الواحد – الطبعة الأولىصفحات متفرقة .
- الأزهر تاريخه وتطوره طبعة عام ١٩٦٤م .
- فى الأدب العربى الحديث د. عمر الدسوقى ط. طبعة السادسة دار الفكر العربى .
- تاريخ آداب اللغة العربية – جورجى زيدان جـ٤ – طبعة دار الهلال .
- البارودى – رائد الشعر الحديث – د. شوقى ضي – دار المعارف بمصر .
- حافظ إبراهيم – شاعر النيل د. عب الحميد سند دار المعارف بمصر .
- المجتمع المصرىقبل الثرة نجوى حسين – هيئة الكتاب – طبعة ١٩٩٥م .

الخضراء بما لها من سحر وجمال وكبرياء ووداعة وعطاء ووفاء كما عاش فى رحاب الأزهر بماله من ريادة إسلامية وثقافة عالمية شريفة ومنزلة سامية فجمع الأسمر بين هذه الشمائل التى جعلته شمساً ساطعة تمد الدنيا بجمال الحضارة وسحر المدنية وقد كانت قصيدته التى أنشدها بالجامع الأزهر فى حفلة من حفلات توزيع الجوائز الملكية على أوائل الناجين فى الشهادة العالمية للأزهر ترجمة حية لنجوميته وريادته لعالم الأدب كما تعد شرفاً لمصر والأزهر الشريف قال فيها :

يا أيها الغر الأوائل حسبكم — عطف المليك فما أجل وأكبر
ونصيحة لكم الغداة نسوقها — لتبين ما ربما اختفى وتسترا
لا تحسبوا سبق الدراسة وحده — يغنى فيرخى ذيله من شمرا
سبق الدراسة ليس إلا سلما — هو أول الغابات ليس الأخرا
لا يقعدن المرء بعد نجاحه — ثملا ولا يخطر به متبخترا
كم آخر فى الدرس ثابر بعده — فسما وظل الأولون على الثرى
فخذوا بأسباب الحياة وواصلوا — خطواتكم تجنوا الشهى المثمرا
الأزهر المعمور يرعى روضة — ملك به دف النجاح وأزهرا
.... — ....
يسعى إليه المسلمون جميعهم — مثل الحجيج سعى إلى أم القرى
وردوا به الورد الشهى مذاقه — وجنوا به المتعهد المتخيرا
جمع القديم مع الجديد كليهما — أحبب به متبدياً متحضراً

علـــم الزعـــامة فى يديه وحده ... ما كان أحـــراه بـذاك وأجـــدرا
حمـل اللواء إلى الأمام فما مشـى ... يوماً به فى الحادثـات القهقـرى
وردت منـــاهلة البريـــة كلهـــا ... عسلاً مصـفى لا أجاجـا أكـــدرا
يمضى عن سنن الهدى مستنصراً ... بالله محمـــى الجنـــاب مظـفرا
بنت (الشريعة) من قـديم حصنها ... فيه وشـــيدت (الفصـاحة) منبرا
وتفضـــــل الله العلـــى وزاده ... فضـــــلا فأيـــده المليـــك وأزرا
بث الرعـــاية فيه خيــراً شـــاملاً ... وأقام فيه العدل (شـــيخاً أكبرا)
ضـــم الوشـــاح غداه نيط بصدره ... شـــرفاً وإيمـــاناً وقلباً خيـــراً(١)

والمتذوق لكلمات محمد الأسمر السابقة يدرك أنه يحثهم علـى استمرار طلب العلا والتميز المحمود والأخذ بأسباب الحياة كما أمر الإسـلام ويحذرهم من التراخى والكسل والتواكل ويدرك المتلقى لأبيات القصيدة بحـرارة عاطفة الشاعر وقدرته على توظيف الألفاظ لخدمة الأداء التعبيرى وقد راعنى من القصيدة الأبيات الآتية :

يســـعى إليه المسلمون جميعهم ... مثل الحجيج سعى لى أم القرى
وردوا به الورد الشـــهى مذاقه ... وجنوا به المتعهـــد المتخيـــرا
جمع القديم مع الجديـــد كليهما ... أحـبب به متبديـــاً متحضـــراً
علـــم الزعامة فى يديه وحده ... ما كان أحـــراه بـذاك وأجدرا
حمل اللواء لى الأمام فما مشى ... يومـــاً فى الحادثات القهقـــرى
وردت مناهلـــه البريـــة كلها ... عسـلاً مصـــفى لا أجاجا أكدرا

(١) ديوان الأسمر - شركة فن الطباعة شبرا - ص٤٩ : ٥٢ .

نعم إن الأزهـر قبلـة الدنيـا ونـور الحيـاة يـأتى إليـه الجميـع طلبـاً للعلـم والمعرفة وجميل تعبيره (يسعى) الذى كشف عن درجـة المجهـود المبـذول من المسلمين الذين يرغبون فى الإقبال على الأزهر وقد ضاعف المعنى شرفاً تشبيههم بالحجيج مما أوحى بطهارة الأزهر ودوره الفكرى والروحى النبيل .

وقد أجاد الأسمر حينما بين تفتح الأزهر وتطوره بوعـى وبصـيرة فهـو يأخذ بأسباب التقدم والنهضة مع تقديره لسـمات الأصالـة الموروثـة كمـا أجـاد عندما قال (علم الزعامة فى يديه وحده) وهو تعبير وضح تفرد الأزهر ودل على ثقة الدنيا بقدرته على دوره بإيجابية وأكد شاعرنا هـذه الثقـة فى مقولتـه (حمل اللواء إلى الأمام) .

وأبدع الأسمر حينما بين آثار الأزهر الطيبة فى تعبيره (وردت مناهلـة البرية كلها عسلاً مصفى) وأحسن حينما أعلن أن منهج الأزهر فى نشر لواء العلا والأخلاقيات يرتشف أنواره من القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ .

ونحـن الآن أبنـاء الأزهـر الشـريف نجـدد العهـد الـذى تغنـى بـه محمـد الأسمر لنحافظ على منزلة أزهرنا ومكانته .

وثمرة المطاف :

تشرب محمد الأسمر مـن بيئتـه المصريـة الخضـراء كمـا تشـرب مـن الأزهر الشريف ثقافته ومعارفه فتمتع بحياة اجتماعية شريفة تفوح بعبير العزة والكبرياء والكرامة وتشبع بفكر نبيل يشـع بوجـدان رفيـع شـكل طبيعـة نتاجـه الأدبى وسوف يدرك المتـذوق عبـر عـرض مقـالات (مـع المجتمـع) درجـة ذوبان الأسمر الاجتماعى والوجدانى المصرى الأزهرى الذى يفيض بعذوبـة النيل الساحر .

المبحث الثانى

محمد الأسمر

حياته ومكانته الأدبية

تتكون سطور العمر الإنسانى من حروف حية تسجلها المواقف التى تشكل عبارات ناطقة ترتبط بالشخصية وتهدى إليها وتميزها وتترجم صفاتها الاجتماعية والوجدانية والفكرية وهذه العبارات وليدة الأيام والتجارب التى تخط للإنسان سطور عمره فى دنيا الحياة ويشرق أول حرف من سطور العمر منذ لحظة الميلاد التى تعلن الوجود الإنسانى الذى يتميز كل فرد فيه بسماته وصفاته ومنهج حياته ومن الجدير بالذكر أن الباحث الأدبى عندما يتناول سيرة للمنشىء يبدأ بتاريخ ميلاده وموطنه لما فى ذلك من تحديد لملامح الظروف الحية التى تتفاعل فتكون علامات واضحة فى نتاجه الفنى تظهر فى طبيعة اختياره لموضوعاته وصياغته ودلالالته الاجتماعية والوجدانية التى تتجلى من خلال إيحاء تجاربه التى تشع برنين الصدق الشعورى مما يجعل نتاجه يمثل قطاعاً حياً من نسيج البيئة ولهذا يجب على الباحث الأدبى أن يتعايش مع المنشىء لحد يصل إلى درجة الذوبان الاجتماعى والنفسى ليكشف النقاب بجلاء عن رؤية المنشىء فى الأبعاد المعنوية التى تنبع من الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية فيعود بالذاكرة إلى تاريخ ميلاد وظروف منشىء بحثه والآن يفتح البحث صفحة ذكريات المفتن الذى أضاء كتاب النهضة الأدبية وأعلن أن للأزهر دوراً فنياً حضارياً ثقافياً .

وأديبنا هو محمد بن محمد الأسمر ولد بمدينة دمياط فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٠م وفى الثامنة من عمره تقريباً دخل تلميذاً بإحدى المدارس الأهلية

بمدينة دمياط وكان من العلوم التى يتلقاها فى المدرسة حفظ القرآن الكريم وقد حفظ نصفه بها وبعض المحفوظات الأدبية شعراً ونثراً والنحو والإملاء والحساب وتخرج من هذه المدرسة سنة ١٩١٤م وزاول التدريس بها شهوراً لم يسترح إلى التدريس وكان فى فطرته حب الشعر والميل إليه ومما ساعد على إظهار ذلك الميل للمحفوظات الأدبية التى كان يدرسها بالمدرسة الأهلية وما كان يسمعه من قصة أبى زيد الهلالى على الربابة بمقاهى دمياط حيث كان يستمع إليها وهو فى طفولته مع بعض الأطفال الواقفين بجوار المقهى وهو لا يجرؤ على دخوله ولا تسمح له تربيته المنزلية والمدرسية بذلك الدخول فلما شب قليلاً استغنى عن ذلك الوقوف بشراء قصة أبى زيد وغيرها من القصص المعروفة فى ذلك الحين مثل قصة سيف ذى يزن وغيرها وكان يقرأ هذه الأشعار وهذه القصص فى نهم شديد ونشوة تأخذ عليه كل مشاعره ثم أحس برغبته فى الاستزادة من التعلم وحدث أن قابل بعض طلبة معهد دمياط الدينى واطلع على ما بأيديهم من الكتب فراى علوماً جديدة بالنسبة له فشاقه ذلك إلى دراستها فالتحق بالمعهد طالباً فى سنة ١٩١٥م .

وفى سنة ١٩٢٠م غادر معهد دمياط ليلتحق بمدرسة القضاء الشرعى وقد نجح فى امتحان المسابقة لدخول هذه المدرسة وظل بها ثلاث سنوات ثم ألغت الحكومة لأسباب سياسية هذه المدرسة وكانت من خير المعاهد العلمية فالتحق طالباً بالأزهر .

وزال فى أثناء التحاقه بالأزهر التصحيح بجريدة السياسة التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين بمصر يعمل بها مساء حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل وفى الصباح يحضر دروسه طالباً بالأزهر واستمر على ذلك ثلاث سنوات كان يجمع فيها بين العمل ليلاً ونهاراً ففى الليل يصحح جريدة

السياسة وفى النهار الطالب المجد بالأزهر وفى ذلك الحين كانت تنشر له جريدة السياسة الأسبوعية قصائده الشعرية ومقالاته الأدبية وكان يحبه ويعجب به المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق المفتش بالمحاكم الشرعية تخرج الأسمر من الأزهر ونال العالمية ١٩٣٠م ثم عين بعد ذلك أمين المحفوظات بإدارة المعاهد الأزهرية الدينية ثم معاوناً لمكتبة الأزهر ثم أميناً لمكتبة المعهد الدينى بالأسكندرية مع بقائه بالقاهرة منتدباً بالعمل بمكتبة الأزهر ثم أميناً لمكتبة الأزهر(١) .

لقب الأسمر : ذكر القائمقام عبد الحميد فهى مرسى صديق محمد الأسمر (قلت فى يوم من الأيام إنك أبيض الوجه فما لقب الأسمر هذا ؟ فقال لى إن علماء البلاغة يسمون هذا النوع (التمليح) وأما إذا عكست وسميت الأسمر بالأبيض فهو عندهم التهكم .

وقال لى : إن من الصحابة رضوان الله عليهم من كان يعرف بالأسمر والأسود وقال إن لقب الأسمر موجود فى البلاد العربية .

ثم قال : إنه فيما مضى قدم من مراكش إلى دمياط رجل من كرام الرجال هو فاتح بن عثمان الأسمر التكرورى كان من المتصوفة الذين لا يحيدون عن الكتاب والسنة فى أقوالهم وأفعالهم وانتفع بفضله وبركته خلق كثير..... ولهذا أطلق على أديبنا الأسمر من باب طلب اليمن والبركة(٢) .

---

(١) الأزهر فى ألف عام : أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى – الطبعة الأولى ١٩٥٥م جـ٣ ص١٢٣ : ١٢٩ رمز (ى) رقم ١٦٩٣٨ يوجد فى هيئة الكتاب المصرية .

(٢) مقدمة ديوان الأسمر بتصرف .

صفاته وأخلاقه :

نشأ محمد الأسمر فى رحاب (دمياط) و (رأس البر) حيث (النيل) الصامت المتزن وحيث (البحر الأبيض المتوسط) الصائح الصاخب فاستمد من هذا وذاك الكثير من أخلاقه فهو يميل إلى الاعتدال والهدوء فى أكثر أحواله كأنه النيل فى وقاره واتزانه وقد تراه يصدع بالحق فى صراحة وإخلاص وكأنه البحر فى هياجه وصخبه !

يتمتع محمد الأسمر بقلب كبير وتنطوى جوانحه علىنفس عظيمة محبة للخير مترفعة عن الصغائر ومن أبرز صفات كاتبنا الوفاء وحبه العظيم لأصدقائه وهو مطبوع على الكرم والرقة ودماثة الخلق وحب النظام وهو صاحب ذوق سليم يتخير أفضل الأشياء من مأكل وملبس وغيرهما مما يتصل بشئون حياته مكرم لنفسه مكرم للناس وكاتبنا حسن المعاشرة لطيف الدعابة محبوب من عارفيه عاشق للعدالة فى جميع صورها منصف لزملائه الشعراء كثير الاعتراف بفضلهم .

ويتسم الأسمر بشرف الخلق فهو أبعد الناس عن الغيبة والنميمة كما أنه يتملس الأعذار للناس وينهى عن التطفل والخوض فى أمور الغير قائلاً : لو تفرغ كل منا لقراءة صحيفته لوجد ما يشغله عن قراءة صحائف الآخرين .

وفى الأسمر صوفية كامنة فهو على أناقته فى كل أموره لا يحرص على الدنيا ولا ينظر إليها نظرة جدية فهى ~~هينة~~ هينة بكل ما فيها وطالما قال : إن أحب الأشياء إلى فى هذه الدنيا التجرد منها ويرجع تمتع الأسمر بهذه الصفات الوجدانية النبيلة والسلوكيات الشريفة إلى تشبعه بالعلوم والمعارف الإسلامية

بوعى وبصيرة والتى ارتشف رحيقها من رحاب الأزهر الشريف ويضاف إلى نبله الخلقى وسلوكه الرفيع تمتعه بحسن المظهر فقد كان يتزين بالزى الأزهرى الأنيق إلى جانب ما كان يتسم به من ظرف ينبض بالروح المصرية الظريفة(١) .

مكونات شخصيته الأدبية :

تزدهر براعم الشخصية الأدبية من روافد تذوب داخل إطار عيون التكامل الفنى الأدبى حيث تتشابك آيات الموهبة والاستعداد مع سبل الدربة والممارسة وقد ارتشف كاتبنا من روافد نهر الفن الأدبى بحاسة فنية راقية رقيقة حتى أصبح ثمرة طيبة متميزة فى رياض الأدب العالمى الإنسانى فقد غادر دمياط إلى القاهرة عام ١٩٢٠م فوجد أمامه آفاقاً جديدة حية حيث اتصل بأدبائها وشعرائها كما اتصل بالكثير من رجال السياسة بها وعكف على قراءة الكثير من الكتب الأدبية ودواوين الشعراء قديمهم وحديثهم واستطاع بمثابرته أن يكون وهو طالب من شعراء مصر النابغين فقد دخل مسابقات شعرية كثيرة نال فيها الجائزة الأولى ومن هذه المسابقات المسابقة التى أقامتها إذاعة لندن بين شعراء البلاد العربية أثناء الحرب العالمية الثانية ففازت قصيدته (الديمقراطية) بالجائزة الأولى بين شعراء العالم العربى وقالت عنها جريدة الأهرام إن هذا الفوز الأدبى يعد فوزاً لمصر وكان بينه وبين أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام صداقة ومودة وكان أنطون الجميل يعجب بشعره كثيراً وكان لهذا الإعجاب ولجريدة الأهرام الأثر المحمود فى نفس الأسمر

---

(١) مقدمة ديوان محمد الأسمر - عبد الحميد فهى مرسى شركة فن الطباعة - شبرا - مصر ، الأهر فى ألف عام أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى - الطبعة الأولى ١٩٥٥م جـ٣ ص١٢٣ بتصرف .

كما كان للمغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق(١) شيخ الأزهر ولجريدة السياسة الأسبوعية الأثر العظيم فى ترقية أدبه .

ومن الجدير بالذكر أن الأسمر كان يتميز ببعد النظر وإصابة الرأى وذكاء المنطق فقد كان يؤخذ برأيه فى بعض الأفلام السينمائية الأجنبية قبل عرضها كما اختير عضواً فى لجنة النصوص بالإذاعة المصرية وعمل هذه اللجنة بحث فى الأغانى من الناحية الأدبية والاجتماعية لإقرار أو اختيار الصالح للإذاعة أو تعديله أو استبعاده كما اختير عضواً فى كثير من لجان المسابقات الشعرية وانشأ فى جريدة الزمان المصرية باباً أسماه ركن الأدب كان يشرف على تحريره وكانت الرسالة الأولى لهذا الركن الأخذ بين الناشئين من الأدباء وتمهيد الطريق أمامهم وأمام الشعراء المغمورين للظهور وقد لاحت لهذا الركن ثمرات طيبة فى وقت قصير . ومن قصيدته (الديمقراطية) التى فازت بالجائزة هذه الأبيات التى توحى بما لشاعرنا من إنسانية راقية ووعى دينى :

أمنـــا الأرض أنبتتنا جميعـــاً	ليس فينـــا من ينتمى للســـماء
ليس شعب من الشعــوب بعبد	لا ولد أمــــة ببعـــض الإماء
لم أجد فى الحياة مثل المســـاوا	ة أساســـــاً لكل بانى بنـــاء
هام(موسى) الكليم يبحث عنهـــا	غاضباً ســـاخطاً على الكبرياء
و (المسيح) الكريم نادى إليهـــا	مخلصـــاً صـــابراً على الإيذاء
ثم وافى بها كما أشـــرق الصبـ	ـح على الكون (خاتم الأنبياء)

(١) للشيخ عبد الرازق ترجمة جيدة فى (الأزهر فى ألف عام) جـ١ ص ١٨١ : ١٨٨ .

وجلاها للنـــــاس قولاً وفعــــلاً ورعتهـــا رعاية (الخلفـــاء)

جابت العالمين أســـرع من بر ق الدياجـــى وموجـة الكهرباء

زلزلت(قيصراً) ومالت(بكسرى) وأصــــابت مقــاتل الخيـلاء

وأقامت للعـــدل ملكاً تســـاوى فيـــه من يملكـــون بالدهماء

كل هاد دعا إليهــــا فمـــاذا لو أصخنـــا إلى جميـــل الدعاء(١)

والمتذوق للأبيات يدرك نداء الأسمر النبيل للعدل والمساواة والوحدة الإنسانية وتجنب العصبية الدينية .

وقد أجاد حينما جمع بين سيدنا المصطفى ﷺ وبين سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام حيث بين للبشرية ضرورة تحقق بذور الأمن والسلام للعالم .

وبعد :

فقد شكلت شخصية الأسمر الأدبية الروافد الآتية :

- الموهبة والاستعداد .
- الثقافة الأزهرية الناضجة مع شغفه بهذه الدراسة مما أثر فى تكوينه الفكرى الأدبى .
- تعهده أمهات الكتب الأدبية والدواوين بالقراءة الواعية والدراسة المثمرة والتذوق الراقى .

---

(١) الأزهر فى ألف عام أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى جـ٣ ص١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف .
، مذاهب الأدب . أ. د. عبد المنعم خفاجى-الطبعة الأولى ١٩٥٢م ص١٨٨ بتصرف.
، ديوان محمد الأسمر – فن الطباعة شبرا – ص٤٤١ ، ٤٤٢ .

- صحبته لبعض رواد الأزهر العظماء مثل الشيخ مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق وقد اتسمت صحبته لهما بالإجلال والود والوفاء والاقتناع التام بشخصيتهما النابع من الاقتناع بالأزهر الشريف منار الإسلام وراية مصر .
- المشاركة الإيجابية الواعية فى تحديد صفات الأغانى والأفلام للحفاظ على سلامة الأخلاقيات الإسلامية الشريفة .

نتاج محمد الأسمر

ينقسم نتاج محمد الأسمر إلى قسمين : شعرى ونثرى .

أولاً : الشعر :

للأسمر(تغريدات الصباح) وهى أول مجموعة شعرية له وقد كتب مقدمة هذه المجموعة أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهـرام وديوانـه الضخم الذى ظهر بعد (تغريدات الصباح) وجمع الشاعر فى هذا الديوان كل شـعره حتى سنة ١٩٥٠م وضمنه مجموعة (تغريدات الصباح) الذى وضع مقدمتـه صديقه القائمقام عبد الحميد مرسى وله أيضاً بين الأعاصير وهو ديوان يضـم ما نظمه الشاعر بعد سنة ١٩٥٠ وقد كتبت مقدمته وطبعته دار الفكر العربى.

والناظر فى ديوان الأسمر يجد أنه يضم الأبواب الآتية :

- محمد ﷺ
- ملكيات
- قوميات
- سياسيات
- شرقيات
- فلسطين
- سودانيات
- مدرسيات
- دموع وزفرات
- الرازقيات (تخص الشيخ مصطفى عبد الرازق)
- الجميليات (تخص أنطون الجميل)
- وحى المصطاف
- نسائيات
- إخوانيات ودعابات
- شعراء الحانة
- اجتماعيات
- هؤلاء عرفتهم
- مختلفات
- المراثى

وقد أشرق الديوان بالتغنى بميلاد الحبيب ﷺ قال فيها :

يا (مصطفى) أدعوك دعوة شـاعر وافى إليـك بشـعره متضرعاً
هب لى من النفحات ما أشفى به نفسـاً معذبة وقلباً موجعـاً
فلعـل صـدرا أن تزول همومه وعليل قوم أن يصـح وينفعـا
ولعـل ذابلـة الرجاء ينالهـا بلل من الغيث العميـم فتينعـا
صلى عليـك الله " جل جـلاله " دنيـا وأخرى شـافعاً ومشفعاً

وشاعرنا فى النغمات السابقة ينم عن روح إسلامية صافية تهفو فى رحاب جمال الأنوار المحمدية وقد تمتعت الأنغام الإيقاعية برقة الأصوات الموسيقية النابعة من رشاقة الحروف وتناسقها مع الألفاظ وانسجام عناصر الصورة .

والمتلقى لشعر الأسمر يستمتع بعواطف جياشة صادقة وصور بديعة ساحرة تنطق بجمال النظم وحلاوة السبك ورقة الطبع .

ثانياً : النثر : يمثله كتابه النثرى (مع المجتمع) وهو موضوع البحث وينقسم هذا الكتاب إلى الأبواب الآتية :

١ - من وحى الحياة
٢ - من وحى الحرب
٣ - من وحى الدين
٤ - من وحى النيل
٥ - من وحى الأغانى
٦ - من وحى الدعابة ؛

وهـى مجموعـة مقـالات وصفيـة واجتماعيـة وانطباعيـة وتاريخيـة وموضوعية إلى جانب مقال السيرة يذكرنا الأسمر فيها بالعصر الذهبـى للنـثر الفنى الذى ازدهر على يد الجاحظ(١) .

مذهب محمد الأسمر الأدبى :

يرتبط منهج الأديب بطبيعة تكوينه الاجتماعى والفكرى والوجدانى التى تشكل بدورها الذوق العام للمنتشىء وكاتبنا مصرى البيئة أزهـرى الثقافـة ممـا طبـع شخصيته بوداعـة النفس وطيبـة القلـب وشرف الخلـق ونقـاء الوجـدان فأصبح يتمتع بذوق رفيع دقيق تجلى فى نظرته لجودة الأثر الأدبى حيث يرى تحققها بمراعاة القواعد والأصول الفنية الخاصة بكل لون من ألـوان الأجنـاس الأدبية ويرى محمد الأسمر أن إعداد الأثر الأدبى لا يستقيم أمره إلا إذا كملت أدواته وأهمها .

- الاطلاع على الأبعاد اللغوية ودلالاتها .
- الشعور الصادق بالموضوع .
- القدرة على ترجمة المشاعر والعواطف .

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن محبوب لا بدائية كاتب فى سعة ثقافته ورشاقة أسـلوبه كثير الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة مولده ووفاتـه فـى البصـرة فلج فـى آخـر عمره وكان مشوه الخلقة مات والكتاب على صـدره قتلتـه مجلدات مـن الكتـب وقعت عليه له تصانيف كثيرة منها الحيوان ، وسحر البيان ، التاج ، الأضداد ، تنبيه الملـوك، والدلائل والإعجاء والبخلاء ، والبيان والتبين وغير ذلك .
الأعلام – الزركلى – طبعة بيروت – جـ٥ ص٧٤ .

وقد ناقش الأسمر منهج النظم الشعرى فأعلن أن للشعر أصولاً فنية يجب مراعاتها مع كل لون من ألوانه أهمها أن تكون لدى الشاعر الموهبة والأصالة فى النوع الذى ينظر فيه والأسمر لا يرى مذاهب الشعر مذاهب متنافرة ولكن يراها أنواعاً وألواناً كلها جميل إذا تمت لكل منها الأصالة والإجادة ويرى أنه يجب على كل شاعر أن يدرس نفسه فيغرد التغريد الذى يميل إليه بفطرته وأن يبتعد كل الابتعاد عن التقليد .

والأسمر ليس من الذين يتعصبون للشعر القديم أو الشعر الحديث ولكنه يميل إلى الجيد منه فى شتى عصوره ، فهو لا يتعصب لأى لون من ألوان الشعر بل يرى أن من الحق الطبيعى لكل شاعر أن يغرد بما يتفق مع ميوله وفطرته ولكنه يرى أن الشعر لابد له من أمرين : أولهما وضوح المعنى وثانيهما البراعة الفنية فى صياغة التعبير .... وهو يعد هذين الأمرين جناحى الشاعر الذى يحلق بهما فى سماء الشعر مثله فى ذلك مثل الطائر .. لا يستطيع التحليق بغير جناحين لا بجناح واحد(١) .

ويتبين مما سبق أن مذهب الأسمر الأدبى (أى طريقته ومنهجه) يبرز فى ضرورة الإجادة الفنية للأثر الأدبى التى تشرق من .

- الأصالة التعبيرية التى تدفع إلى الطلاقة الفنية .

- تجنب التقليد لأنه يدفع إلى الجمود الفكرى .

---

(١) مقدمة ديوان الأسمر .

، الأزهر فى ألف عام – أ. د. عبد المنعم خفاجى خاص ١٢٥ .

، مذاهب الأدب . أ. د. عبد المنعم خفاجى ص١٨١ : ١٨٧ بتصرف .

، الأدب العربى الحدث ومدارسه ، أ. د. عبد المنعم خفاجى ص ص ٢٠٩ : ٢١٠ بتصرف .

- الإيمان العميق بفكرة الموضوع .

- الصدق العاطفى الذى يتجلى فى عرض المنشىء لفكرته وهذا المنهج لا يقتصر على الفن الشعرى بل هو المذهب العام الذى يؤمن به لجودة الآثار الأدبية .

ومما سبق يتبين تمتع الأسمر بحاسة نقدية راقية تولدت من الموهبة والاستعداد والدربة والممارسة .

محمد الأسمر فى الميزان الأدبى :

محمد الأسمر أديب رقيق الشمائل مرهف الأحاسيس جياش العواطف وديع الطباع مما جعله متميزاً بين أدباء عصره وقد ذاع شعره خاصة حتى أجمع على الإعجاب به الخاصة والعامة وطرب الناس لما يقوله مهما اختلفت ثقافاتهم وأصبح له منزلة أدبية رفيعة ضاعفها معاصرة الأسمر لرجال كانوا فى الأدب موازين دقيقة اعترفوا له بالفضل والعبقرية فى فنه فمما قاله الأستاذ الأكبر (الشيخ محمد مصطفى المراغى) شيخ الجامع الأزهر : (إن الأستاذ الأسمر رفع من شأن خريجى الأزهر فى مناسبات مختلفة أمام الهيئات التى لم تتصل بالتعليم الأزهرى عن كثب) .

ومما قاله الأستاذ الأكبر (الشيخ مصطفى عبد الرازق) شيخ الجامع الأزهر ما يأتى :

" لشعرك تأثير فى نفسى أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ذلك أنه فيض نفسى وقد يكون سحراً ذلك الذى ترسله نفحاً موسيقياً فى أسلوب سهل فيسرى فى الأرواح ويفجر العواطف خلالها تفجيراً) .

كما أثنى عليه العالم الجليل (محمد محمد الشافعى الظواهرى) الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر فقال :

(فى شعر الأسمر جمال كثير فالكلمة المفردة فى شعره منتقاه لها جمالها الخاص بها .. وتقرأ القصيدة كلها فتجد كل بيت أخذ من الأبيات الأخرى لوناً آخر من الجمال زياده على جماله الخاص به .. ففى شعر الأسمر جمال مستقل وجمال متشابك متجدد .. والأسمر موفق كل التوفيق فى اختيار ألفاظه لمعانيه حتى كأن معانيه فيها مغناطيسية تجذب إليها ألفاظها التى يتطلبها المثل الأعلى لصياغة الشعر) .

كما وصف شعر الأسمر الشاعر الكبير (خليل مطران) فقال إن شعر الأسمر رائع فاتن وهو أشبه الأشياء بقوس قزح فى جماله وتعدد ألوانه ، وقال عنه الشاعر (عزيز أباظة) إن شعر الأسمر مزاج من الحس الدقيق فى الشعر الرقيق وتلك مرتبة ارتفع لها الشاعر الكبير وأخشى أن تكون أعجزت بعده كل شاعر كبير وقد جذب شعره رجال الأعلام والصحافة منهم أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام الذى قال فى وصف شعر الأسمر: شعر الأسمر فى معظمه مزيج من الحقيقة والخيال يرتفع الشاعر حينا فى جو التصوير فيصور ما يجلوه له الخيال ويغوص إلى أعماق النفس حيناً فيروى ما يشعره به حسه ويدرج حيناً فى عالم الحقائق المجردة فيصف، شئون الحياة كما هى جميلة أو شوهاء سعيدة أو مبتئسة مفترة الثغر أو مقطبة الجبين .. ولما كان شاعرنا خبيراً بأساليب النظم عليمٌ بأسرار القوافى فإن التعبير يجيئه فى هذه المواقف الثلاثة طيعاً ويلبيه مؤديًا لما يريد.. والأسمر حينما يدرج فى عالم الحقائق المجردة لا يتورع عن اقتناص اللفظة الواقعية وإن كان الشعراء قد تواضعوا على نبذها من لغة الشعر وقد نحا هذا

النحو (فيكتور هوجو) الذى ذهب هذا المذهب قبل سواه حين قال : " لقد أثرت عاصفة فى قعر الدواة فلم يبق هناك كلمات من طبقة الأشراف وكلمات من طبقة السوقة " ...

وقلت عنه (بنت الشاطىء) لشعر الأستاذ الأسمر طابعه الخاص الذى يتلاقى فيه القديم والجديد ففيه ما يرضى أصحاب المدرسة التقليدية المولعة بفخامة اللفظ وجزالة العبارة وإجادة السبك وفيه ما يرضى أبناء المدرسة المفتونة بحرية التعبير وبساطة الأداء ورقة النغم وقد يأتلف المذهبان ويجتمعان عنده فى القصيدة الواحدة فتصدر بالغة القوة عنيفة الواقع رائعة الأسر عالية الرنين : وأناشيد الشاعر وقصائده المعبرة عن وقع الحياة على حسه ووجدانه تتميزو بعذوبة النغم وفيها تتجلى من الأسمر شخصية (شاعر العصر) بكل ما تعرف عن عصرنا من حرية وطلاقة وبساطة وشعر الأسمر عن الأشخاص الذين عرفهم أو أعجب بهم قد يضيق به ناقد يكره شعر المناسبات ولكنى أبادر فأشيد بأن الأسمر لا يبدو هنا ممن يتصيدون المناسبة ليقولوا الشعر وإنما يقوله حين تقوى المناسبة فتهز وجدانه وتثير شاعريته ومن ثم لم تكن قصائده فى هذا المجال مجرد نظم متكلف مصنوع وإنما هى من نوع الإخونيات التى اعترف بها الأدب العربى من قديم وأدخلها فى تراثه الفنى ... فهو لا يتحدث عن الشخص إلا مخلصاًصادقاً ولا يمدح من يمدح أو يرثى من يرثى إلا عن ود وفاء أما الزعيمة الجليلة (هدى شعراوى) فقالت إن شعر الأسمر كنغمات (البيانو) وهو غذاء كامل للروح وإن الأسمر يمتاز بمقدرته على إبراز معانيه التى يريدها إبرازًا كامل الوضوح حتى لتكاد وهى معنى من المعانى – نراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا(١) .

---

(١) مقدمة ديوان الأسمر صفحات متفرقة بتصرف .

، الأدب العربى لحديث ومدارسه أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى٢٠٧:٢٠٥ بتصرف .

وإذا كان شعر الأسمر موضع تقدير كبار العلماء والأدباء في عصره فهو أيضاً موضع تقدير كبار الزملاء من شعراء هذا العصر فقد أثنى عليه صديقه الشاعر محمد غنيم(١) فقال :

شعرك يا (أسمر) في قربه   أنأى من الزهرة ولمشترى

عجبت يا صاح لصاح تلا   ديوانك العذب ولم يسكر؟!

والمتلقي الكريم لأضواء الثناء السابقة يجد أنها ركزت أنوارها على صياغة الأسمر الشعرية فذكرت أنها تتميز بالصدق الشعوري والقدرة التعبيرية والتفرد الفني وتجمع بين الأصالة والتجديد والواقع أن حكم الأدباء والأعلام والشعراء على نتاج الأسمر الشعري فقط يرجع إلى غزارته وذيوع صيت الأسمر به والحقيقة أن من يتذوق نتاجه النثري المتمثل في مقالات (مع المجتمع) يجد أنها تتسم بالخصائص الفنية والأدبية الرفيعة التي يتسم بها شعره من جمال أسلوبي وسحر تعبيري وبراعة تصويرية وصدق عاطفي وتناسق لفظي وانسجام تشكيلي ودلالات إيقاعية توحي بطبيعة الأفكار والمعاني وبهذا فالأسمر طائر مغرد يحلق بجناحين أحدهما الشعر والآخر النثر وهما معاً نبض الأديب وروحه لهما المنزلة الأدبية الشريفة والتميز لذي مع تفردالشعر بموسيقى الوزن والقافية وسوف يعرض البحث - بإذن الله - في الفصل الثالث السمات الفنية لنثر الأسمر التي تكشف بجلاء ما يتمتع به من صفات أدبية تبين ان الأسمر كاتبٌ سطع نجمه في سماء النثر فأصبح رائداً تهتدي به كتاب العصر الحديث .

---

(١) محمود غنيم (١٩٠١-١٩٠٢) شاعر مصري مدرس ولد ونشأ في قرية (كوم حمادة) وتخرج بدار العلوم (١٩٢٩م) وعمل في التدريس ثم كان مفتشاً للتعليم الأجنبي (١٩٤٦م) وعالج الشعر من صغره وفاز بجوائز له (صرخة في واد) ، و (ديوان شعر) و (في ظلام الثورة) ، و (مسرحيات مدرسية) وقيل في وصف أسلوبه الشعري : إنه خليفة حافظ إبراهيم الأعلام - الزركلي - ج٧ ص١٧٩ طبعة بيروت .

الفصل الثانى

مـع المجتمـــع

(عرض وتحليل)

مع المجتمع عرض وتحليل :

أشرق كتاب (مع المجتمع) بباب عنوانه (من وحى الحياة) ويضم هذا الباب المقالات الآتية :

- مسرحية الحياة
- أمواج البحر وأمواج البر
- معركة الذهب
- حقيقة الإنسان
- القرنفليون
- بائع الجنبرى
- المتعلقون والمتلقون
- نفاق ونفاقياق
- الانتفاخ والانتقاش
- قطان جائعان
- القط ياسمين
- جناية أم
- قلب الأوضاع
- مظاهرة
- مع القمر
- الشكوى
- بين الكذب والسياسة
- الناصحون واللائمون
- أرح ناقتيك
- شروق وغروب
- زحام وزعق وضجيج
- كراكيب
- الباقى من الزمن

وسوف يعرض البحث بإذن الله - كل مقال بصفة مستقلة ليعيش المتذوق في رحاب بعده الاجتماعى والفكرى والوجدانى ويقف على مهارة محمد الأسمرفى فن المقال الأدبى .

فُتح ستار مع المجتمع على (**مسرحية الحياة**) بدأ الكاتب المقال بفكرة تبين علاقة الحياة بالمسرح فقال " ما أشبه هذه الحياة بمسرحية متعددة المناظر كثيرة الفصول ولكنها تخالف جميع المسرحيات التى نعرفها فإن النظارة فيها هم أيضاً الممثلون !!

من منا فى هذه الحياة لا يقوم بدوره الخاص به شعر بذلك أم لم يشعر؟! الكبير يقوم بدوره ككبير والصغير يقوم بدوره كصغير حتى البهائم تقوم هى الأخرى أيضاً بأدوارها وعندى أن كل هؤلاء الممثلين لهذه المسرحية متساوون فى عالم الحقيقة وإن اختلفوا فى عالم التمثيل(١) .

صور الكاتب الحياة بمسرحية متعددة المناظر والفصول وبين أن لكل فرد فى الحياة دوره الذى يلتزم به من منبع واقعه العمرى الذى يتفاعل مع ظروف البيئة الاجتماعية والفكرية والوجدانية ويكشف كاتبنا تمتع الجتمع بالصدق فى أداء دوره ولا يقتصر الصدق على القطاع البشرى بل يشمل عالم الحيوان ويتحدث المنشىء عن ظاهرة سلوكية تنتشر بين القطاع الإنسانى والحيوانى بإسلوب تشوبه سخرية التعجب وفلسفة التأمل قائلاً :

(وهذه المسرحية لا تخلو من قوى يظلم ومظلوم يثور ودماء تسيل وسجون تملأ ثم لا يكاد يمضى قرن على هؤلاء جيعاً حتى يصبحوا تحت الأرض موسدين وهم متجاورون متحابون كأنهم إخوة أشقاء فى أحضان أم رءوم أنامتهم بعد عبثهم فناموا هادئين مسترحين) .

---

(١) مع المجتمع – المطبعة المرانيرية طبعة ١٩٥٥ ص٧

والمتلقى يجد أن كاتبنا أثار قضية الظلم وما ينجم عنها ، من أضرار اجتماعية تهدد كيان الترابط بين أفراد الهيكل الاجتماعى وإشارة كاتبنا للظلم توحى بما كان فى المجتمع من اضطرابات دفعت إلى فساد العلاقات الإنسانية مع تكاثف الغيوم التى حجبت المشاعر الراقية لما فى الظلم من ضباب أسود ويتنهد كاتبنا بزفرة رجاء ليقنع بها نفسه بأن دائرة الظلم السائدة فى مجتمعه من باب التمثيل :

(أما ظلم الظالم أما ثورة المظلوم أما الدماء السائلة أما السجون الممتلئة فكل ذلك تمثيل فى تمثيل) .

ولعل رأى المنشىء يترجم بذكاء ما وراء المظالم الواقعة بين أبناء المجتمع المصرى فهى مظالم دسها الدخيل وبثها الأجنبى .

ويستمر المنشىء فى حديثه الاجتماعى التأملى ليصل إلى رؤيته فى الحياة :

(ولعل أغرب ما فى هذه المسرحية أننا جميعاً من المسرح وإلى المسرح وإن شئت قلت : نحن المسرح والمسرح نحن فتارة نأكله وتارة يأكلنا وطوراً يكون فى أحشائنا وطوراً نكون فى أحشائه .. من الأرض وإلى الأرض وهكذا دواليك حتى تنتهى المسرحية ويسدل الستار على فصلها الأخير) .

والمتذوق الكريم لمقال (مسرحية الحياة) يدرك أنه يعالج ما فى الحياة من أمواج وجدانية تعم أفراد المجتمع كما يجد أن الكاتب ركز الضوء على ظاهرة الظلم التى جرت فى شريان البيئة وكأنه يصرخ فى وجه هذا المارد الشرير حتى يهتز عرشه الذى أسسه على أرض مصر .

وقــد تمتعت الصياغة الأدبية للمقــال بالحيـــوية والواقعية لما فيهـــا من صور جســدت الأشكال والحركات والأصوات كمــا تميز المقال بـالتهكم الذى يبلور فلسفة الكاتب فى الحيــاة وعلى سبيل المثال مــا ذكره فـى الفقرة التالية :

(وهذه المسرحية لا تخلو من قوى يظلم ومظلوم يثور ودماء تسيل وسجون تملأ ثم لا يكاد يمضى قرن على هؤلاء جميعاً حتى يصبحوا تحت الأرض موسدين وهم متجاورون متحابون كأنهم إخوة أشقاء فى أحضــان أم رءوم أنامتهم بعد عبثهم فناموا هادئين مسترحين) .

فالصورة السابقة لوحة حية تعج بالأشكال والهيئات والحركات فعبارة (يثور) توحى بشكل الغضب مع الإيحاء بطبيعة حركته وصوته ، وعبارة (دماء تسيل) توحى بحركة سريعة مع إيحاء اللون الذى يحرك فى نفس المتلقى الشعور بالرفض وعبارة (سجون تملأ) تصور للخيال هيئة مشوبة بظلم وافتراء وقد أجاد الكــاتب حينمـا بين (أن المـوت بداية الأمـن والسـلام والحب فى تعبيره (وهم متجاورون ومتحــابون) وأمعن فى مشـاعر الـولاء والانتماء بين أفراد الخصومة فـى قولـه (كـأنهم أخـوة أشـقاء فـى أحضــان أم رءوم) وجميل من كاتبنا تعبيره عن الموت بالنوم الذى ينتشر الهدوء ويفوح بالسكينة والراحة .

والمتلقى لأفكــار المقـال يـدرك مـا يمتـاز بـه محمـد الأسـمر مـن عمـق تعبيرى تولد عن خصوبة فكرية جعلت كاتبنا يغوص فى أغوار معانية بفلسفة واعيـة فقد صـور الأرض التـى نعيـش عليهـا بالمسرح الكبير الـذى يعكـس السـلوكيات وينبـض بـالعواطف وبديـع مـن كاتبنـا صورتــه (نحــن المســرح

والمسرح نحن فتارة نأكله وتارة يأكلنا وطوراً يكون فى أحشائنا وطور نكـون فى أحشائه) .

والمراد أننا من الأرض وإليها نعيش فوقها وعند الرحيـل نستريح بين أحضانها ونلتحف بترابها باستسلام ودعة .

والمتذوق لمعانى كاتبنا يلمس حيوية الصور فتعبيره (فتارة نأكله وتارة يأكلنا) توحى بحياة البشر على الأرض وتمتعهم بمـا فيهـا مـن ثمـار ناضجـة حتى يحين الأجـل فتقـوم الأرض بدورهـا فكمـا أكلنـا منهـا ثمارهـا تـأكل هـى أجسادنا عند الموت وكما كانت خيراتها فى أحشائنا نصبح نحـن فـى أحشـائها ويصل كاتبنا بعد هـذه الصـور لإعـلان الحقيقـة الخـالدة (مـن الأرض وإلـى الأرض وهكذا تنتهى المسرحية) وبهـذا فالمقـال رؤيـة فلسـفية تأمليـة واقعيـة نسجها مفتن عميق الفكر دقيق الملاحظة يسدل ستار مقاله بعد اكتمال ملامحه الفكرية والوجدانية من خلال صور فى مجتمعه .

وينتقل موكب كتاب (مع المجتمع) لمقال كاتبنا (**أمواج البحر وأمواج البر**) الذى عالج فيه قضية الوجود والعدم قائلاً :

(نظرت من نافذة غرفتى بالفندق على شاطىء الأسـكندرية إلـى البحـر وإلى البر فعجبت للأمواج وللناس هذه أمواج بحرية وهؤلاء أمواج برية ولكل موجة من هذه الأمواج نهاية فأمواج البحر تتكسر على الشاطىء وتتلاشى فى بحرها وأمواج البر تتكسر على آجالها وتتلاشى فى ترابها .

وحينما تذهب الأمواج كأن لم تكن تحل محلها فى تعاقب، متصل أمـواج أخرى حتى لكأن الأمواج البحرية والبرية أمام النـاظر نظـرة سـطحية أمـواج باقية لا تتغير ولكنها أمام الناظر المتأمل فانية ذاهبة تلتصق بأخر طرف منهـا

وهى فى سبيلها إلى الذهاب والفناء أمواج أخرى تستأنف حياة مثل حياتها وتحمل فى ثناياها نهاية مثل نهايتها وحينما تتكسر الأمواج البحرية على شواطئها أو تتلاشى فى لجتها تعود إلى ماء البحر ماء...... وحينما تتكسر الأمواج البرية على آجالها تعود إلى الأرض تراباً وهكذا دواليك .... لاتنعدم الأمواج البحرية والبرية انعداماً كلياً تنعدم فى نظرنا أشكالها أما نهاية النهايات فعند مبدع البحر والبر حقيقة علمها وهو سبحانه وتعالى يخاطبنا فيقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً(١) .

يعرض الكاتب فكرة الحياة والموت فيستدل على استمرارها بحركة البشر وحركة أمواج البحر ويبين أن طوفان البشر المتجدد يشبه تجدد أمواج البحر ويرمى كاتبنا بالأمواج البرية اكتمال الملامح الاجتماعية والفكرية والسياسية لجيل ما وبعد تمامها تبدأ فى النقصان حتى يتلاشى هذا الجيل بماله من خصائص لينبت غيره فى هيئة أمواج برية جديدة ويربط الكاتب بحس مرهف وتصوير جيد بين هذه الأمواج البرية والأمواج البحرية فيرى أن لكل منها نهاية فالبشر فى التراب وأمواج البحر فى الشاطىء وتبدو نبرة الألم على كاتبنا فيعلن أن الفناء والزوال سمة الحياة وأن الموت حقيقة جعلها الحق نوراً يهدى الفكر البشرى إلى أن الفناء يعقبه وجود ثم فناء وهكذا ولعل كاتبنا يعلن أن داخل كل مخلوق نهايته فالبشر من تراب وإليه تعود والموج من الماء ومعه يذوب وينتهى وفى هذه النهاية بداية لحياة جديدة وفى الفناء والوجود تكمن أسرار عظمة الخالق المبدع الذى نظم بحكمته المطلقة قضية الوجود والعدم .

ويناجى المنشىء حركة طوفان المواج البشرية والأمواج البحرية :

---

(١) مع المجتمع المطبعة المنيرية بالأزهر طبعة ١٩٥٥ ص٨

(ونظرت إلى أمواج البحر وهى ثائرة صاخبة فقلت لو هدأت الرياح هدات الأمواج) .

ثم نظرت إلى الأمواج البرية فقلت : ما أشبه الأمواج بالأمواج ؟ فالأمواج البحرية تثيرها الرياح فتثور وتصخب والأمواج البرية تثيرها أطماعها وأهواؤها فتتخاصم وتتحارب .

ورأيت موجاً عالياً لا زبد له وموجاً عالياً له زبد فقلت : موج يعمل صامتاً وموج يتحدث عن نفسه وهكذا الناس .

ورأيت موجاً كبيراً يلتهم موجاً صغيراً فقلت وهكذا الناس ... ورأيت الموج يتسابق ويتزاحم ويتطاحن فقلت وهكذا الناس . وعلمت أن للبحر تيارات خفية فقلت وهكذا الناس

وهدأت الرياح فهدات أمواج البحر فقلت ومتى تهدأ أمواج البر ؟ فقال لى البحر ساخراً : حينما تهدأ الأطماع وحينما تهدأ الأهواء .

عرض المنشىء المقال الأدبى السابق فى إطار اجتماعى تأملى جيد حيث تمتع بوضوح الأسلوب وثراء الصور الذى تولد من عمق إيحاء الدلالات اللفظية فالمقال يمثل لوحة فنية ناطقة تعبر بصدق عن أحاسيس الكاتب ومشاعره وتعكس أوضاع المجتمع وسلوكياته وقد تميز المقال بالقدرة على تنمية انفعال المتلقى بصورة تصاعدية تدفعه إلى الذوبان التام فى طى الأحداث فقد بدأ محمد الأسمر لوحته بقوله (نظرت من نافذة غرفتى بالفندق على شاطىء الأسكندرية إلى البحر وإلى البر للأمواج وللناس) فصور بالعبارات السابقة هيئته وطبيعة وقفته وجعل المتذوق يستحضر منظر الشاطىء بر ماله الصفراء الذهبية وأمواجه المتلاحقة بصوتها الذى يوحى

بزفير نغماته نحيب وأنين إلى جانب طوفان من البشر متحركة تحمل بين جوانحها جروح الأيام واستمر الكاتب يصور أمواج البحر وأمواج البر فربط بين نهايتها بعبارة (تتكسر) التى توحى بنغماتها الصوتية بكيفية حدوث النهاية لأمواج البشر وأمواج البحر فالنهاية ليست مباشرة ولكنها تتدرج فى تحطيم جدار الوجود لها وقد استطاع كاتبنا بعبارة (تتكسر) إثارة مشاعر الألم وتحريك أحاسيس المرارة مع نداء لصحوة الواقع التى تدفع إلى العمل الحسن لأن النهاية حتمية مسلم بها ويرجع سرها إلى مبدع الكون " الله " جل جلاله .

وينبض قلب كاتبنا لينبض معه قلب المتلقى عبر خواطر وجدانية وخلجات تأملية ترسم صورة تجسد الحركة التى تترجم طبيعة عواطف المنشىء :

(ونظرت إلى الأمواج البرية فقلت : ما أشبه الأمواج بالأمواج ؟ فالأمواج البحرية تثيرها الرياح فتثور وتصخب والأمواج البرية تثيرها أطماعها وأهواؤها فتتحاصم وتتحارب) .

والصورة السابقة تنقل درجة الاضطرابات الاجتماعية والوجدانية التى تفشت فى كيان البيئة المصرية وقد أبدع كاتبنا حينما بين أن ثورة الأمواج ترجع إلى طبيعة الرياح أما ثورة الأمواج البرية البشرية فمرجعها إلى الأطماع والأحقاد التى تدفع إلى الخصومة واندلاع ألسنة المظالم وجميل منه جمعه بين العبارتين (فتتحاصم وتتحارب) حيث جسدت الأولى البعد والتجنب بجفوة تحتض نيران خامدة لحين اشتعال وجسدت الثانية حركة عنيفة مستمرة ينجم عنها فناء وتطاحن يعج بالعويل والصراخ وبهذا فالأولى ترجمة لصمت يعكس مشاعر البغض والثانية ترجمة لحركة تعكس الاشتباك المدمر الذى يقضى على كل حياة كما يقضى على الملامح الإنسانية .

وتتجلى فلسفة كاتبنا ورؤيته لمظاهر عصره الاجتماعية :

(رأيت موجاً عالياً لا زبد له وموجاً عالياً لـه زبـد فقلت مـوج يعمـل صامتاً وموج يتحدث عن نفسه وهكذا الناس) .

والمتذوق للصـورة يـدرك عمق رؤيـة محمد الأسمر لأفراد مجتمعه وصفاتهم النفسية والسلوكية ولعل كاتبنا يتهكم مـن بعض شـخصيات مجتمعه التى تحاول بصوتها المرتفع الأجوف جذب الأنظار إليها مـع أنهـا تحمـل بيـن جوانحهـا النفـوس الوضيعـة والقلـوب الفاسـدة والضمـائر الخسيسـة ويشـير المنشىء إلى وجود بعـض الشـخصيات الفاضلـة التـى تعمـل مـن أجـل مصـر بصبر وعزم وعطاء شريف ولا تعلن عن نفسها وقد اجاء فـى تصويـره عـن الشخصيتين بالشكل اولاً (موجاً عالياً لا زبد له) ، (وموجاً عالياً له زبد) .

وبالصوت ثانياً فى (يعمـل صامتـاً) ، و (مـوج يتحـدث عـن نفسـه) ويدرك القارىء الكريم أن كاتبنا يثنى على من يعمل بصمت وكبرياء وشـرف من منطلق شعوره بالواجب المقدس تجاه مصر الغالية .

ويتـأمل المنشـىء طبيعـة العلاقـات الاجتماعيـة ومـا انتابهـا مـن تمـزق وتفكك وانهيار وضياع واخفاق :

(ورأيت موجـاً كبيراً يلتهم موجاً صـغيراً فقلت وهـكذا النـاس) ، و (رأيت الموج يتسابق ويتزاحم ويتطاحن فقلت وهكذا الناس) فالصور السابقة تعطى انطباعاً دقيقاً لما سادالمجتمع المصـرى مـن تدهـور إنسـانى تجلـى فـى سلوكيات أصحاب السلطة الذين انتهكوا حرمة الفقراء والشرفاء وقد وفق فـى تعبيره عن هذا السلوك الوحشـى بعبـارة (يلتهـم) التـى كشـفت عـن عنفـوان سيطرة أصحاب السلطة على الفقراء والتمكن مـن رقـابهم واقتـلاع جذورهـم

كما توحى بشدة الشراهة فى القضاء عليهم كما أجاد المنشىء فى جمعه بين يتسابق ويتزاحم ويتطاحن حيث كشفت هذه الصور عن الحركة والشكل وطبيعة الانفعالات فيتسابق أوحت بطبيعة الحركة ويتزاحم كشفت عن الحركة مع التكاثف البشرى أما يتطاحن فجمعت بين الحركة والتكاثف إلى جانب الإفصاح عن طبيعة العواطف ودرجة اضطرابها كما كشفت عن فساد العلاقة بين أبناء المجتمع وفى هذا تحذير من كاتبنا من ضياع الملامح المصرية الأصلية التى تعقد على الود والإيثار والوفاء والعطاء وقد ختم الكاتب مقاله الاجتماعى برجاء يشدو بمجتمع مثالى وأمل يصبو إلى صفاء القلب وطهر الوجدان فالمتأمل للعبارة (وعلمت أن للبحر تيارات خفية فقلت وهكذا الناس) يشعر بما يعانى منه الكاتب من مرارة الاضطرابات التى تغرسها فنن الدخيل بإسلوب غامض وفى هذا نداء بالتحذير من غدر الأجنبى والدخيل .

الذى يشيع القلق بين أبناء البيئة المصرية بصفة مستمرة ويبكى الكاتب بصمت واستسلام فيعلن أن مولد الأمان والاستقرار يشرق حينما تهدأ الأطماع وتهدأ الأهواء وقد أجاد المنشىء فى تعبيره (تهدأ) ومنبع إجادته موافقة المعنى للواقع الاجتماعى والوجدانى وفى ختام المقال دعوة لبناء اجتماعى رشيد .

والمتذوق للمقال يدرك ما يتمتع به من حيوية نبعت من تناسق العبارات ووضوح الصور وصدق الانفعال وجلاء الرؤية التأملية الفلسفية .

ويطالعنا بعد ذلك مقال بعنوان (معركة الذهب)(١) تحدث فيه محمد الأسمر عن أثر هذا المعدن البراق على العلاقات الاجتماعية فقال :

---

(١) مع المجتمع المطبعة المنيرية بالأزهر ١٩٥٥م ص١٠ ، ١١

(وقف القدر على أكمة الوجود ثم نادى ...

إلى أيها الناس .... إلى أيها الناس

استيقظ العالم على هذا النداء وأخذ يتطلع نحو الصوت فإذا القدر هنالك واقف على أكمة الوجود يلوّح له بالذهب . نظر العالم إلى هذا المعدن البراق وهو مأخوذ بلمعانه ثم تجهمت الأسارير وتقلصت الشفاه ، واندفع الناس اندفاع الوحوش إلى أين إلى الذهب .

ابتدأت معركة الحياة وأخذت رحاها تدور بشدة وهؤلاء هم الناس يتحاربون ولكل واحد من المتحاربين سلاحه يشق به طريقه إلى الذهب للكاتب قلمه ... وللتاجر ملاطفته ومداهنته وللجندى سيفه وللفلاح محراثه وللبائسين دموعهم ، وللصوص حيلهم وإقدامهم ولقوم ضمائرهم يبيعونها ولآخرين أكاذيب يفترونها أو لحى يرسلونها المعركة حامية والمتحاربون كثيرون والأسلحة متباينة فعلام كل هذا ؟ وفيم يتحاربون ؟ إنه الذهب ... يا للهول ... ما هذا ؟ ابن يقتل اباه ... أخ يفتك بأخيه ... أحباب أصدقاء ينقلبون خصوماً ألداء ، أسرة تتفك أركانها ، عروش ينهار بنيانها قلوب طيبة تستحيل قلوباً خبيثة شفقة تنقلب قسوة عدل يصبح ظلماً ... لم كل هذا ؟ ... أنه الذهب) .

ناقش المنشىء فى العبارات السابقة قضية مادية عمادها معدن الذهب الذى يروق النفوس ويجذب الأنظار ويتحكم فى طبيعة العلاقات الإنسانية وقد اتسمت دائرة مناقشته بملامح الحزن الساخر والتأمل الباكى مع رصد دقيق لدرجة رغبة النفس فى تحصيله وبيان الرضا الذى يسود من يمتلك قشوره ويبين محمد الأسمر أن قضية امتلاك نسبة منه أصبحت غاية من غايات

الكيان البشرى يسعى إليها الكاتب والتاجر والجندى والفلاح حتى البائس الذي يعجز عن تحصيل ذرة منه يستبدل رغبته بدموع غزيرة تخفف من آلام إخفاقه وحسرة حرمانه ويطرح الكاتب اندثار ثمار المحبة وتمزق خيوط الود بسبب هذا المعدن البراق بين أفراد الأسرة وبين الأحباء والأصدقاء ويمعن الكاتب فى كشف الآثار الوخيمة لرغبة امتلاك هذا المعدن فيبين تبدل العواطف والسلوكيات بصورة تهدد كيان المجتمع وتدمر روابطه النبيلة ويتعجب الكاتب من هذا الضباب المتكاثف الأسود فيصرخ صرخة الرفض لم كل هذا ؟ ... وقد ترجم الكاتب حزنه بهذه الصرخة التى كشفت عن عنفوان الاضطراب الاجتماعى وانقلاب معيار الاتزان النفسى لدى الشعب المصرى فى عصره والمجتمع العالمى ويصمت محمد الأسمر برهة ليتحدث بصوت هامس نبراته أنين المحزون :

(وقف القدر ساخراً من هذه المعركة التى أثارها ... ساخراً من المتحاربين والناس غن سخريته لاهون فهم مشغلون عن سخريته بما فى يده وما الذى فى يده ؟ إنه الذهب ..

من هؤلاء القوم الواقفون بعيدين عن المعركة ؟ واهالهم إنهم الفلاسفة لقد شغلهم التفكير فى حامل الذهب عن الذهب ما هذا الذى أراه فى المعركة . وما أعجب وما أغرب ، ضعيف يصرع قوياً .. مقعد يسبق عداء ... جاهل يتخطى عالماً .... أليس ذلك عجيباً ؟ ... أليس ذلك غريباً ؟ وهل خلت منه يوماً معركة الذهب ؟

بين المنشىء أن الظروف المادية أثارت ضجة متلاطمة كان من ثمارها البغض والحقد والحسد والتطاحن الوضيع بين أبناء المجتمع العالمى ثم تركتهم هذه الظروف فى صراعهم الدامى يلتهم بعضهم البعض بغدر

وخسة ولكن وسط هذه الأمواج الصاخبة أشرق شعاع من النور يمثله فئة قليلة من البشر تتميز ببعد النظر وتتصف بالاتزان النفسى ألا وهم الفلاسفة وأصحاب الفكر المستنير ويمضى كاتبنا فى استرسال الدموع والتفجع على ما أصاب المجتمع الإنسانى من تمزق وانهيار كان رائده الحظ الذى لا يعى قدر الشرفاء والمتذوق للمقال السابق يدرك ما تمتتع به من بعد فلسفى وتأمل عميق ووصف دقيق للنفس الإنسانية وسلوكها المضطرب والمقال صورة حية للواقع الاجتماعى العالمى جسدها الأسمر بحس مرهف وبصياغة أدبية ناطقة الدلالة حيث استطاع جذب المتلقى من النغمة الأولى التى افتتح بها المقال (وقف القدر على أكمة الوجود ثم نادى ...) وكاتبنا يرمى بالقدر لحظة اكتشاف هذا المعدن البراق الخطير الذى قلب ميزان المعيار المادى وصدع الجدار الاقتصادى ويصف كاتبنا ما أصاب العالم عقب اكتشافه بعبارة (استيقظ العالم على هذا النداء) واليقظة توحى بما حل بالمجتمع العالمى من حركة مستمرة مصحوبة بالجلبة والصخب كما توحى بأن المجتمع العالمى كان فى وداعة وسكينة وسلام وجدانى واجتماعى قبل اكتشاف الذهب .

وقد أجاد محمد الأسمر فى تصويره بداية استقبال الناس لاكتشاف المعدن وأثره على طبيعتهم وسلوكهم :

(نظر العالم إلى هذا المعدن البراق وهو مأخوذ بلمعانه ثم تجهمت الأسارير وتقلصت الشفاه واندفع الناس اندفاع الوحوش) .

فقد دهش الناس دهشة كادت تذهب عقولهم إلا أنهم تمسكوا بحبال الثبات لإدراك ما حدث فنتج عن تماسكهم المفتعل تجهم الأسارير وتقلص الشفاه والصورة جسدت الحركة والهيئة بمهارة فنية تعجز ريشة الرسام عن ابرازهما كما استطاع المنظر ترجمة الحالة النفسية والعصبية والتى نجم عنها

اندفاعهم اندفاع الوحوش وتصوير كاتبنا (اندفاع الوحوش) صور كيفية حركة البشر وطبيعة صراعهم الدامية .

ويستمر كاتبنا فى عرضه البارع الناطق بالحركة والشكل والصوت عن الأحداث الاجتماعية التى أصابت المجتمع العالمى وقد عبر عن طبيعة الأحداث بقوله (ابتدأت معركة الحياة) ولفظة معركة أوحت بأن لكل فئة سلاحها الذى ينافى القيم الشريفة وقد اعجبنى تصوير الكاتب للمحروم الذى يتخذ الدموع سلاحاً تحميه من الانفجار الوجدانى وكأنها وسيلة التخفيف عن وجدانه المكروب وقد أمعن الكاتب فى تجسيد الاضطرابات فى عباراته (المعركة حامية والمتحاربون كثيرون والأسلحة متباينة) ولفظة متباينة توحى للمتلقى اختلاف أساليب تحصيل الثراء عن طريق جلب الذهب منها النفاق والرياء وبث الفتن والكذب والغش وقد يصل الأسلوب إلى السطو والسرقة !

كما ضاعف الكاتب من إبراز مظاهر الفساد فى تصويره لطبيعة العلاقات (ابن يقتل أباه أخ يفتك بأخيه أحباب أصدقاء ينقلبون خصوماً ألداء أسرة تتفكك أركانها عروش ينهار بنيانها قلوب طيبة تستحيل قلوباً خبيثة - شفقة تنقلب قسوة) والصورة تجعل المتذوق يستحضر هيئة الضباب الكثيف الذى يحجب مشاعر الألفة كما يستحضر الصراع الذى يقتلع الأرواح داخل الإطار الأسرى وبديع من المنشىء تصويره لموقف الفلاسفة الذين يهتمون بالسمو الوجدانى والرقى الفكرى مما جعلهم يتجنبون أرض المعركة وقد وفق فى تعبيره (لقد شغلهم التفكير فى حامل الذهب عن الذهب) .

والمنشىء فى هذا يسخر سخرية مرة ويتهكم تهكماً لاذعاً بسلوك من جذبه بريق الذهب حيث بين أن الفلاسفة نظروا له نظرة الإزدراء لما حل به من خلل وجدانى وقبح اجتماعى .

ويختم كاتبنا الماهر مقاله الجيد بتصوير درجة الاضطراب التى جعلت الجاهل يتميز عن العالم والضعيف يفوز على القوى (ما هذا الذى أراه فى المعركة ؟ ما أعجب وما أغرب ضعيف يصرع قوياً . مقعد يسبق عداء .. جاهل يتخطى عالماً (وفى نهاية المطاف يحاول الأسمر التخفيف عن نفسه وعن أمثاله من المفكرين الشرفاء فيبين أن مرجع هذا الاهتزاز الحظ صيحة الأيام الظالمة .

إن المقال همسة صادقة تناشد المجتمع العالمى الإنسانى بالعودة إلى رحاب الفكر وروضة المثاليات والاعتدال فى طلب الماديات ، والمقال يتصف بالحيوية والصدق وقد ضاعف من صدقة واقعيته لما يعانى منه المجتمع الآن.

ويسير موكب كتاب (مع المجتمع) ليصل إلى مقال بعنوان (حقيقة الإنسان)[1] والمقال يناقش علاقة الإنسان بالطير والحيوان فى إطار فلسفى جاد :

(أرى أن الإنسان لا يزال وحشاً ثم هو وحش بأوسع معانى هذه الكلمة كل يوم طائر مرمى بسهم وذبيحة تتخبط فى دمها وحوت يضطرب فى شباكه .

ما أظن وجهاً أبغض إلى حيوان المدينة والقرية من وجه الإنسان وما أظن وجهاً أبغض إلى حيوان الغابة من وجه الإنسان وما أظن وجهاً أبغض إلى حيوان الماء من وجه الإنسان بل إن الإنسان نفسه ما أظن وجهاً أبغض إليه من وجه أخيه الإنسان ...

---

(١) مع المجتمع – محمد الأسمر – المطبعة المنيرية بالأزهر طبعة ١٩٥٥م ص١٢ ، ١٣ .

أفعالنا كلها مدعاة للدهشة والاستغراب أرأيت لو فتك ذئب أمامنا بشاه فمزقها بأنيابه وأظفاره ثم أخذ يلتهم ما يلتهمه منها أرأيت لو حصل ذلك أمامنا كيف تثور ثائرتنا ويشتد حنقنا لهذا المنظر المؤلم فنرمى الذئب بالخيانة والافتراس والغدر ولكننا رغم ثورتنا هذه ورغم حنقنا نذبح بخناجرنا كل يوم المئات من أمثال هذه الشاه فاعلين بها أكثر مما فعله الذئب ثم نحن بعد ذلك الأناسى الرحماء الأحماء الأوفياء ...

أنا لا أدرى كيف نمقت الوحوش الضارية من أجل أخلاق هما أخلاقنا ، وطباع هى طباعنا ؟

ما أظن جماعة الوحوش إلا قائلة عنا مثل ما نقوله عنها فنحن نلعنها وهى أيضاً كذلك تلعننا ونحن نعتقد فيها الغدر والخيانة لما نراه منها وهى كذلك بدورها تعتقد فينا لاشك فى أننا وحوش كتلك الوحوش (حذوك النعل بالنعل) . أنا لا أذهب مذهب بعض الناس فأحرم ما تواطأت على تحليله الأديان كلها ولكننى أريد أن ألفت النظر إلى أن ما نفعله نحن بالشاة هو بعينه ما يفعله بها الذئب فنغضب ونثور .

لو راقبت يوماً رجلاً وهو يأكل دجاجة يتناولها شلوا شلوا ويكسر عظامها مغمضاً عيناً فاتحاً أخرى فهل تشك فى أنك أمام وحش كاسر ؟

راقب ذلك يوماً ما فى بعض إخوانك على المائدة وإذا شئت فراقبه فى نفسك أمام المرآة . فإنك لا تلبث أن تضحك ولا تلبث أن تتجلى لك حقيقة الإنسان .

يكشف المقال السابق عن رؤية كاتبنا لطبيعة الإنسان فقد وصفه بالوحش المفترس الذى يعكس سلوكه طباع الغدر والخيانة والخسة ويحاول المنشىء إقناع المتلقى بأن طبيعة الإنسان ضارية متوحشة ويستدل على صحة رؤيته بالصورة الآتية :

(لو راقبت يوما رجلاً وهو يأكل دجاجة يتناولها شلوا شلوا ويكسر عظمها مغمضاً عيناً فاتحاً أخرى فهل تشك فى أنك أمام وحش كاسر ؟

ولعل كاتبنا فى مقاله يرمى إلى ما انتاب العلاقات البشرية من تمزق واضطراب دفع إلى انتشار مشاعر الغربة وأحاسيس الوحشة .

والمقال واضح الأفكار سلس العبارات فقد استطاع المنشىء تجسيد الأشكال والهيئات بيسر وسهولة .

والقارىء الكريم لمقال (حقيقة الإنسان) يدرك تهكم الكاتب وسخريته من أوضاع اجتماعية دفعته دفعاً إلى كتابة هذا المقال الذى تنم صوره عن الرفض المطلق لسلوكيات الإنسان وعلى سبيل المثال ما ذكره الكاتب فى أول المقال (أرى أن الإنسان لا يزال وحشاً) والمقال يتسم بحيوية صوره التى نبعت من صدق انفعال المنشىء وعمق إيمانه بفكرته .

ولعل المتذوق الكريم يسأل عن علاقة هذا المقال بعنوان الكتاب (مع المجتمع) ؟

من الواضح أن الأسمر لم يقصد من المقال ظاهره إنما أراد ما يحتويه من أبعاد سلوكية ووجدانية لا تغيب عن فطنة المتلقى الذى يدرك أن الكاتب سلك سبيل الإيحاء والرمز حتى يتمكن من التعبير عن خواطره وخلجاته بدون قيود .

ويطالعنا كتاب (مع المجتمع) بعد ذلك بمقال عنوانه (**القرنفليون**) يعالج فيه محمد الأسمر معنى الطهر النفسى والصفاء الوجدانى والخلق الرفيع وما انتاب هذه المثاليات الشريفة من تغير وتبديل أضر بمالها من منزلة سامية وقد ناقش الفكرة من خلال عرضه لقصة بعض التجار :

(زعموا أن بعض التجار فيما مضى كانوا يحملون اكياساً فيها دنانير وعلى كل كيس منها اسم التاجر(١) ووزن الكيس ثم يذهبون على سفنهم إلى إحدى جزر الهند فإذا صاروا بالقرب من جزيرة هناك ألقوا مراسى السفن وثبتوها بالبر ثم ركبوا قوارب ومعهم تلك الأكياس المملوؤة بالدنانير وأكياس أخرى فارغة على كل كيس اسم صاحبه فيخرجون إلى موضع من تلك الجزيرة فيضع كل واحد منهم كيسه الفارغ وفوقه كيسه المملوء بالدنانير ثم يرجعون بعد ذلك إلى سفنهم يبيتون فيها ليلة وبعد ذلك يعودون بالقوارب للمكان الذى تركوا فيه الأكياس فيجدون الأكياس الفارغة مملوءة بالقرنفل على مقدار الدنانير الموجودة فوق كل كيس ، ومع كل كيس دنانيره فإن رضى التاجر بما وجدوا من القرنفل أخذوه ومن لم يرض منهم تركه وعاد إلى سفينته ثم عاد فى اليوم الثانى فيجد كيس دنانيره بحالة ولا يجد القرنفل ولا تقع عين أحد من التجار على أحد ممن هم فى تلك الجزيرة ولا يقفون على موضع القرنفل ولا على شجرة وظلت الحال كذلك إلى أن ظهر من التجار غدر وخيانة فى بعض السنين فحملوا القرنفل والدنانير معاً ! فرأى أصحاب القرنفل أن يأخذوا بالحيطة فى أمورهم فجنحوا إلى العمل بالطريقة الآتية وهى أن يترك التجار دنانيرهم أولاً فيترك لهم (القرنفليون) قرنفلهم بعد ذلك فمن شاء أخذ القرنفل ومن لم يشأ تركه ثم عاد فىاليوم الثانىفيجد دنانيره وقد أعادها إليه القرنفليون ... هذا ما كان من القرنفليون فى ما مضى.

وفى هذه الأيام تسأل شخصاً عن شخص فيقول لك وهو يبتسم أنه (رجل طيب) وقد يكون هذا الرجل الطيب عزيز النفس كريماً قانعاً ، صادق الكلمة ، محباً للخير ، كارهاً للشر متواضعاً رحيماً بالناس فهو حقيقة رجل

---

(١) مع المجتمع ص١٤ ، ١٥

طيب ولكن الذى تسأله عنه لا يعنى بقوله (رجل طيب) إلا أنه (رجل عبيط) !! وكأنما أصبح اللؤم والمكر والأنانية وحب الشر والغطرسة والكذب والقسوة والثعلبة والثعبنة من الصفات التى تنفى عن الرجل (العبط) أعنى الغفلة والبله .

فإذا كان ذلك كذلك فى هذه الأيام ، فقد أصبح واجباً على الرجال الطيبين فى هذا العصر الذى نعيش فيه أن يتذكروا قصة (القرنفليين) فى العصر الماضى مع التجار فلا يقدموا قرنفلهم حتى يقبضوا الدنانير فهكذا فعل أخيراً (القرنفليون) وكانوا رجالاً طيبين .

يشعر المتذوق للمقال المعاناة النفسية التى فجرت أفكار المنشىء ومعاينة وأثارت حفيظته وأشعلت نيران رفضه من خلال عباراته الساخرة التهكمية التى كشفت وجدانيات المجتمع وجسدت سلوكياته كما يشعر المتلقى من نبرة كل حرف بأنين محمد الأسمر الذى بثه فى لوحته التى تترجم تبدل اخلاقيات المجتمع المصرى الذى كان مجتمع الدفء والعطاء والوفاء والانتماء مجتمع الإيثار حتى حل على أرضه الدخيل الذى استطاع بخسته تزين الباطل فاقتلع من النفوس طهرها ومن القلوب أمنها ومن الألباب اتزانها وبهذا فالمقال نداء ليقظة فكرية ووجدانية تحمى من فتن الدخيل الذى يحاول طمس سمات الشعب المصرى الأصيل فالقصة التى قصها كاتبنا رمزية تهدف إلى التحذير الاجتماعى بقصد الحفاظ على أصالة الشعب المصرى الذى يجب عليه أخذ الحرص من الأجنبى .

والمقال لمحة عتاب لنظرة بعض الناس للإنسان الخلوق وقد تولدت هذه النظرة من وحى الأجنبى الذى يحاول تفتيت كيان المجتمع المصرى ويتجلى هذا من نسيج العبارات الآتية :

(وفى هذه الأيام تسأل عن شخص فيقول لك وهو يبتسم أنه (رجل طيب) وقد يكون هذا الرجل الطيب عزيز النفس كريماً قانعاً صادق الكلمة محباً للخير كارهاً للشر متواضعاً رحيماً فهو حقيقة (رجل طيب) إلا أنه (رجل عبيط) وكأنما أصبح اللؤم والمكر والأنانية وحب الشر والغطرسة والكذب والقسوة والثعلبة والثعبنة من الصفات التى تنفى عن الرجل (العبط) وكاتبنا يرمى إلى التحذير من تسرب مفاهيم غريبة شاذة فى مجتمعنا الذى بدأ يخلط الأمور .

ويختم الكاتب مقاله بعرض المنهج السلوكى الذى يلتزم به الإنسان حتى لا يتسم بالغفلة :

(فإذا كان ذلك فى هذه الأيام فقد أصبح واجباً على الرجال الطيبين فى هذا العصر الذى نعيش فيه ان يتذكروا قصة (القرنفليين) فى العصر الماضى مع التجار فلا يقدموا قرنفلهم حتى يقبضوا الدنانير فهكذا فعل أخيراً (القرنفليون) وكانوا رجالاً طيبين) .

يريد كاتبنا ضرورة استقبال الخير والاطمئنان لحدوثه أولاً ثم الرد عليه بسلوك يناسبه ويتسم صاحب هذا السلوك بأنه (رجل طيب) حذر حريص .

ولعل كاتبنا يرمى (بالتجار) الأجانب الذين يحاولون بث الفتن واقتلاع الطبيعة العاطفية للشعب المصرى وغرس السلوك المادى .

والمقال يكشف النقاب عن الصفات النفسية الدقيقة بإسلوب قريب سلس فى إطار جيد من الرمزية الساخرة .

وبعد ثورة كاتبنا التى عبر بها عن رفضه لمفاهيم شاذة انتشرت فى ربوع مصرنا الحبيبة يطالعنا بمقال عنوانه (بائع الجنبرى) يبين فيه وجود الأصالة المصرية رغم التيارات المادية الطاغية :

(وقفت فى الساعة الثانية عشرة فى صيف عام من الأعوام(١) فى شرفة الغرفة التى كنت استأجرها بأحد فنادق رأس البر لتمضية بعض أيام الصيف وكنت أنظر إلى الرمل وقد جعلته أشعة الشمس أدنى إلى الجمر منه إلى رمل المصطاف وحمل إلىّ الهواء الصوت الآتى

(الجنبرى الطاظة ..... الجنبرى الطاظة) ثم لاح بائع الجنبرى يحمل (قفته) على ظهره ويتابع خطواته على الرمل الملتهب ، تحت أشعة الشمس المحرقة فرفعت له يدى وناديت (يا بتاع الجنبرى .... تعالى ياعم) وجاء الرجل ورأيت ما معه فقلت له : بكم هذا ؟ فقال بقرش صاغ . فأخرجت له قطعة من ذوات القرشين وقلت له تفضل فأخذها ثم مديدة إلى بالقرش الباقى فقلت له " لا ياعم هو لك أيضاً " فاكفهر وجه الرجل وقال : لماذا ؟ قلت له سمحت به نفسى لك زيادة على حقك ، فقال وبأى وجه أستحله ؟ أنا بياع ولست بشحات ! وعبثنا حاولت أن أقنع هذا الحافى المتجول على اللهب وتحت اللهب أن يأخذ قرشاً صاغاً معاونة بسيطة منى له فى حياته الشاقة .

لو كنت مثَّالاً لصنعت لهذا الرجل الفقير العظيم تمثالاً من الذهب الخالص رمزاً للشرف والإباء والترفع .

كم فى الفقراء من أغنياء ... وكم فى الأغنياء من فقراء ؟!

يتغنى المقال السابق بنغمة رقيقة فى لحن القيم الشريفة التى يتحلى بها أبناء الشعب المصرى ألا وهى الترفع العزيز الذى يعد سمة طبيعية لهم والمقال مع بساطة فكرته إلا أنه مواساة حانية يواسى بها الكاتب نفسه عما حل بالمجتمع من اضطرابات سلوكية ووجدانية منبعها الماديات التى تحكمت

---

(١) مع المجتمع ص ١٦

حتى فى العواطف الإنسانية وقد استطاع المنشىء بحسن عرضه للوحته إثارة مشاعر الإعجاب والتقدير بشخصية البائع وخاصة حينما صور وقت تجوله بكلمات موحية بالشدة والصعوبة مثل :

(على الرمل الملتهب - تحت الشمس المحرقة - الحافى المتجول على اللهب وتحت اللهب) .

والمقال يمتاز بالحركة والحيوية وتعدد المناظر مع تحقق الصدق العاطفى الذى بلور الشعور الوطنى النبيل الذى يعشق كل جمال مصرى .

وجميل من كاتبنا ما صرح به فى نهاية المقال :

(كم فى الفقراء من أغنياء وكم فى الأغنياء من فقراء ؟)

والعبارة توحى بأن الفن الحقيقى يمكن فى النفس الشريفة الطاهرة التى تتسم بالإباء والكبرياء .

ولقد اتخذ الكاتب من البائع نموذجاً حياً لأخلاقيات أبناء الشعب المصرى .

والمقال جيد العرض واضح العبارات نبيل الهدف .

ويسير ركب (مع المجتمع) لنصل إلى مقال (المتعلقون والمتملقون) الذى يناقش بجدية وشجاعة ما يكون عليه أقارب الحكام وأصحابهم من سلوكيات وضيعة ونفوس خسيسة :

(من علل الشرق مرضان)(١)

---

(١) مع المجتمع ص١٧ ، ١٨

أما المرض الأول فهو هؤلاء (المتعلقون) وأعنى بهم أقارب الحاكمين وأصهارهم ثم أقارب الأقارب وأقارب أقارب الأقارب وأقارب الأصهار وأقارب أصهار الأصهار ..... هؤلاء المتعلقون بالحاكمين أشبه الأشياء بالأطفال الذين يتعلقون بالترام يتساوون فى الوصول إلى الغاية بالراكبين الذين دبروا لركوبهم ثمن تذاكرهم وهم فوق ذلك - أعنى هؤلاء الأطفال المتعلقين - يضايقون الراكبين ويتمتعون بحرية كاملة فى الانتقال من ترام إلى ترام فيصلون غالباً إلى غايتهم قبل أن يصل الراكب الذى دفع ثمن التذكرة ولو أن هؤلاء المتعلقين وجدوا من يزجرهم عن التعلق ويفهمهم أن ركوب الترام له طريقة واحدة هى تدبير ثمن (تذكرة) الركوب وأن طريقة التعلق هى فى الحقيقة لصوصية واغتصاب . أقول لو أن هؤلاء المتعلقين وجدوا من يفهمهم ذلك ويضرب على أيديهم لما انقلبت الأوضاع وضايقت هذه الطفيليات الراكبين ووصلت إلى غاياتها قبلهم .

أما المرض الثانى فهو هؤلاء (المتملقون) أصحاب الوجوه المتعددة والألسنة المأجورة والقلوب الخربة والنفوس الوضيعة ينحنون لكل من يقابلون ويسقطون حيث يلتقطون يغشون منازل الكرماء واللؤماء ويجمعون بين الماء والنار لعوقيون يلعقون ما يجدون ويدورون مع الريح حيث تدور متلونون بكل ما كان وما سيكون فائزون رابحون أما الرجال الأكفاء وأما أصحاب النفوس السليمة والأخلاق القويمة فقد ضاعوا بين المتعلقين والمتملقين .

قيل قديماً (العدل اساس الملك) ونحن نقول (العدل أساس الحكم) بل الله سبحانه وتعالى هو الذى يقول ذلك فقد جاء فى القرآن الكريم (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

يدرك المتلقى للمقال السابق ما يتميز به الكاتب من شجاعة وصراحة فى عرض أفكاره التى نبعت من وحى البيئة وموضوع كاتبنا يناقش بسخرية ما يتمتع به أقارب وأصدقاء ومعارف السلطة فى البلاد وقد قسمهم الكاتب بذكاء إلى قسمين :

أولهما : الأقارب وأقارب الأصهار وهم أكثر الناس متعة فهم يرتشفون رحيق الترف ويتنسمون عبير النعيم ويحققون لأنفسهم السعادة الأسطورية التى تبدد أحلام الأكفاء الشرفاء كما بين المنشىء أن هذا القسم صاحب الأمال المشرقة والحظ المبتسم حيث تقبل عليه الدنيا بعطاء سحرى لأنه فى نظرها من أصحاب الحقوق وأرباب العز وقد وفق الكاتب حينما أطلق لفظ (المتعلق) على قريب وصهر الحكام واللفظة توحى بسخرية لاذعة حيث تشير إلى ما يتصف به هذا القريب او الصهر بالحمق والغباء والجهل والنقص وقد أمعن الكاتب فى إبراز هذه الصفات حين صور المتعلقين بالحكام من الأقارب والأصهار بالأطفال الذين يحاولون امتلاك ما يسعدهم بأى وسيلة وقد ضاعف الكاتب فى تحقيرهم حينما صورهم بمن يتعلقون بالترام ليكشف للمتذوق درجة استهتارهم وما يتصفون به من همجية وأنانية وقد وفق محمد الأسمر حينما صور ظروف الحياة بالترام فقال :

(هؤلاء المتعلقون بالحاكمين أشبه الأشياء بالأطفال الذين يتعلقون بالترام يتساوون فى الوصول إلى الغاية بالراكبين ....) وقد نبع الجمال التعبيرى مما يثيره الترام فى خيال المتذوق فهو يسير بالجميع من يلتزم من الأكفاء فيسلك السبيل الصحيح كما يسير بالمتعلق المتسلق وعند الوصول يجد الملتزم السراب حليفه أما المتعلق فيدرك قبل الوصول أن غايته محققه وجميل تعبير الكاتب عن المتعلقين (ويتمتعون بحرية كاملة فى الانتقال من ترام إلى

ترام) والعبارة من ترام إلى ترام تبين تسلق هؤلاء من حاكم إلى صاحب سلطة كما أن التعبيربحرية كاملة يوحى بتمكن هؤلاء من تحقيق آمالهم والمتذوق الكريم عندما يتذوق قول المنشيء (فيصلون غالباً إلى غاياتهم قبل أن يصل الراكب الذى دفع التذكرة) يشعر بأنين مر يشق صدره ليطلق صرخة عالية تعلن رفض هذا الوضع الظالم وجميل تعبير الأسمر عن الأكفاء بقوله (الذى دفع التذكرة) وهو يرمى به من اجتهد وكافح والتزم وسلك فى الحياة مسلك الشرف والعمل وتزين بالإباء والترفع ويبكى المنشيء هذا الحال وينعى هذه الظروف التي جعلت المتسلق المتعلق يسبق الشريف والمتخيل للصورة يدرك مهارة المنشيء فى تقريب المراد فالمتعلق عندما يصل الترام يكون أول من يصل وقد وفق الكاتب عندما صور وصوله بالاغتصاب ولصوصية الغايات ويرى المنشيء ضرورة الحزم مع هؤلاء حتى لا ينتشرالظلم ويتفشى الحقد بين أبناء المجتمع وقد صور كاتبنا هذه الطبقة المغتصبة بالطفيليات التى تثير الضيق والحزن وتقتل الطموح الشريف لدى الأكفاء .

ثانيهما : المتملقون أصحاب الوجوه المتعددة والألسنة المأجورة وهى طبقة وضيعة خسيسة النفس وبين محمد الأسمر أن هؤلاء لهم خطرهم على الشرفاء وعلى كيان المجتمع وقد صورهم بريشته تصويراً جيداً حيث كشف طبيعة سلوكياتهم فى تعبيره (ينحنون لكل من يقابلون) كما كشف طبيعة حديثهم ولين أصواتهم فى تعبيره (الألسنة المأجورة) وأبدع فى صورته (ويسقطون حيث يلتقطون) فالسقوط يرمى إلى إذلال النفس والتخلى عن الأخلاقيات كما أن السقوط بين هبوط الإنسان من مكان مرتفع إلى الهاوية المدمرة وكيف لا وقد أعز الله الإنسان ورفعه بالفضيلة النابعة من الإسلام

فمن طرحها سقط فى دنيا الذل والهوان وقد ربط المنشىء بين سقوطهم وبين التعبير (يلتقطون) ليوحى بانهم فقدوا آدميتهم بسعر رخيص .

كما وفق حينما عبر عن نفاقهم العجيب بتعبيره (ويجمعون بين الماء والنار) مما يوحى بسرعة تلونهم ويبكى محمد الأسمر بدموع متحجرة وقلب مكروب لما يحصل عليه هؤلاء من فوز عظيم وربح جليل يجعل الأكفاء فى حسرة وألم يبكون شرفهم وينعون عزتهم ويوسدون مجهودهم .

ويختم الكاتب هذا المقال الجرىء بصيحة إسلامية تذكر الحكام وأصحاب السلطة بشرع الله جل علاه فما هذه المناصب إلا تكليف من الله لرعاية حق العباد وليست مصدراً لترفهم وإسعاد أقاربهم وأصهارهم وأصحابهم .

ويرتفع صوت الحق قائلاً (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) إنه صوت النور الذى يبدد ظلمات الظلم ويعلن أن قانون الله العدل والإنصاف بين المحكومين والمقال مشرق الديباجة يتسم بسلاسة العرض وجمال التصوير وصدق العاطفة النابع من إيمانه بأفكاره الاجتماعية والمقال اجتماعى وصفى سياسى فريد صور بجلاء أحوال المملكة المصرية قبل ثورة يوليو .

وبعد هذا المقال الجاد الرائع حاول كاتبنا التخفيف عن المتذوق فسطر مقالة بعنوان (نفاق ونفاقيق) ويروى المقال ما جرى فى مجلس من المجالس الأدبية من طرائف قصصية تتناول أغرب المواقف التى تبرز أثر النفاق ومهارة أهله (جرى ذكر النفاق فى مجلس من المجالس الأدبية)(١)

(١) مع المجتمع ص١٩

وقص كل من الحاضرين أغرب قصة من النفاق الذى شاهده فى حياته وكان بالمجلس أديب كبير تقدمت به السن كان يصغى وهو صامت فقيل له ألا تذكر لنا قصة من قصص النفاق الذى مر عليك فقال مر على الشيء الكثير من النفاق منه النفاق الدينى ، والنفاق السياسى ، والنفاق الصحفى ، والنفاق الأدبى ونفاق المرءوس لرئيسه ، ونفاق صاحب الحاجة لمن عنده قضاء هذه الحاجة ونفاق الخائف لمن يخافه مر على كل هذا ومر على غيره من ألوان النفاق ... ولكنى لم أجد نفاقاً كنفاق القصة التى تقول إن (عمدة) من عمد الريف فى مصر كانت جبته مغسولة ومنشورة على حبال سطح داره فهب إعصار من الهواء أطار جبة العمدة وقذف بها من السطح إلى أرض الطريق فالتقطها بعض المارة وأعادها إلى دار العمدة وبعد ساعة من الزمن أبصر العمدة الناس وهم مقبلون على داره جماعات وأفراداً يهنئونه بنجاته وسلامته! فلما سألهم عن الحادث المروع الذى نجا منه قصوا له قصة الجبة التى أطارها الهواء من السطح فهوت إلى الأرض !! فقال لهم وما الصلة بين جبتى التى أطارها الهواء من السطح إلى الأرض وبين نجاتى وسلامتى فقالوا ما أشجعك يا عمدتنا وما أجمل تواضعك وما أشد أنكارك لذاتك جئنا نهنئك لأنك لم تكن داخل الجبة حينما سقطت الجبة من السطح !! ثم هتفوا يعيش العمدة الشجاع يعيش العمدة المتواضع يعيش العمدة المنكر لذاته !

وكان بالمجلس علم لغوى قال لما سمع هذه القصة إن هذا شيء فوق النفاق قلنا فيما نسميه ؟! فقال هذا هو (النفاقياق) ؟ فإن علماء البلاغة يقولون زيادة المبنى فى الكلمة تدل على زيادة المعنى قلنا له أرحتنا أراحك الله) .

والمقال السابق يحمل بين طياته درجة تغلغل سلوك النفاق فى البيئة المصرية والذى دفع إليه الرغبة الملحة فى تحقيق المصالح الذاتية وقد بين المنشىء أن سلوك النفاق عم جميع المناصب وسيطر على طبيعة العلاقات وتحكم فى سير الأمور فهناك النفاق الدينى والفكرى والسياسى والصحفى والأدبى.

والقصة التى سردها المنشىء عن أغرب مواقف النفاق وهى قصة ساخرة تهكمية يرفض الفكر قبولها ولكن بنظرة تأمل يدرك المتلقى أن المغزى الحقيقى يكمن وراء السطور فقد انتشر النفاق حتى أصبح ظاهرة طبيعية مما جعل الكاتب يمعن فى السخرية فيطلق هو ومن فى المجلس على الظاهرة اسم (النفاقياق) ؟ ليوحى بطغيان هذه الظاهرة .

والمقال لمحة ساخرة كشفت عن جانب مظلم من جوانب المجتمع الذى تعرض لنكبة التحكم الأجنبى .

وقد عقب المنشىء بعد ذلك بمقال عنوانه (الانتفاخ والانتفاش) يعرض فيه سلوك التصنع والتكلف الممقوت :

(ليس شىء أفضل فى نظرى من ترك الأمور تجرى(١) على طبيعتها وتظهر فى شكلها الحقيقى من غير تهويل ولا تفخيم خصوصاً إذا كان تهويلها وتفخيمها ونفخها ونفشها من الوضوح بحيث لا يحجب حقيقة أمرها .

رأيت أثاثاً لعروس منقولاً من بيت أهلها إلى بيت زوجها فى موكب يتقدمه المزمار البلدى وكان الأثاث فى ذاته بسيطاً ولكن أصحابه نفخوه ونفشوه حتى جعلوه على سبع عربات : فعربة عليها مرتبتان وأخرى عليها لحافان ومخدتان ، وثالثة عليها كنبة وكرسيان ورابعة عليها طشت ووابور

---

(١) مع المجتمع ص ٢٠ .

وحلتان وهكذا حتى تنتهى آخر عربة من هذا الموكب المنتفخ المنفتش الذى لولا روح الانتفاخ والانتفاش وضع كله فوق عربة واحدة يجرها حمار إلى منزل الزوجية بسلام .

هذه النفخة الكاذبة أصبحت شائعة متفشية فى كل الأوساط فأنت تجدها بين الأغنياء والفقراء وأنت حينما تجدها فوق العربات المذكورة تجدها كذلك بين فساتين السيدات وتجدها فى اقتناء السيارات والجلوس على المشارب والتصييف فى الخارج وتجدها فى مكاتب بعض كبار الموظفين وبعض صغارهم أيضاً وتجدها فى كل لون من ألوان حياتنا .

لو أن هذه النفخة الكاذبة كانت مقصورة على وسط واحد من هذه الأمة لهان الأمر ولكنها أصبحت تعم كل الأوساط وتشمل كل الأحوال : انتفاخ وانتفاش فى الأفراح وانتفاخ وانتفاش فى الأحزان واستدانة مستمرة ثم الاضطراب المالى ثم الإفلاس) .

يرفض المقال السابق ظاهرة اجتماعية سيئة شاعت بين أوساط البيئة المصرية دفعت إلى التدهور الاقتصادى للأسر كما دفعت إلى غرس بذور الحقد التى تثير ضغائن النفس البشرية والقصة التى قصها المنشىء من واقع البيئة المصرية نشاهد أحداثها فى جميع المناسبات الاجتماعية وقد ساقها ليعلن أن هذه السلوكيات تجافى الأصول الإسلامية وتبعد عن الروح الحضارية والمدنية وتكشف عن سطحية فكر أصحابها والتى تدل على المستوى العام لوعى المجتمع وأبعاد تقديره لقضية البناء الإنسانى .

والمقال وصفى اجتماعى ساخر استطاع كاتبه جذب الانتباه لسلوكيات متخلفة يجب التخلص منها والعودة إلى روح الإسلام التى ترمى إلى الرقى الفكرى والسمو الاجتماعى .

ويسير البحث فى روضة مع المجتمع لنتذوق أفكاراً طريفة من خلال المقال الاجتماعى (قطان جائعان) الذى يقص ما حدث لمحمد الأسمر وصديقه أثناء نزهة سريعة حيث هبط عليهما (ضيفان لم يستأذنا ، ولم يسلما وليس من عادتهما أن يستأذنا أو يسلما ضيفان لا يحرصان أن يأتيا البيوت من أبوابها أو من نوافذها هذا الضيفان قطان جائعان(١) ....) ويستمر المنشىء فى سرد الموقف ويبين طبيعة المسلك الذى سلكه هو وصديقه مع القطين :

(وأطعمنا القطين الجائعين وأثرناهما على أنفسنا وشكرنا الله على أن ألهمنا المجىء إلى هذا المكان الخالى لنقوم بشىء من البر نحو هذين المخلوقين الضعيفين وما يدرينا ؟ فلعلها حزينان اتخذا هذه الناحية النائية على الشاطىء لقتل همومها النارية أو الثلجية ! وحمدنا الله الذى ألهمنا أن نواسى الحيوان فى زمان لا يواسى فيه الإنسان الإنسان) .

ومعانى الفقرة السابقة هى هدف المقال الذى أراد تذكير أبناء الشعب المصرى بخلق البر وماله من آثار طيبة تثمر غصون الود الوارفة .

كما أن المتأمل للمقال يدرك نداء الكاتب لصحوة اجتماعية تنظر بعين الرحمة لفقراء مصرنا الحبيبة ولعل دعوته النبيلة تحققت الآن فيما تقوم به الدولة من رعاية اجتماعية مكثفة لأبناء مصر .

وقد أعجبنى المقال رغم أنه ركز الأضواء على قطين فمن يستقبله بمشاعره وإحاسيسه ويتعايش مع ملامحة الوجدانية يدرك أن المقال أنين مكروب وزفرات محزون لدرجة جعلت الكاتب يرى الحزن والحسرة

---

(١) مع المجتمع ص ٢١

والضعف فى القطين وما هذا الرؤية إلا وجدانه الجريح الذى أصبح يرى الدموع فى المخلوقات جميعها وقد جسد محمد الأسمر آلامه فى تعبيره (وحمدنا الله الذى ألهمنا أن نواسى الحيوان فى زمان لا يواسى فيه الإنسان الإنسان) فالكلمات تكشف عن مرارة الغربة ووحشة الوحدة وعنفوان الألم كما توحى بتمزق نسيج العواطف بين الأهل والأصدقاء فقد انصرف كل فرد لمصلحته المادية فهرب القوى من الضعيف والغنى من الفقير والسليم من المريض والسعيد من الحزين وانقلب المجتمع لدائرة جحيم فقد تلاشى منه الحنان الذى تترجمه المواساة التى فقدها الكاتب من أحضان المجتمع فحاول التخفيف عن نفسه المكروبة بنداء لمحة لمواساة نفسيه ولو مع قطين مادام المجتمع فقد دفء المشاركة الوجدانية التى تتمثل فى مواساة الإنسان لأخيه الإنسان .

والمقال اجتماعى بديع طبع بالسمة الوجدانية وقد ضاعف من إبداعه وضوح ملامحة التصويرية .

ويبدو أن كاتبنا تجرع آلام الهموم وذاق مرارة الحرمان من القيم فقد اصبح المجتمع يرفض آيات البر ومعانى الإيثار وجمال الوفاء ولهذا يجد القارىء الكريم عقب المقال السابق أن كاتبنا تحدث فيه عن (القط ياسمين) ناقش عبر هذا المقال الغريزة والطبع وكأنه يواسى نفسه عما يشاهده بين البشر من اضطرابات اجتماعية ووجدانية ويقدم البحث للمتلقى الكريم هذه الفقرات من مقال (القط ياسمين) التى تدل على هدفه الاجتماعى :

(قط صغير أبيض اللون ، أزرق العينين رآه الأطفال بالطريق فحملوه إلى المنزل وهم فرحون به .....)(١) .

---

(١) مع المجتمع ص٢٢ : ٢٥

(ومرت الأيام والقط ياسمين - هكذا سميناه - فى رغد من العيش وهناءة من الحياة له من كل من فى المنزل الإكرام والتدليل ..... وكان هذا القط الصغير يمر بأبواب كل الغرف وهو مطمئن ولكنه إذا مر بباب الشقة مر خائفاً وإذا فتح هذا الباب دخل إلى الغرف مذعوراً وبدراستى لهذه الحالة فيه علمت أنه يدرك بفطرته أن الخروج من هذا الباب يقضى إلى الطريق وهو لا يحب أن يرجع إلى الحياة التى كان يكابدها فى الطريق وفى ذات ليلة كنا جالسين بغرفة ملاصقة لشجرة وكنا منهمكين فى حديث عائلى ثم لفت نظرنا انشغال القط عنا وأنه فى عيث عنيف فى ناحية من نواحى الغرفة لا يتجاوزها وناديناه مراراً فلم يلتفت وظل مشغولاً عنا بعبثه العنيف فقمت إليه لآحمله ولكننى ما قربت منه حتى ابتعدت عنه وصحت ثعبان .... ثعبان .... فوقف كل من كان بالغرفة واتجهت الأنظار إلى مكان القط الصغير وهو فى صراعه العنيف مع ثعبان صغير ...

وأصبحت بعد ذلك أنظر إلى القط الصغير نظرة إعجاب بموقفه الحميد وازداد حبى له واعتنائى به ....

ومرت الأيام وأهدى إلى بعض أصدقائى عصفوراً صداحاً ووضعت قفص العصفور فى مكان عال .. وكان القط قد كبر قليلاً - واعتقد أن القط لم يسترح إلى هذا الضيف الجديد وأن كان لا يبرح اليوم كله يسدد إليه نظراته وتتابع حركاته فى قفصه والعصفور مشغول عن كل ذلك بتغريداته وقفزه وتناول حبه ورشف مائه .

وانعقدت بينى وبين العصفور صداقة ومحبة كالصداقة والمحبة اللتين انعقدتا بينى وبين القط وكنت أود أن تنعقد بين القط والعصفور صداقة ومحبة ولكن هيهات .

ولحظت أن القط كثر انشغال باله بالعصفور وأن مرحه المعهود قل وأن صحته بدا عليها شيء من التغير فأعليت قفص العصفور وجعلت مكانه أكثر ارتفاعاً لأبعده عن نظرات القط وكان القط مع ذلك يصوب نظراته للقفص وأحياناً يغمض عينيه متناوما ويقرأ قراءة القطط التى لا أمان لها ....

وفى يوم من الأيام عدت إلى المنزل وذهبت إلى العصفور فلحظت أنه لا يغرد فأدنيت قفصه وتأملته فتبين لى أن أحد جناحيه مجروح فسألت عن السبب فقيل لى إنهم أرادوا أن يمنحوا العصفور حرية أكثر فاغلقوا الغرفة واطلقوه من قفصه بها وما كانوا يظنون أن القط بالغرفة فما كاد العصفور ينطلق حتى انقض عليه القط فسارعوا إلى إنقاذه وكان ثمن هذه اللحظة من تمتع العصفور بحريته فى الغرفة ما أصاب جناحه من أظافر القط ولولا أن لطفت المقادير به لذهب ضحية عدم تنظيم اعطائه شيئاً من الحرية .

هممت بعد ذلك بطرد القط ولكننى قلت ما ذنبه وتلك طبيعته يصيد (الثعبان) ويصيد (العصفور) ومرت الأيام وكبر القط وفى يوم من الأيام تفقدناه فلم نجده فبحثنا عنه هنا وهنالك فلم نعثر عليه وأخيراً رجحنا أن أحداً اختطفه .... وبعد أيام سمعنا حركة غير عادية بباب الشقة من الخارج ففتحنا الباب فإذا بالقط (ياسمين) وهو فى حالة يرثى لها من القذارة والجوع ... فلما شبع بعد ذلك ونظف تبين لى أن طباعة تغيرت ... ولم يعد يخشى أن يرى باب (الشقة) مفتوحاً كما كان فى أول عهده ولمحت عليه فى ساعة من الساعات حنينا إلى الطريق فأردت أن أمتحنه وتركت له باب الشقة مفتوحاً فإذا به ينطلق إلى الخارج فعلمت أنه لم يعد (ياسمين) الصغير وأن قطات الطريق أصبحت تستهويه وعلمت أن اختفاءه كان بمحض إرادته .

وبعد أيام عاد إلينا ثم اختفى ولم يعد ... جاء من الطريق وعاد أخيراً إلى الطريق وخلا البيت من القط كما خلا قبل ذلك من العصفور ولا تخلو حياة الناس من قط أو شبه قط ولا تخلو حياة الناس من عصفور أو شبه عصفور ... اما الثعابين وأشباه الثعابين ففي حياة الناس منها الشيء الكثير.... !!

يفصح مقال (القط ياسمين) عن حقائق ثابته قد يحاول بعض الناس إغفالها وتناسى أبعادها وقد استدل الكاتب على صحة رؤيته بما قصه من سلوك القط منذ دخوله المنزل حتى لحظة خروجه والقط ياسمين هو محور المقال حيث اتخذه الكاتب الرمز الذى يعبر به عن أبعاده الاجتماعية .

بين الكاتب أنه ضم هذا القط بين أحضان الرحمة وأجنحة الحنان فى بيته بعد أن كان يعانى من خطر الطريق فى فترة ضعفه وعجزه حيث تمتع القط فى هذا البيت بالرعاية والحب وقد أعلن المنشىء عن إعجابه بشجاعة القط وصيده لثعبان تسلل إلى الغرفة ويفصح الأسمر أن القط الصغير نال إعجاب الجميع لهذا الموقف الحميد الذى ضاعف من حب الجميع له حتى حل ضيف جديد وهو العصفور المغرد الذى تعرض لهجوم غادر من القط فحزن جميع أهل المنزل لما حل بالعصفور الوديع من إصابه أفقدته القدرة على التغريد مما يوحى بعمق حزنه ولهذا اضطر الكاتب لحمله إلى بائع العصافير عسى أن تتحسن صحته فيعود تغريده .

ويسترجع الكاتب الأحداث فى إطار من الألم الدفين فيصرح بتغير طباع القط ياسمين وتبدل حاله فأصبح يحن للطريق بعدما اشتد عوده . ويعلن الكاتب أن هذا الحنين استجابة طبيعية لغريزته وتكوينه .

والمقال اجتماعي وصفي نفسي جيد الإيحاء واضح الصور صادق الانفعال فلسفي الروية حيث استطاع الكاتب بدلاً له المواقف إثارة مشاعر المتلقي وقد تميز المنشيء بالقدرة على توظيف الصورة فجعلها مرآة واضحة للمعاني الاجتماعية والوجدانية وعلى سبيل المثال ما صرح به محمد الأسمر (همت بعد ذلك بطرد القط ولكني قلت ما ذنبه وتلك طبيعته يصيد (الثعبان) ويصيد (العصفور) فالعبارة توحي بأن طبيعة المخلوق تتحكم في سلوكه فالقط لا يفرق بين الثعبان الضار وبين العصفور الوديع وكأن محمد الأسمر يعاتب نفسه على إعجابه بالقط حينما هاجم الثعبان فقد هجم عليه من منطلق طبعه لا من منبع حبه لأهل البيت وخوفه عليهم بدليل هجومه بعد ذلك على العصفور الوديع .

ويعلن المنشيء بروح الألم عودة القط إلى الطريق :

(وبعد أيام عاد إلينا ... ثم اختفى ولم يعد ... جاء من الطريق وعاد أخيراً إلى الطريق وخلا البيت من القط كما خلا قبل ذلك من العصفور ولا تخلو حياة الناس من قط أو شبه قط ولا تخلو حياة الناس من عصفور أو شبه عصفور .... أما الثعابين وأشباه الثعابين ففي حياة الناس منها الشيء الكثير).

والصورة السابقة توحي بزوال العلاقات وتبدل الأحوال وتعرض الشريف الودود الوديع للشرس وهي سنة الحياة والعبارات تدل على اختلاف الطباع وتحذر من الانخداع ويمعن الكاتب في التحذير فيقول (أما الثعابين وأشباه الثعابين ففي حياة الناس منها الشيء الكثير) والكلمات تندد بمن يتصف بالغدر والخديعة وإثارة الفتن بين الناس مع أنه يرتدي بينهم ثياب الصلاح وهذا أخطر على الكيان الاجتماعي من العدو السافر ولعل محمد

الأسمر يحذر من الانخداع بالتيارات الأجنبية التى تبث سمومها بين أبناء مصر الأكفاء الشرفاء .

وقد وفق المنشىء فى قوله (وكان ثمن هذه اللحظة من تمتع العصفور بحريته فى الغرفة ما أصاب جناحه من أظافر القط ولولا أن لطفت المقادير لذهب ضحية عدم تنظيم إعطائه شيئاً من الحرية) والصورة دعوة لتحديد مفهوم الحرية وبيان لحدودها للحرص على سلامة أبناء مصر من الأخطار التى تحيط بهم من كل جانب .

وتمضى أحداث مع المجتمع فيطالعنا المقال الاجتماعى (جناية أم) الذى يكشف دور الأم فى بناء شخصية أولادها كما يبين ضرورة النصح والإرشاد للنشء على أسس تربوية تعتمد على الأخلاقيات الرفيعة النابعة من تعاليم الإسلام ويفصل المقال بين المفهوم التربوى الذى تحفه مشاعر الأمومة وبين التدليل الذى يشعل نيران الهلاك ويدفع إلى الإخفاق وسوف تبرز الفقرات التالية مضمون المقال :

(جليلة هانم : سيدة فاضلة منقطعة لمنزلها متفرغة لشئونه . وزوجها الحاج إسماعيل رجل طيب فاضل منقطع لتجارته الصغيرة متفرغ لمكانه الذى يبيع فيه (البقالة) وولدهما فوزى دللته أمه .

وكان الحاج إسماعيل ينصح جليلة هانم فى كل ساعة ويحذرها تدليلها لفوزى ويقول لها إنه جاوز سن التدليل وإنه يجب أخذه بشىء من الحزم فكانت تقول له : دعه لى ..... التفت أنت لصحتك ومر الزمن سنة بعد سنة وبلغ فوزى مبلغ الرجال بعد فشله التام فى المدارس فمن رسوب إلى رسوب ومن طرد مدرسة له إلى طرد مدرسة أخرى ووالده ينظر إليه نظرة الحزن

والألم أما فوزى فينفرد بوالدته ويقول لها : أنظرى إلـى سوء حظـى وكيف ينجح فلان وفلان وهما أقل منى ذكاء فتبكى أمه لسوء حظه المزعوم ويتباكى فوزى وتنتهى هذه التمثلية القصيرة بأن تنقده والدته ما تيسر من المال لتخفف عنه سوء حظه كما يزعم وتطورت المسائل فتناول فوزى الحشـيش والأفيـون وشم الكوكايين وقضى الليل معربداً وتقدمت بوالده السن وكان يعود من عملـه العاشرة أو الحادية عشرة مساء يتناول عشاءه الخفيف ثم يذهب لينام وقبـل أن ينام يسأل جليلة هانم أين فوزى فتقول له نـائم ..... ثم تتنـاوم هـى بعـد ذلـك حتى إذا سمعت نقراً خفيفاً على الباب قامت متسللة وفتحت لفـوزى ثـم عـادت فنامت .

وأخيراً قبض على فوزى ومعه ورقة من الكوكايين فحبـس لأجـل ذلـك ولبث بالسجن شهوراً ثم خـرج منـه بعـد أن قضـى مـدة الحبـس وقـد تحسـنت صحته وجاء المهنئون يهنئون الحاج إسماعيل بخروج فوزى من الحبس فكان يصغى إلى تهنئاتهم وهو صامت ..... وكان يبتسم أحياناً ابتسامة كأنها بكاء) .

ويستمر كاتبنا فى سرد أحداث المقال ليعلن نتيجة التدليل (وبعد عـامين من هذه الأحداث كنت أسير قريباً من مسجد الحسين رضـى اللـه عنـه فرأيـت شخصاً متسولاً ينادينى باسمى ثم أسرع إلـى ومديـده ليسـلم علـىّ فنفـرت منـه لشدة قذارته وقد كان متورم الوجه ولحيته مهملة إهمالاً شنيعاً وكـان منظـره بشعاً .... فقال : إلا تعرفنى ؟ فقلت له لا !! فقال : أنا فوزى !!) .

ورد المقال السابق فى إطار قصصـى اجتمـاعى واقعـى الأحـداث عرضـه الكاتب بإسلوب حى يعج بالحركات والأشكال والأصوات كما عكـس بدقـة طبيعـة الانفعـالات ودرجـة الأحاسيس التـى كشـفت عـن عنـاء الأم والأب نتيجـة لسـلوك ابنهما الضال الفاسد الذى استغل حنان أمه فى إشباع احتياجات نفسه المرضية .

ويبين الكاتب للأم ضرورة الاتزان العاطفى مع أولادها وإعدادهم إعداداً صحيحاً يعتمد على الالتزام وحسن المعاملة والوفاء والصدق مع النفس ومع الأخرين والتزين بالعطاء الشريف والإيثار النبيل وتنمية الطموح لأن فى هذا صلاح للفرد والأسرة والمجتمع .

والمقال السابق يتمتع بحيوية الوصف وحرارة الانفعال فقد أراد محمد الأسمر من خلاله التعبير عن دور الأم الإيجابى فكانت عباراته صرخة عالية ترجمتها المواقف الباكية مثل :

(وتطورت المسائل فتناول فوزى الحشيش والأفيون وشم الكوكايين) ، (شبت حريق فى الدكان عقب إغلاق فوزى له ، وجاءت المطافىء فاطفأت النار بعد أن التهمت أكثر ما كان فى الدكان) ، (ثم علمت أن الحاج إسماعيل انتقل إلى رحمة الله أما جليلة هانم فقد انتقلت إلى غرفة صغيرة بعد أن أصبحت لا تستطيع أن تدفع أجر الدار التى كانت بها ... ثم انتقلت بعد ذلك إلىرحمة اللـه...) لقد جسدت الصور السابقة طبيعة المواقف التى أوحت بهدف المقال الذى أطلق عليه اسم (جناية أم) ليعلن أن الأم هى أصل الاستقرار الاجتماعىومضمون المقال السابق يذكر المتلقىالكريم بقول حافظ إبراهيم(١):

(١) محمد حافظ إبراهيم الشهير بحافظ إبراهيم شاعر النيل ولد ١٨٧١م وهو شاعر مصر القومى ومدون أحداثها . التحق بالمدرسة الحربية ثم سافر مع حملة السودان وألف مع بعض الضباط المصريين جمعية سرية وطنية اكتشفها الإنجليز فحاكموا أعضاءها ومنهم حافظ فأحيل إلى الاستيداع .
طار صيته واشتهر شعره ونثره فكان شاعر الوطنية والاجتماع والمناسبات .
الأعلام - للزركلى جـ٦ ص٧٦ طبعة بيروت .

الأم مدرســـــة إذا أعددتهـــا أعددت شعباً طيب الأعراق(١)

الأم روض إن تعهـده الحيا بالرى أورق إيمـــــا إيراق

الأم أستاذ الأســــاتذه الألى شغلت مآثرهم مـدى الآفاق

ومقال (جنايــة أم) دعـوة إلـى الاهتمـام بتوعيـة الأم توعيـة اجتماعيـة ووجدانية وفكرية للحفـاظ علـى كيـان المجتمـع لأن الأم هـى منبـع الاسـتقرار الذى يدفع إلى الحضارة والتقدم .

وعندما يتصفح المتذوق كتاب مع المجتمع يقطف من ثماره المقال الذى ورد بعد (جناية ام) وهو بعنوان (قلب الأوضاع) ومقالنا دعوة طيبة تهدف إلى التماس العذر للأخرين وقد عرضه المنشىء عرضاً لطيفاً فقال :

(أركب فى طريقــى إلـى منزلى الـترام وقـد لفت نظـرى مـرة(٢) مـن المرات أن راكبًا بالكرسى الواقع أمامى يتصفح جريدة الأهرام مقلوبة فقام فى ظنى أن الرجل أمـى ولكنـه يحـرص علـى أن يظهـر بمظهـر القـارئين وكـان جمهور الراكبيـن يظـن ظنـى وتقاسـموا السـخرية مـن الرجـل بيـن مبتسـم وضاحك. ثم مرت الأيـام وركبـت هـذا الـترام فـإذا بصاحبنـا يصعـد إليـه مـن بعض المحطات ويجلس بجوارى وبيده الأهرام حتـى إذا اســتوى بـه مقامـه قلب (الأهرام) وأخذ يقرأ فى ســره محركاً شفتيه فقام فى ظنى هذه المرة أن الرجل مخبول وأوجست فى نفسى خيفة من جلوسى بجانبه ثم عدت إلى ظنـى الأول به والتفت إليـه وقلت : هل تروض نفسك على قراءة الكتابة مقلوبة ؟ !

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم-ضبطه وصححه أحمد الزين طبعةهيئةالكتاب ١٩٨٧م ص٢٨٢.
(٢) مع المجتمع ص٣٠ .

قلت له ذلك وأنا اعتقد أننى ألا طفه لألفت نظره إلى خطأ يرتكبه فى التدليس على الناس لإفهامهم أنه قارىء ولكنه أجابنى وهو مطمئن كل الاطمئنان :

(لا ياسيدى لقد تعودت أن أقرأ هكذا فتناولت الصحيفة من يده وقرأت خبراً من الأخبار ثم ناولته إياها مقلوبة وقلت له أقرأ هذا الخبر وكم كانت دهشتى حينما قرأ ه لم يغادر منه حرفاً قلت ولم لا تقرأ كما نقرأ ؟ قال لى يتعب بصرى ويدركه الكلال بعد قراءة مقالة واحدة ! قلت له وكيف تعودت هذه القراءة ؟ فقال : كان يزورنى بعملى بعض الضيوف فكنت أقلب الجرنال وأقرأه مقلوباً فلا تفوتنى بذلك قراءته مع محافظتى على عدم جرح شعورهم بأننى منصرف عنهم إلى القراءة .

قصصت هذه القصة لصديق لى فقال إننى بعد اليوم سأحسن الظن بتصرفات الناس فقلت وإن قلبوا الأوضاع ؟ فقال وإن قلبوا الأوضاع !!

والمقال طريف يحاول كاتبه غرس الاهتمام بالأمور العظيمة التى تشكل كيان المجتمع إلى جانب تفسير سلوك الغير تفسيراً طيباً مما يدفع إلى انصراف كل فرد إلى العناية بما ينفعه وينفع مجتمعه أما رصد سلوكيات الغير ومحاولة تفسيرها فلن تثمر إلا الضياع والمقال دعوة صريحة للتخلص من السلوكيات السيئة التى انتشرت بين أبناء المجتمع أبرزها السخرية والضحك على سلوكيات الغير كما أنه نداء طيب للاتزان فى الفكر والالتزام أثناء مناقشة الغير ولعل فكرة هذا المقال أوحت لكاتبنا بمقال (مظاهرة) وموضوعه يتناول الحذر من تجسيم الأمور :

(كنت مع بعض أصدقائى على كوبرى قصر النيل)(١) وسمعنا هناك من بعض المارين أن مظاهرة كبيرة قائمة بحى الدراسة وأن الضحايا كثيرون فغادرت أنا وإخوانى الكوبرى وهرولنا مسرعين وكنا نسأل الناس فيخبروننا عن هول هذه المظاهرة فنسرع فى السير حتى وصلنا العتبة والحديث عن المظاهرة يزيد ولكننا لم نر فى العتبة شيئاً يدل على ذلك من انتشار الجنود أو الجرحى المنقولين إلى المستشفيات أو الصراخ والعويل على من مات غير أن الكلام كثير عن المظاهرة والحديث عنها رهيب فتابعنا السير فى شارع الموسكى على حذر ووجل ومازلنا كذلك حتى وصلنا إلى الدراسة فلم نجد شيئاً وأخيراً جلسنا على مقهى من المقاهى البلدية هناك مع بعض إخواننا الجالسين وسألناهم عن أمر هذه المظاهرة الرهيبة فقصوا علينا ما يأتى :

بينما كانوا جالسين على مقهى مرت بين أرجلهم (فأرة) فهاج الذين بالمقهى وصاحوا (فار - فار) فصاح جماعة اقتلوه وسمعت هذا الصياح سيدة فصاحت بدورها وقالت (يا دهوتى قتلوا الجدع)وامتدت الحركة قليلاً فقيل مشاجرة ثم مظاهرة وحينما وصلت إلى (كوبرى قصر النيل) كانت مظاهرة دامية رهيبة كثير من أمورنا (فارة) ولكننا ما نزال به حتى نجعله جملاً وما نزال بهذا الجمل حتى نجعله (جبلاً) ولو أخذنا كل أمر من مصدره لاسترحنا وأرحنا ولكن هكذا نحن فلا نريح ولا نستريح) .

يعالج المقال بعض السلوكيات الاجتماعية المنتشرة فى المجتمع التى يتسبب عنها إثارة الفزع والذعر والقلق بين الناس كما يتسبب فى حدوث إصابات جسيمة بين الأمنين وخاصة من النساء والأطفال والشيوخ والموقف الذى قصه محمد الأسمر ليس المقصود منه سرده فحسب وإنما يرمى إلى

(١) مع المجتمع ص ٣١

علاج هذه الظاهرة السلوكية المتفشية فى مصر ولهذا أطلق عليها مظاهرة وكاتبنا ينادى بضرورة الاتزان فى القول والفعل والعواطف وتقدير الأمور التقدير الصحيح وتجنب التهويل والمبالغة حتى تستقر الأوضاع الاجتماعية وترقى المشاعر الوجدانية فيتولد السلوك الحضارى الذى يجب أن يضبط سلوكنا فى العلاقات العامة والخاصة فنعيش فى سلام وسكينة ويصمت كاتبنا لحظة يعلن بعدها أن الصمت سبيل السعادة ففى مقال بعنوان (مع القمر)(١) يكشف محمد الأسمر النقاب عن جمال الصمت :

(عقب مناقشة من المناقشات المنزلية - وما أكثر مناقشاتنا - ذهبت إلى الشرفة وقعدت بها أنظر إلى القمر) .

وجاءنى فى الشرفة من يعنيه أمرى ليخفف عنى بعض ما بى وقال ما أبهى القمر .

فقلت له إن هذا القمر على بهائه لو كان له لسان يتكلم به ما نظر إليه أحد ...... ولو كان له أذنان يسمع بهما ما طلع على احد ..... فإنه ربما تكلم إلى الناس فأغضب الناس ...... وربما سمع من الناس ما يبغض إليه الناس .

من أراد أن يعيش سعيداً مع الناس فعليه أن لا يكون له لسان وأن لا يكون له أذنان .

والمقال لمحة خاطفة فى سماء الحياة الأسرية بين فيها الكاتب أن التزام الصمت والامتناع عن السماع من أسباب السعادة والمراد صرف العزم إلى مايفيد حتى لا تفيض النفوس بالهموم وتجزع المشاعر والأحاسيس من فرط

---

(١) مع المجتمع ص ٣٢

الأحزان فتصبح الشكوى رسول الألم وهذا المضمون ما ترجمه كاتبنا فى مقال أطلق عليه اسم (الشكوى) قال فيه :

(الشكوى موجودة منذ كانت الآلام والآلام باقية[١] ما بقى الإحساس والإحساس مختلف اختلافاً عظيماً بين الناس ومن أجل هذا الاختلاف شقى قوم بما يسعد به آخرون .

ونفوس الناس معادن شتى فمنها المصقول ومنها الهش ومنها السائل فلو طرقت بمطرقة من الحديد على هذه الأشياء التى ذكرنا لاختلف تأثير الطرقة وسريان تيارها فيها اختلافاً بينا وأتعس الناس فى هذه الحياة هم ذوو النفوس المصقولة فصوت المطرقة عليهم له صلصلة مسموعة وتلك الصلصلة من الحديد إذا اصطدم بالجديد فكذلك النفوس المصقولة إذا اصطدمت بالمظالم والحوادث فهى لا محالة صائحة أما النفوس الهشة أو السائلة فهى أسعد فى هذه الحياة من سابقتها .

والشكوى التى أعنيها هنا ليست هى المذلة والضراعة ولكنها الصوت الطبيعى للتألم وهى دليل الحيوية الثائرة على ما يؤلم والصدى الطبيعى لإحساس النفس المصقولة .

وشكوى المتألم إذا سرت بين المتألمين كان فيها بعض العزاء وهى وإن لم تدفع شيئاً فإنها تشعر المتألم المستمع إليها أن فى الدنيا متألمين مثله فيأنس بذلك بعض الأنس . كالسارى فى الظلام ، فى الطريق المخوف تراه يانس إذا التقى فيه بإنسان ولو كان خائفاً مثله وقد شكا الناس قبلنا وسيشكو الناس بعدنا وقديماً قيل :

---

(١) مع المجتمع ص٣٣ .

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

لقد شكت الجماعات ، وشكت الأمم وشكا الأنبياء والمرسلون وصدق الذى قال :

كل من ألقاه يشـــكو دهره   ليت شعـرى هذه الدنيا لمن

فعلى الذين يلومون الشاكين أن يتريثوا فالجريح لا يغنى ولكنه يئن وكم فى الدنيا من جريح) .

يعيش المتذوق الكريم فى رحاب مقال وجدانى رقيق يناجى النفس المرهفة ويخاطب المشاعر النبيلة ويغوص داخل أعماق الأرواح النورانية التى تسبح فى عالم السمو ويبين الكاتب عناء هذه النفوس الطاهرة والأرواح المثالية فى دنيا الواقع الأليم مما دفعها إلى الشكوى التى ترمى إلى التخفيف عن الوجدان .

وقد أجاد الكاتب فى هذا المقال الوجدانى الوصفى عندما جعل الشكوى وليدة الإحساس الذى يرتبط بدوره بطباع الناس وقد صور محمد الأسمر النفوس تصويراً جيداً فجعل منها المصقول ، والهش ، والسائل وأمعن فى التصوير فبين أثر المظالم والحوادث على النفوس المصقولة وقد راعنى تصوير الأثر بطرق الحديد الذى حدد طبيعة الصوت وحدته وجميل تعبيره (فهى لا محالة صائحة أما النفوس الهشة أو السائلة فهى اسعد فى هذه الحياة من سابقتها .

والتعبير ينبض بالحياة لصدقه فالنفوس المصقوله مرهفة راقية مقدرة تعشق العطاء الجميل وتغرد بالإيثار النبيل وتسعى لإسعاد الجميع أما ذاتها

ففى عالم النسيان ومع هذا السمو فهذه النفس منكوبة فى الحياة وليس لها سبيل إلا الشكوى التى تترجم بها رفض الجحود .

وأبدع كاتبنا عندما فصل بين الشكوى التى تعنى الرفض وبين التى ترمى إلى المذلة والضراعة وقد ضاعف من جمال الصورة جعله صوت التألم دليلاً على حيوية المشاعر ونبل الإحساس وأن الشكوى الصدى الطبيعى لجلال النفس الشريفة المصقولة .

ويغوص المنشىء فى أعماق النفس المتأملة المصقولة التى تتخذ من الشكوى سبيلاً للعزاء الذى يشعر به كل متألم مثلها وقد جعل الكاتب الإنس بين المتألمين نوراً يضىء ليل وحشتهم ويخفف من عناء غربتهم وجميل تصويره لأثر الإنس بين المتألمين بالعبارة (كالسارى فى الظلام فى الطريق المخوف تراه يأنس إذا التقى فيه بإنسان ولو كان خائفاً مثله) .

أن المتألم يشعر به من يذوق من نفس كأسه وفى هذه المشاركة لمسة حنان تربط بينهما كمن يسير فى طريق مظلم تصرخ فيه رياح الوحشة وترعد أصوات الغربة يشعر بالأنس إذا وجد من يسير معه فى هذا الليل المخيف ويشعر المتلقى بعمق إحساس المنشىء فى تعبيره (ولو كان خائفاً مثله) مما يوحى بأن الأنس يحدث من لقاء المشاعر وعبر همسات الأحاسيس .

وقد أسبغ الكاتب على الشكوى ثياب الجلال عندما جعلها تتدفق من الأنبياء والمرسلين ولعل ختام المقال يوحى بنداء وجدانى أعلن فيه محمد الأسمر أن الشكوى نبض الجريح وأنين المكروب ونحيب المحزون وسلوى المحروم وفى الدنيا الكثرة الكاثرة من هؤلاء .

والمقال سلس الألفاظ جيد العبارات يتمتع بعمق التأمل ودقة الوصف إلى جانب المهارة الفنية والقدرة التعبيرية .

ويصل بنا ركب البحث إلى مقال بعنوان (**بين الكذب والسياسة**) بين فيه محمد الأسمر صفات رجل السياسة (ليست البراعة السياسية بين أحزاب أمه من(١) الأمم هى البراعة فى الكذب فالكذب يتنافى مع الشرف السياسى ويتنافى مع المصلحة السياسية للكاذب نفسه فمن يجوز على العقول كذبه مرة لا يجوز أخرى فتقل الثقة بكلامه ثم تنعدم فتنعدم الثقة به وبكل أموره فيموت موتاً سياسياً لا حياه له بعده .

على السياسى أن يكون مرنا يلين ولكن لا يمكن يد خصمه من عصره ويجمد ولكن لا يمكن يد خصمه من كسره ، يلف ويدور ولكنه لا يسقط وهو يتوعد ويتوعد وهو يعد ، لا يعمل على أن يخلق له عدواً بل يعمل دائماً على أن يصير أعداؤه أصدقاء كل ذلك فى دائرة الصدق إن كل رجل يستطيع أن يكذب وأن يلفق ولكن ليس كل رجل يستطيع أن يكون سياسياً بارعاً والكاذب الملفق يهدم نفسه فلا تمكث غير قليل حتى تمر بـه انقاضاً والسياسى البارع يبنى نفسه فلا تلبث حتى تمر بـه طودا من الأطواد الراسية فالكذب شىء والسياسة شىء أخر الكذب ضعف ولؤم والسياسة قوة ومرونة والفرق بينهما كبير) .

يناقش المقال السابق الأصول الأخلاقية والأسس النفسية التى يجب أن يتميز بها رجل السياسة من شرف وحزم وشجاعة وعدل وبعد نظر وصدق إلى جانب تمتعه بالاتزان النفسى حتى يحقق لبلاده النصر فتصبح راية منيرة تقتدى بها بلاد العالم .

---

(١) مع المجتمع ص٣٥

والمقال مع إيجازه يتسم بالعمق الفكرى السياسى حيث يرشد إلى كيفية إرادة العلاقات السياسية كما يكشف المقال عن تمتع كاتبنا بالروح الوطنية فقد سطر كلماته حباً لمصلحة مصر وخوفاً على منزلتها بين بلاد العالم وقد تعايش الكاتب مع فكرته بصدق وعمق تجلى ذلك من جزالة عباراته مثل (فالكذب يتنافى مع الشرف السياسى) ، (فتقل الثقة بكلامه ثم تنعدم فتنعدم الثقة به ويكل أموره فيموت موتاً سياسياً) فقد بين كاتبنا بذكاء سياسى وعاطفة وطنية الضرر الذى تحصده البلاد من كذب قائدها ألا وهو الموت السياسى الذى يقتلعها من خريطة الوجود العالمى وخريطة الوجود الإنسانى .

ويوضح الكاتب منهج السياسى الحر الذى يعود بالخير على بلاده :

(على السياسى أن يكون مرناً ، يلين ولكن لا يمكن يد خصمه من عصره ، ويجمد ولكن لا يمكن يد خصمه من كسره يلف ويدور ولكنه لا يسقط ويعد وهو يتوعد ويتوعد وهو يعد لا يعمل على أن يخلق له عدواً بل يعمل دائماً على ان يصير أعداؤه أصدقاء ذلك فى دائرة الصدق) .

لقد وضحت الفقرة السابقة الصفات التى يجب أن يتزين بها رجل السياسة مثل الذكاء والمرونة والحزم والعزم إلى جانب قدرته على نشر ثمار الصداقة بينه وبين المجتمع كما بين كاتبنا أن الصدق منبع الاستقرار السياسى ويصرح محمد الأسمر لرجل السياسة بأن سلوك الكذب يدمر العلاقات بينه وبين السياسين فقال :

(إن كل رجل يستطيع أن يكذب وأن يلفق ولكن ليس كل رجل يستطيع ان يكون سياسياً بارعاً) والكلمات السابقة تدل على أن الكذب من صفات الضعفاء وقد أجاد عندما أعلن أن الكاذب الملفق يهدم نفسه ووفق عندما

صور هنيته بالإنفاض ليوحى للمتذوق أن تكرار الكذب يصدع كيان السياسى فيجعله كهيئة الجبل الذى تصدعه الزلازل فتقضى على صموده كما تقضى على ملامحه فيتلاشى تماماً وقد أعجبنى قوله أن السياسى البارع يبنى نفسه حتى يصبح كالجبل الشامخ وفى هذا بناء لكيان بلده ويكرر الكاتب صيحته فيقول : (الكذب ضعف ولؤم ، والسياسة قوة ومرونة ، والفرق بينهما كبير) . وكأنه ينادى رواد مصر إلى تعلم فن السياسة حتى ترقى مصرنا وتعز ويرفرف علمها خفاقاً بين الأمم القائدة والمقال سياسى ينبع من نفس وطنية تحب مصرنا وتنادى بضرورة الحفاظ عليها واختيار من يمثلها اختياراً دقيقاً هدفه خير مصر فمصر فى المقام الأول .

كما يتمتع المقال بالسهولة اللفظية والسلاسة التصويرية مع وضوح الأفكار والمعانى ...

وتلوح لكاتبنا بعض السلوكيات الاجتماعية التى تصدر من أشخاص يظنون فى أنفسهم الكمال فيسجل كلماته فى مقال بعنوان (الناصحون واللائمون) بين فيه أن لكل إنسان رؤيته فى الحياة وعلى من ينصح أن يلتزم بالمنهج السوى فى النصح والإرشاد :

(أعرف أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بشئون الناس وهم لا يكتفون بذلك بل يتطفلون بإسداء النصيحة لهم حينا أو لومهم حينا آخر وقد يكون الذين ينصحونهم أو يلومونهم أعقل وأحزم منهم إن الناس ليسوا معصومين وكل إنسان عرضه لأن يخطىء ولا مانع من أن ينصح شخص شخصاً آخر أو يلومه على شروط أن لا يتجاوز آداب النصح أو اللوم (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

ولكننى أطلب شيئاً واحداً من الناصح أو اللائم وهو أن يضع نفسه فى الظروف والملابسات التى أحاطت بمن ينصحه أو يلومه .....

قبل أن تنصح أو تلوم ضع نفسك مكان من تريد أن تنصح أو تلوم فلعلك بعد ذلك لا تنصح ولا تلوم(١) .

يدرك المتلقى أن المنشيء يرفض سلوك التطفل والتدخل فى حياة الغير ويرى أن ينشغل كل إنسان بذاته وإصلاح كيانه وتهذيب سلوكه .

وكاتبنا لا يمنع طريق النصح الخلوق وإنما يرفض التجريح كما يحذر من الاندفاع فى النصح فقد يكون من ينصح أعقل وأحزم ممن ينصحه .

ويختم الكاتب مقاله برؤية فلسفية حكيمة :

(قبل أن تنصح أو تلوم ضع نفسك مكان من تريد أن تنصح أو تلوم فلعلك بعد ذلك لا تنصح ولا تلوم) .

والمقال نبع من تجربة اجتماعية تعايش معها المنشيء بصدق فترجمها بوعى فى مقالات من وحى الحياة الاجتماعية .

لقد أفرط محمد الأسمر فى أحزانه حتى شعر بمرارة الحياة فتحدث مع صديقه (الشيخ عبد اللطيف) عسى أن يجد عنده ما يواسى به جروح نفسه وكانت نصيحة الشيخ ملهمة لكاتبنا بتسجيل مقاله (أرح ناقتيك) :

(قلت لصديقى (الشيخ عبد اللطيف) وكان رجلاً مجرباً للحياة لقد سئمت الحياة ياشيخ عبد اللطيف فقال لى أرح ناقتيك قلت له وما معنى ؟ أرح ناقيتك ! فقال :

---

(١) مع المجتمع ص٣٦ .

الحياة صحـراء لابـد لسـالكها مـن التعـرض لحرهـا وبردهـا ومتاعبهـا ومفاجآتها ونحن جميعاً نسلك هذه الصحراء على ناقتين الناقة الأولى : الجسد والناقة الثانية : النفس وهاتان الناقتان نحملها فى رحلتنا أكثر مما يطيقان .

أما الناقة الأولى : وهى الجسد فنحـن نثقـل عليهـا بـالإفراط فـى الأكـل والشرب والخمر والنساء والعمل المتواصـل والسـهر ومـا شـابه ذلـك مـن الأعباء .

أما الناقة الثانية : وهى النفس فنحـن نثقـل عليهـا بـالإفراط فـى الحـزن والعداوة والبغض والغيرة والطمع والحقد والحسد وما شابه ذلك من الأعباء .

وسكت الشيخ عبد اللطيف قليلاً .... ثم قال إذا أردت أن لا تسأم الحيـاة فأرح ناقيتك وخفف عنها هذه الأعباء ..... فإنك بعد ذلك ستحب الحياة(١) .

والمقال حديث النفس للنفس والأحاسيس للوجـدان والقلـب للفكـر ولعـل كاتبنا يذكر نفسه بضرورة تجنب الأحزان والهموم حتى لا يصل لما إليـه مـن بغض للحياة كما يشعر المتلقى أن المقال خاطرة اجتماعية وجدانية تحمل بيـن طياتها لمسة عتاب رقيقة وهمسة نصح لطيفة لنفسه وللآخرين والمقـال يتمتـع بحيوية العرض ووضوح العبارات ومصداقية المعانى وقربها للنفوس .

وينتهد كاتبنا تنهد الرجاء وينبض قلبه نبض الحيرة فالحياة أمامه متقلبة تجبر الإنسان على الإفراط فى الأحزان وتجرع الهموم فشمسها تبعث حـرارة الألم وقمرها يثير فى النفس هواجس الوداع ومن هذه الأحاسيس القاتمة كتـب محمد الأسمر مقاله (شروق وغروب) :

---

(١) مع المجتمع ص ٣٧

(ذهبت إلى الأسكندرية لاستقبل هناك أول يوم من أيام الربيع وهو المعروف فى مصر بيوم (شم النسيم) .

وفتحت نافذة غرفتى بالفندق ورحت أطيل النظر إلى البحر ورأيت الشمس تجنح للغروب وكأنى لم أر الشمس قبل ذلك وهى تجنح للغروب فقد بدا لى فى هذا اليوم أنها لا تغرب فى كل يوم إلا لتقول لنا بلسان غروبها :

أيها الناس كل شيء للغروب !! فلا يلهينكم الشروق عن الغروب للدول شروق وغروب وللملوك شروق وغروب وللحاكمين شروق وغروب وللجاه شروق وغروب وللمال شروق وغروب وللشباب شروق وغروب وللصحة شروق وغروب وللجمال شروق وغروب ولكل شيء فى الحياة شروق وغروب .

(يا أحفادى : الأرض بنتى وأنتم أولاد بنتى ، ولا تجدون جدة دائبة على نصح أحفادها مثلى فأنا من يوم أن كنت أهمس فى أذنكم كل يوم وأقول لكم بلسان غروبى فى كل يوم : كل شيء للغروب ، فلا يلهينكم الشروق عن الغروب) .

كتب المنشيء مقاله فى لحظات نفسيه باكية ترثى الواقع الأليم الذى يحاول الإنسان تناسى حدوده الزمانية والمكانية فقد هرب كاتبنا من مكان يذكره بالواقع المر إلى مكان آخر يجدد فيه وجوده ليعيش فى وهم الوجود الأخضر السعيد والمتأمل لصياغة محمد الأسمر يجد أن ملامح التجربة تتحدث عن طبيعة نفسها فتبين نظرته للحياة فالصورة (ورحت أطيل النظر إلى البحر ورأيت الشمس تجنح للغروب وكأنى لم أر الشمس قبل ذلك وهى تجنح للغروب فقد بدأ لى فى هذا اليوم أنها لا تغرب فى كل يوم إلا لتقول لنا

بلسان غروبها أيها الناس كل شيء للغروب فلا يلهينكم الشروق عن الغروب...) .

من يتذوق الصور السابقة يدرك أن أشكالها توحي بظلال قاتمة الوجدان تشعر بأن الفناء يدق لها ناقوس النهاية كما توحي للإنسان منذ ميلاده بإن الغروب واقعه فالعبارة (أطيل النظر إلى البحر) توحي بمساحتها الصوتية وما لها من إيحاء شكلي استغراق المنشيء في تأمل واقعي مشوب بحسرة جسدتها عبارة (تجنح للغروب) التي تعلن بدورها واقع قدوم التلاشي الذي يعقبه الفناء وفي العبارة بكاء للنفس الإنسانية وأنين عليها .

ويسترسل الكاتب في تسجيل أحاسيسه التي ترجمها قوله (كل شيء لغروب) وكأنه يحذر نفسه وغيره من الانخداع بزخرف الدنيا ويواسي محمد الأسمر نفسه بأن الغروب سنة الحياة ويتجلى ذلك في شروق الدول وغروبها وشروق الجاه وغروبه وشروق الجمال وغروبه وهكذا كل شيء في الحياة ويبكي المنشيء الواقع ويتنهد بحسرة وألم يزرف دموع الوداع (لكل شيء في الحياة شروق وغروب) والمتأمل للصورة السايقة يشعر أن لحرف الواو دلالة نفسية عميقة فقوله (شروق وغروب) يوحي بأن الغروب يلازم الشروق ويصاحبه بمعنى أن مرحلة الشروق قصيرة لا يترك الغروب للإنسان فيها متعة البهجة بل يدق ناقوسه باستمرار في ومضة الشروق وكأنه هو أصل الحياة حيث يغزل الغروب خيوطه بلهفة ليتربع على عرش الواقع وقد أوحى التعبير (إنها لا تغرب إلا لتقول لنا بلسان غروبها) رغبة الغروب في تجرعنا مرارة الحرمان من البهجة ولعل الجر والمجرور (بلسان) يبين فرحة الغروب في الانتصار على الشروق .

وقد أجاد الكاتب في صورته :

(يا أحفادى : الأرض بنتى وأنتم أولاد بنتى ولا تجدون جدة دائبة على مسح أحفادها مثلى فأنا من يوم أن كنت أهمس فى أذنكم كل يوم وأقول لكم بلسان غروبى فى كل يوم : كل شىء للغروب فلا يلهينكم الشروق عن الغروب) .

لقد راعنى من كاتبنا تجسيده للحياة وبث المشاعر والأحاسيس فيها حيث جعلها تنادى الإنسان محذرة له من الانخداع بزخرف الدنيا حينما صور الحياة بالجدة والأرض بالأبنة والبشر بالأحفاد ليبين شدة الترابط وعمق الصلة بين الحياة والأرض والإنسان وأن القانون الذى ينظم العلاقة بينهم الشروق والغروب يجد المتلقى أن كاتبنا عاش بصدق مع كلمات وصور مقاله الذى نبع من وحى حياة الإنسان التى تخضع للشروق الغروب ويشعر المتلقى إيمان الأسمر بما سجله من أفكار أكده تكراره للألفاظ والعبارات الآتية (الشروق - الغروب بلسان غروبها - فلا يلهينكم - بلسان غروبى - كل شىء لغروب).

والمقال يتمتع بجمال الإبداع وروعة التصوير وصدق الانفعالات مع سهولة الألفاظ والأساليب .

ويمضى كاتبنا بدهشة وعجب يصور درجة إقبال الناس على الحياة وشغفهم بها وكأنها الشروق الدائم ويتجلى ذلك بوضوح فى الأحياء الشعبية التى ينتشر فيها (زحام وزعيق وضجيج) وهو عنوان المقال الذى عقب به كاتبنا بعد المقال الاجتماعى الوجدانى التأملى (شروق وغروب) ومقال زحام وزعيق وضجيج مقال اجتماعى وصفى رسم فيه المنشىء بحيوية ما يحدث من أشكال وهيئات وأصوات ومناظر بالأحياء الشعبية قال (ملخص الحياة فى الأحياء الشعبية أنها (زحام وزعيق وضجيج) وإن شئت قلت وقذراة !!

ويتبع الأحياء الشعبية فى هذا كل ما يخص الوطنيين فى شئون الحياة فالمنازل تضيق بسكانها والطرقات مملوءة بالباعة المتجولين وصياحهم على سلعهم التى يبيعونها وبالأطفال الذين يصيحون ويصرخون وبالدكاكين المبثوثة بين المنازل للنجارين والحدادين وأمثال النجارين والحدادين حتى دكاكين الحلاقين الذين لا صوت لعملهم يجلجل فيها الراديو بصوته المزعج فيطغى على أصوات دق المسامير ونشر المناشير ومطارق الحدادين .

وهذا الزحام وهذه الضوضاء تراها فى الأسواق وتراها فى القطارات وتراها فى الأتوبيسات وتراها فى الترام حتى كأن الأرض أخرجت أثقالها وحتى كأننا فى زحام يوم القيامة وأهوالها ..... لا راحة فى النهار ولا راحة فى الليل ولا رقابة على أحد ولا تنفيذ للقوانين وهنا وهنالك ترى قشر القصب وقشر البرتقال وشواش الجزر وغير ذلك وغير ذلك من مخلفات الآكلين والشاربين !!

ونحن فى أحاديثنا العادية يخيل إليك أننا نتشاجر حتى فى المجاملات نرفع أصواتنا كمن يهدد ويتوعد فمثلاً إذا أراد صديق أن يدفع لصديق ثمن تذكرة الترام أو ثمن مشروب على قهوة من المقاهى وجدت يد الصديق تمتد إلى (الكمسارى) أو (الجرسون) بالنقود فتمتد يد الصديق الآخر إلى (الكمسارى) أو (الجرسون) وهذا يصبح (عيب يا أخى) وذلك يصبح (اختشى يا أخى) ويظل الكمسارى أو الجرسون فى حيرة بين هذا وذاك هذا يقول لا (والله) وذاك يقول لا (والله) إلى أن يأذن الله فتنتهى هذه المجاملة الصاخبة (ويدفع) أحد الصديقين وبائع الصحف يكون بجانبك فى الطريق أو يصعد الأتوبيس او الترام وأنت ترى الصحف فى يده وهو مع ذلك يصبح بأقصى ما عنده من قوة الصوت (الأهرام) (الأخبار)

(الجمهورية) وأحياناً بالصحيفة حتى تكاد تلمس وجهك وهو يصيح صياحة المتواصل : الأهرام الأخبار الجمهورية ... (اقرأ يا جدع) (الحادثة يا جدع) وكذلك الباعة المتجولين يفعلون وهم ينادون على سلعهم بالطرقات أو الأتوبيسات أو بالترام ما يفعله باعة الصحف وأكثر مما يفعله باعة الصحف .

ولقد شاهدت مرة شحصاً واقفاً بالترام ومعه (وابور جاز) والع وهو ينادى ويقول (إبر وابور الجاز كدا تسليك كدا توليع) وهو يطفىء الوابور ثم يوقده بين الراكبين فيغمرهم بصياحه ودوشة الوابور ورائحة غاز الوابور متى تكثر المساكن فى الأحياء الشعبية حتى تتناسب مع عدد الساكنين ؟ ومتى تكثر أدوات المواصلات حتى تتناسب مع عدد الراكبين ؟ ومتى نقلع عن الصياح والزعيق ؟ ومتى يبتعد عن المنازل ما يحيط بها من ضجيج ؟!(١)

المقال السابق اجتماعى نقدى ساخر صور فيه المنشىء بجلاء حياة طبقة من طبقات الشعب المصرى وهى طبقة الأحياء الشعبية المصرية ويتسم المقال بوضوح ملامح الصورة ملامح الصورة التى جسدت بمهارة فنية أشكال أصحاب المهن وطبيعة سلوكياتهم كما نطقت الصورة بطبيعة الأصوات وقد تغلغل المقال بذكاء داخل إطار طبيعة المجاملات فى الأحياء الشعبية فبين بدقة كيفيتها وطبيعتها بتجسيد الحركة وإبراز ملامح الصوت (ونحن فى أحاديثنا العادية يخيل إليك أننا نتشاجر حتى فى المجاملات ترفع أصواتنا كمن يهدد ويتوعد) فمثلاً إذا أراد أن يدفع لصديق ثمن تذكرة ترام أو ثمن مشروب على قهوة من المقاهى وجدت يد الصديق تمتد إلى (الكمسارى) أو(الجرسون) بالنقود فتمتد يد الصديق الآخر إلى (الكمسارى) أو (الجرسون) وهذا يصبح (عيب) وذلك يصبح (اختشى يا أخى) .

---

(١) مع المجتمع ص ٣٩ : ٤٠ .

فالمتذوق الكريم يستطيع من خلال الصورة السابقة تجسيد الأشكال والأصوات فالعبارات (نتشاجر - نرفع أصواتنا - تمتد) تعكس بجلاء الأشكال والهيئات والحركات .

والمتلقى للمقال السابق فى عصرنا الآن يشعر بأن محمد الأسمر كاتب الأزهر سجل برؤيته نظرة مستقبلية للواقع الشعبى الذى نعيش فيه نحن ولعل دعوته ببناء المساكن والاهتمام بتنسيقها مع عدد السكان وعزل الأعمال المهنية عن الأماكن السكينة لتحقيق الهدوء وتوفير سبل المواصلات دعوة حضارية تهدف إلى النهوض بمصر وتبدأ بالتخطيط الواعى والتنظيم الدقيق لجميع أجهزة الدولة فمصر دائماً الأم الواعية التى تقتدى بها الدول العربية والإسلامية ولهذا يجب الاهتمام بعناصر تكوينها وقد أمعن الأسمر فى دعوته لدرجة دفعته إلى الأهتمام بترقية الذوق حتى تتسم بالمدنية وذلك فى قوله (ومتى نقلع عن الصياح والزعيق ؟ ومتى يبتعد عن المنازل ما يحيط بها من ضجيج) ومن الجدير بالذكر أن الضجيج يصيب الإنسان بالاضطراب العصبى فيعجز عن العطاء الحضارى .

والمتأمل لخطة الدولة الآن وخاصة فيما يخص إعداد المناطق السكينة واهتمامها بعزل المهن وتجهيز المدن الخاصة لأصحابها يشعر ببعد رؤية محمد الأسمر وذكاء دعوته ووعى كلماته ويستمر كاتبنا فى رفض عادات تظهر بوضوح فى الأحياء الشعبية فقد عالج فكرته فى مقال أطلق عليه (كراكيب) بين فيه تمسك بعض المصرين بالأشياء القديمة المهملة وقال فيه (الكراكيب) فى عرف المصريين الأشياء القديمة المهملة وقد تنحط هذه الكراكيب إلى علب السردين الفارغة .... ولا أدرى إن كان الاحتفاظ بهذه الكراكيب نوعاً من أنواع الوفاء أو نوعاً من أنواع البخل ؟ مسألة محيرة حقاً!

فلى أصدقاء أعرف فيهم الوفاء ولكنهم لا يحتفظون بهذه الكراكيب ولى أصدقاء كرماء وهم يحتفظون بهذه الكراكيب .... وكراكيب الدنيا كثيرة فبعض الناس كراكيب لا فائدة لهم إلا شغل وقتك وإضاعته فيما ليس يجدى وبعض الناس معرفتهم هم ونكد متواصل وهؤلاء كراكيب من العقل يجب أن نتلخص منها وبعض أفعالنا التى تخجل أن يعرفها الناس عنا كراكيب من العقل ..... وبعض ما فى صدورنا من بغض وحقد وحسد وما شاكل ذلك كراكيب من العقل أن نتخلص منها .

فهل تصغى الناس إلى العقل وتتخلص من الكراكيب ؟! أو ستظل الحرب باقية - ما بقى الزمان - بين العقل وبين هذه الكراكيب ؟!(١)

المقال السابق دعوة واضحة للتخلص من الصفات النفسية القبيحة مثل الحسد والحقد والبغض كما أنه دعوة لشغل الفكر بما يهذب الوجدان والسلوك.

والمتذوق لفكرة المنشىء يدرك واقعيتها بالنسبة لبعض الطبقات وخاصة فى الأحياء الشعبية وينتقل كاتبنا بعد كراكيب لتسجيل فكرة أخرى أطلق على مقالها اسم (الباقى من الزمن) تناول فيها الأعباء النفسية والاجتماعية وخطرها على الإنسان ذكر فى هذا المقال ما يلى :

(زرت صديقاً لى كان من زملائى أيام الدراسة فوجدته غاضباً فسألته عن سبب غضبه فلما أخبرنى به وجدته سبباً تافهاً لا يستحق هذا الغضب الذى رأيته من الصديق ومازلت ألاطفه حتى هدأ ثم داعبته حتى ضحك .

بعد ذلك تحدثنا أحاديث مختلفة ثم قلت له كم سنك الآن ؟ فقال خمسة وخمسون عاماً ، فقلت له هل تذكر حينما تدخل غرفة الامتحان ثم يوزع علينا

---

(١) مع المجتمع ص ٤١ .

ورق الإجابة ثم توزع علينا الأسئلة ثم نعكف على كتابة الأجوبة ثم نسمع المراقب وهو يقول الباقى من الزمن ساعة الباقى من الزمن نصف ساعة !! الباقى من الزمن ربع ساعة !! الباقى من الزمن دقيقتان !! فقال أذكر ذلك فقلت ألا تذكر أيضاً أننا كنا كلما قلت المدة الباقية من الزمن اختصرنا الكتابة فى الإجابة وراعينا المدة الباقية حتى لا يضيع الوقت فى كتابة أشياء كتابة غيرها أولى فقال أذكر ذلك .... فقلت له يا صديقى - بارك الله فى عمرك أنت الآن فى الخامسة والخمسين وليس فى الزمن متسع للغضب المتواصل فاختصر الهموم كما كنا فى الامتحان نختصر الإجابة إذا ضاق الوقت .

هموم الحياة كثيرة فلا تلتفت إليها وإذا أحسست من نفسك أنك ستغضب فتذكر الامتحان وتذكر مراقب الامتحان وهو يقول بصوته الرهيب ..... الباقى من الزمن نصف ساعة ... الباقى من الزمن ربع ساعة ... الباقى من الزمن دقيقتان(١) .

يتناول المقال بسلاسة ووضوح كيفية التخلص من الأحزان والهموم وكيفية القضاء على الآلام حيث تناول كاتبنا هذه الفكرة بإسلوب خفيف يذكر المتلقى بجمال مواقف ماضية تغرس فى نفسه البسمة أدرك المنشيء أثرها بحسه المرهف فخفف بها العناء عن نفس صديقه الذىبلغ الخامسة والخمسين.

وقد أجاد كاتبنا عند ربط بين مرور وقت الامتحان ومرور العمر وأبدع حينما صور هيئة الشيب تصرخ كصرخة مراقب الامتحان بصوت نبرته الوحشة ورنينه الغربة وصيحته تعلن بقرب النهاية وتلاشى الروح والجسد .

وبمقال (الباقى من الزمن) يسدل الستار على مقالات من وحى الحياة التى تمثل الثمرة الأولى لكتاب مع المجتمع ليفتح على مقالات من وحى الحرب .

---

(١) مع المجتمع ص ٤٢ .

من وحى الحرب

بعد أن قطف البحث ثمار مقالات (من وحى الحياة) يقف على باب نغمات اجتماعية أخلاقية وجدانية وطنية تحت عنوان (من وحى الحرب) وتضم هذه النغمات النبرات الآتية :

- وحش الوحوش
- وعلى الأرض السلام
- حياة الظلام
- لباس الميدان
- أخلاق أسير
- الحداد والحديد

أما مقال (وحش الوحوش) فقد صور الكاتب فيه طبيعة العلاقات الإنسانية قال فيها :

(الأسد له مكانته الافتراسية بين سباع البر والنسر له مكانته الافتراسية بين سباع الجو وكلب البحر له مكانته الافتراسية بين سباع البحر .

هل سمعنا عن هذه الوحوش الكواسر أن أسداً افترس أسداً أو أن نسراً التهم نسراً أو كلباً من كلاب البحر التقم آخر .

معاذ الله أن نكون رأينا شيئ من ذلك أو سمعنا به فمهما تبلغ وحشية هذه الضوارى من التوحش فهى بطبعها بعيدة عن أن تغتال حياة أمثالها وهى لو حاولت ذلك لما استطاعت إليه سبيلا ولما طاوعتها مخالبها وأظافرها أما الإنسان العاقل الذى بعث الله إليه الرسل وأكرمه بالعلم والفنون هذا الإنسان فى القارة الأوربية مهد حضارة العصر الأخير ومأوى المسيحية الفسيح هذا الإنسان العاقل المتدين المتمدين يأكل أخاه الأوربى وغير الأوربى يأكله أكلاً لما فلا يغادر منه شيئاً .

أيها الإنسان أيها العاقل المتدين المتمدين إذا قابلت أسداً أو نسراً أو كلباً من كلاب البحر أو حتى ثعباناً من الثعابين وأردت أن تقوم بالواجب فتوار خزياً أو خجلاً لست فى الحقيقة أيها الإنسان إنساناً ولكنك وحش الوحوش ! ما أقسى هذه الأفئدة الآدمية وما أصدق قول الله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١) .

يبكى كاتبنا فى مقال (وحش الوحوش) العلاقات الإنسانية التى أصبحت دامية العواطف ملوثة السلوك فقد أصبحت علاقات طرحت قانون الله الذى فضل الإنسان على كثير من مخلوقاته وهذا التفضيل يلزم الإنسان بالسمو والنبل حتى يصبح جديراً بهذا التشريف .

ويبكى محمد الأسمر بكاء الحسرة والألم فيبين أن الحيوانات المفترسة الضارية تلتزم بقانون الافتراس حتى تحافظ على كيان أمثالها ويتعجب كاتبنا من سلوك الإنسان وتمسك المخلوقات المفترسة بالمنهج الذى يحافظ على وجودها :

(هل سمعنا عن هذه الوحوش أن أسداً افترس أسداً أو أن نسراً التهم نسراً أو كلباً من كلاب البحر التقم كلباً آخر ؟ معاذ الله .... أما الإنسان العاقل الذى بعث الله إليه الرسل وأكرمه بالعلم والفنون ... يأكل أخاه .... فلا يغادر منه شيئاً) .

والصورة باكية ترفض مذهب الإنسان فى علاقته بأخيه فى عالم الإنسانية وقد تجلى الرفض فى عبارات الكاتب (الإنسان العاقل - أكرمه

(١) مع المجتمع ص٤٥ .

بالعلم والفنون – المتدين المتمدين) وكأن كاتبنا يصرخ لماذا يهدر الإنسان نعمة العقل التى تنظم سلوكياته ؟ ، لماذا يهدر نعمة العلم والفنون التى تهذب أحاسيسه ؟ لماذا يهدر نعمة التدين التى شرفه بها الله وأعز بها قدره ؟ ، لماذا جحد نعم ربه .

وقد أجاد كاتبنا عندما صور سلوك المخلوقات المفترسة بالصور (افترس – التهم – التقم) التى توحى بكيفية القضاء على الخصم الذى ينتمى لجنس آخر فالأسد يفترس ، والنسر يلتهم والكلب يلتقم وهذه الصور الدامية صرخة عتاب ورفض للإنسان الذى جمع فى سلوكياته بين الافتراس والالتهام والالتقام لأنه ينصب الفخ لأبناء جنسه وكأن الأسمر رفع من شأن الحيوانات المفترسة ويحقر سلوك الإنسان الدموى الغادر .

ولعل تكرار كاتبنا (أيها الإنسان أيها الإنسان العاقل المتدين المتمدين) يدل على السخرية الباكية لما وصل إليه عالم الإنسان من تدهور سلوكى ووجدانى ويمعن الأسمر فى سخريته فيقول :

(إذا قابلت أسداً أو نسراً أو كلباً من كلاب البحر أو حتى ثعباناً من الثعابين وأردت أن تقوم بالواجب فتوار خزياً وخجلاً ... لست فى الحقيقة أيها الإنسان إنساناً ولكنك وحش الوحوش !!) والصورة توحى بالسخرية الباكية التى يشوبها الإزدراء والتحقير الذى برزت ملامحه فى (فتوار خزياً وخجلاً.. وحش الوحوش) وهل أدل على تحقيره من مقولته (إذا أردت أن تقوم بالواجب) فجعل سلوك الهمجية لدى الإنسان طبيعى يقوم به كأنه واجبه أما مقولته فتوار خزياً وخجلاً – إيحاء بدرجة خسة السلوك الإنسانى وضعته أما وحش الوحوش فقد نشر الإيحاء الصوتى لحرف الشين تفشى روح العداء السافر مع تمكن طباع الأسود والنسور وكلاب البحر من الإنسان إلا أن هذه

المخلوقات تلتزم بمنهج المحافظة على كيان أمثالها أما الإنسان فلا التزام له وفى هذا الإيحاء ذروة المرارة والحسرة وقد ختم الكاتب مقالته بالقرآن الكريم وكأنه يواسى نفسه ونفوس الشرفاء فقد أخذ من قول الحق ما يشجع به نفسه :

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١) .

إن الله تعالى أنعم على الإنسان بالعقل والإسلام حتى يصبح سامياً نبيلاً شريفاً مكرماً ولكنه أهمل منهج ربه فصارت حياته خصومه وحشية .

والمقال بكاء ساخر ونداء لصحوة إنسانية أخلاقية إسلامية صوره الكاتب بكلمات صادقة ورنين معبر عن الرفض لحياة التوحش مع قدرة على توظيف الصورة على الأداء المعنوى والاجتماعى الجيد ويستمر كاتبنا فى مقالاته المعبرة فكتب (وعلى الأرض السلام) وكأنه لم يشبع عواطفه عبر مقال (وحش الوحوش) فسطر كلماته التى توحى باحتدام الخصومة بين الأمم الإنسانية وما هذا إلا لخروجها عن منهج الله جل علاه ومن مقال (وعلى الأرض السلام) : (أية قارة من قارات الدنيا ليس بها خصام وأية مملكة من ممالك العالم ليس بها خصام وأى قطر ليس به خصام وأى حزب ليس به خصام وأى منزل ليس به خصام وأى رجل ليس بينه وبين نفسه خصام ؟

يقول الله تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ ولكنا نأبى إلا أن نكون شعوباً وقبائل لتتحارب . ومنحنا الله العقل لنستخدمه فيما ينفع ولكنا نأبى إلا أن نستخدمه فيما يضر وأمرنا أن نتحد ونتعاون ولكنا نأبى إلا أن

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٤

نتفرق ونتعادى وحبب إلينا الإخلاص والنصيحة ولكنا حببنا إلى نفوسنا النفاق والخداع وأقام حياة المنزل على الاطمئنان والمودة والرحمة وأقمناها على الاضطراب والبغضاء والقسوة وأعطى كل نفس حياتها لترضى ولكن النفوس تأبى إلا الطغيان والكفران .

فالقارات صاخبة والممالك متحاربة ، وكل قطر متفرق منقسم وأبناء المنزل الواحد يحيون حياة الأفاعى والنفس الواحدة ثائرة على ذاتها مضطربة فى لج أطماعها ولئيم طباعها .... فى أى قرن عرفت الأرض السلام فى أى يوم عرفت الأرض السلام فى أى ساعة عرفت الأرض السلام ؟!

قال الله تعالى للملائكة قبل أن يخلق آدم ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

وخلق الله آدم لحكمة يعلمها هو ولم يصل إليها علم الملائكة وظهر الفساد ، وسفكت الدماء ، فقتل قابيل هابيل ومن يومها إلى اليوم وإلى آخر يوم من أيام الدنيا لا تخلو بقعة من بقاع الأرض من قابيل وهابيل بل من ألف قابيل وألف هابيل .

متى يجىء اليوم الذى نقول فيه بمنطق الواقع لا بمنطق التمنى ﴿وعلى الأرض السلام ﴾(١) ؟!

يكشف المقال عن أنين نفسى وجرح وجدانى لما نزل بالدنيا من خصام وحروب مدمرة نشرت بين الناس القسوة والبغض والحقد ويبين الكاتب أن الله جل علاه خلق الحياة الدنيا على أساس من الخير بين الناس ولكنهم أسسوا

---

(١) مع المجتمع ص٤٦ .

حياتهم الدنيا على خلاف منهج ربهم ويعلن كاتبنا أن مخالفة المنهج الربانى نجم عنها تفشى الحروب بين الأمم والشعوب والقبائل بل وبين أبناء المنزل الواحد ويمعن المنشىء فى بيان أثر مخالفة منهج لله فبين أن النفس أصبحت ثائرة على ذاتها مضطربة فى لج أطماعها ولئيم طباعها وأصبح قلب الدنيا ينبض بالخصومة .

شهيق أحاسيسها الفتن وزفيرها الحروب التى تحكمت فى قانون العلاقة بين البشر حتى أصبحت الحروب سنة الحياة الدنيا ولهذا صرح الكاتب بقوله (فى أى قرن عرفت الأرض السلام فى أى عام عرفت الأرض السلام فى أى يوم عرفت الأرض السلام فى أية ساعة عرفت الأرض السلام ؟ !) .

لقد عاش محمد الأسمر بمقاله الماضى كما عاش حاضره ونسج من خيوطهما رؤيته لمستقبل نارى مدمر يتفنن فى كيفية قضاء بعضه على بعض حتى تتلاشى جنس البشرية وقد أبدع المنشىء حينما ختم المقال بقوله : [متى يجىء اليوم الذى نقول فيه بمنطق الواقع لا بمنطق التمنى (على الأرض السلام)] .

والسلام أمنية جميلة راقية تثمر الحب الذى ينشر أجنحته الخضراء ليضم الدنيا فى عالم يفوح بسحر الأمان والرضا ونحن أبناء الأزهر الشريف نغرد بأمنية ابن الأزهر محمد الأسمر ونناشد الدنيا التمسك بدعوته النبيلة التى تمثل منهج الله وقانونه الذى يهدف إلى سعادة البشرية ورقيها ففى السلام نفحة ربانية تستمد نورها من الله لأن منه سبحانه السلام واسمه تبارك وتعالى السلام ولهذا علينا الالتزام بمنهجه جل علاه حتى ننعم برضوانه وبركاته ومنها السلام .

والمقال تمتع بالصدق العاطفى والقوة التعبيرية والحيوية الفياضة التى نبعت من واقعية الأفكار ودقة تناولها ومهارة عرضها لقد أضفى السلام روح العطاء ومشاعر التجدد على المقال حتى أصبح المقال نفحة حية تترنم بنور السلام ومن أنوار السلام سجل كاتبنا كلماته عن الغارات الجوية بين فيها أهوالها الوجدانية وما ينتاب النفس من ضباب الأحزان فى مقال بعنوان (حياة الظلام) قال فيه [رأيت أن أجول بالقاهرة فى ليالى تجارب الغارات الجوية وصادفنى فى هذه الجولات الليلية الحالكة ما يأتى] :

أولاً : ركبت الترام كنت أظن أن به أحداً ولكن كان به ثلاثة أشخاص تبينتهم بعد قليل وظل الترام يسير بى فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وأنا أظن أن زملائى الجالسين لا يزالون معى ولكنى حين أردت النزول من الترام تبينت أنهم انصرفوا وأنا لا أشعر .

ثانياً : كان يخيل إلىّ أن أمامى شيئاً من الأشياء حيث لا شىء أمامى كما كان يخيل إلى أنه لا شىء أمامى حيث يكون أمامى عمود طويل أو شجرة ضخمة هذه بعض شؤون حياة الظلام التى صادفتها فى ليالى القاهرة أثناء تجارب الغارات الجوية وكانت المصابيح تبدو فى زجاجها الملون باللون الأزرق غير متمكنة من تبديد الظلام كالحق الذى يحال بينه وبين تبديد الباطل وكانت السيارات والعربات تسير حذره مضطربة أما الترام فقد كان يسلك سبيله لا يلوى على شىء غير متردد وغير حذر لأن له طريقاً واحداً رسمه لنفسه وخطة ثابتة لا يحيد عنها فى الظلام وغير الظلام . ولهذا سار فى الدياجير مطمئناً لا يتوقف ولا يتحير ولا يتعرج إلى هذه الناحية تارة وإلى تلك الناحية تارة أخرى وإذا كان قد حبب إلى أن أحيا حياة الظلام بضع ليال فإن هناك من الناس من حيا هذه الحياة طول عمره ولو أخذنا بيده إلى حياة النور

لأغمض عينيه أمام الشعاع هؤلاء الذين يعيشون عيشة الخفافيش ويحيون حياة الظلام يخطئون كثيراً ولا يفهمون ما يحيط بهم فقد يظنون أن الناس معهم والناس منصرفون عنهم ويحسبون العدو صديقاً والصديق عدواً ويظنون الجمال قبحاً والقبح جمالاً ويتوهمون شيئاً كائناً وهو غير كائن أو العكس حياة الظلام حياة مضطربة خاطئة ترى غير الواقع واقعاً وترى الواقع غير واقع!!

(أيها الناس حياة النور هى حياة الأمن والهدى فاخرجوا من الظلمات إلى النور تخرجوا من الاضطراب إلى الاطمئنان والصواب ويهدى الله لنوره من يشاء)(١) .

يدرك المتذوق الذى يتعايش مع مقال (حياة الظلام) أن الكاتب لم يفرغ طاقته كاملة عبر مقال (وعلى الأرض السلام) وأن أنينه تحول لصرخات مكتومة تنادى السلام وتهفو إلى الأمن وتتمنى الأمان وقد صور الكاتب من خلال (حياة الظلام) الحالة النفسية التى حطمت جدار الأمل وقطفت ثمار الألفة حتى أصبح أبناء مصر يسبحون فى بحار الحيرة والقلق والاضطراب وهل أدل على ذلك من موقف الترام الذى قصه كاتبنا وبين فيه ما حل بالمصريين من شعور بالغربة والوحدة وقد عبر عن ذلك من خلال شخصه كرمز لكل مصرى ويفصح الكاتب عن خيوط الاضطرابات التى نسجت ثوباً من الأحزان التحف به الشعب المصرى الطيب الذى استسلم لحياة الغارات الجوية التى تمثل حياة الظلام ويفلسف الأسمر حياة الظلام قائلاً :

[وإذا كان قد حبب إلى أن أحيا حياة الظلام بضع ليال فإن هناك من الناس من يحيا هذه الحياة طول عمره ولو أخذنا بيده إلى حياة النور لأغمض عينيه أمام الشعاع] .

(١) مع المجتمع ص٤٨ ، ٤٩ .

والصورة تسخر من أصحاب النفوس المظلمة التي تعيش في ظلمات متراكمة ترفض النور وترفض الخير لأنها ترفض الجمال ومرجع ذلك أنها تنبض في قلوب خبيثة وأرواح شريرة ولعل المنشيء يسخر من بعض الذين تحكموا في حياة الشعب المصري الأصيل وسيطروا عليه من وحي معتقداتهم الشخصية المظلمة ورفضوا النصح الذي يهدي إلى النور ويحقق الأمان الوجداني والاطمئنان القلبي لشعب مصر ويصيح الأسمر صيحة الرفض لحياة الظلام قائلاً (حياة الظلام حياة مضطربة خاطئة ترى غير الواقع واقعاً وترى الواقع غير واقع) وتحمل صيحات كاتبنا نبرات الرفض لمرضى القلوب المظلمة التي تريد نشر ظلامها وظلمها بين أبناء مصر .

وينادي المنشيء أحباب مصر قائلاً :(أيها الناس حياة النور هي حياة الأمن والهدى فاخرجوا من الظلمات إلى النور تخرجوا من الاضطراب والخطأ إلى الاطمئنان والصواب ويهدي الله لنوره من يشاء) .

بين الكاتب أن حياة النور هي حياة السلام والأمن والهدى والاستقرار وقد أبدع الكاتب في مقولته ﴿ ويهدي الله لنوره من يشاء ﴾ والمراد أن النفوس النقية إذا رغبت في الهداية فإن الله معها يهدي لها السبل فإذا قدم الإنسان مشيئة الخير فإن الله سيكون في عونه يسدد خطاه وينير له الطريق والمقولة نداء صادق لتنمية الإرادة وغرس ثمار الهدى والأمن حتى تشرق في سماء مصر حياة النور .

والمتلقي للمقال يدرك تمتع الكاتب بروح إيمانية وروح وطنية منحت المقال حيوية متدفقة وخلود أدبي وقد اتسم المقال بعبارات واضحة وصور موحية وسحر تعبيري يشعر المتلقي بأن خيوط المقال نسجت في الأعوام القليلة الماضية وكأن كاتبنا سطرها بإحساسنا وخواطرنا وعيوننا كيف لا وهو

كاتب مصرى أصيل وأزهرى متميز متفتح البصيرة ذكى النظرة مرهف الحس ثاقب النظرة المستقبلية وقد تجلى ذلك فى مقاله(لباس الميدان) الذى رسم فيه هيئة غلمان انفعلوا بحياة الحروب قال فيه :

[فى ناحية من نواحى بولاق ذلك الحى الوطنى بالقاهر وفى حارة متغلغلة فى هذا الحى جلست على مشرب بسيط انتظر صديقاً لى . وبينا أنا فى فى انتظار الصديق مرت أمامى شرذمة من الأطفال يقدمها طفل معلق صفيحة قديمة فى رقبته وقد أخذت مكانها على بطنه وهو ينقرها بعصوين يديه نقرا يقلد به نقر (المارشات) العسكرية وأما بقية الشرذمة فقد كان لباسها ما يأتى فى اليد خشبة مستطيلة وفى الخصر حزام معلق به طبق قديم من الصاج وكوز من الصفيح وقطعة خشب صغيرة !!] .

أضحكنى كثيراً هذا المنظر وسرنى وقد تحايلت على رئيس الفرقة واستطعت بعد ما توددت إليه بثلاث زجاجات من الكازوزة شربتها الفرقة الواقفة كل اثنين أو ثلاثة يشتركون فى زجاجة أقول استطعت أن أظفر منه بالبيانات الآتية : فالخشبة المستطيلة هى السيف والطبق الصاج هو القبعة الفولاذية التى تقى رءوس أعضاء الفرقة رصاص بنادق الأعداء !

والكوز الصفيح هو القناع الواقى من الغازات الخانقة وأما القطعة الخشبية الصغيرة فهى مسدس الميدان ..

قلت لرئيس الفرقة بعد هذه البيانات : ألم يكن أولى من حملكم هذا السيف حملكم البندقية ذات الطلقات المتعددة البعيدة المرمى ؟ ففكر قليلاً ثم قال فى لهجة جدية : بعدين ! بعدين بقى .. ! ثم ألقى الأمر على الفرقة بالمسير فنقر صاحبنا صفيحته وتوارت الجنود .

قلت إن هذا المنظر أضحكنى وسرنى .

أما أنه أضحكنى فلأن هذه الحركات التقليدية التى يقوم بها الأطفال يمثلون بها دور الكبار مملوءة بالمفارقات التى تبعث على الكثير من الضحك.

وأما أنه سرنى فلأنه طمأننى على الروح العسكرية الكامنة فى طيات هذه الأمة الكريمة تلك الروح التى لم تستطع صولة المغيرين والمستعمرين من شتى الأمم ، وشتى الملل والنحل أن تستنزفها من منابعها أو تستأصلها من جذورها لقد علمت الدنيا أنها قذفت مصر بالهكسوس وبالاشوريين وبالفرس وباليونان وبالرومان وبغيرهم وغيرهم ومع ذلك فقد بقيت مصر ياقوتة الأهوال وذهب الحوادث تتوهج ولا تحترق وتتغير ولا تصدأ يتجلى فى هذه الشرذمة التى حدثتكم حديثها وفى غيرهم من الأطفال الذين يقسمون نفوسهم قسمين متحاربين ثم يتراشقون بالحصى والجلاميد وقد يحمى وطيس هذه المعارك الصبيانية حتى يستعصى على رجال البوليس فضها وقد يصاب كثير منهم إصابات خطرة بحصى وجلاميد هؤلاء الأطفال .. ويتجلى ذلك فى عصابات الأطفال المنتسبة إلى الحارات المختلفة يتشاجرون ويغيرون ويبيتون مكايدهم ويتحالفون ويتهادنون إن أمة هؤلاء أطفالها وبلاداً هؤلاء هم عيالها لأمة وبلاد جديرة أن تنهض النهضة التى هى أهل لها وما ذلك على الله بعزيز](١) .

يتمتع المقال السابق بالروح المصرية الوطنية التى تترجم سلوكيات فلذة أكبادها ترجمة شعورية صادقة نابعة من وحى المجتمع وقد اختار الكاتب مسرح أحداث المقال فى حى من أحياء مصرنا الحبيبة يتميز بالروح الوطنية

---

(١) مع المجتمع ص٥٠ ، ٥١ .

التى تبلور شعورها الوطنى بسلوك مباشر يجسد الأحاسيس المصرية الصادقة الكامنة فى أبناء مصر ويعلن الكاتب أن الروح الوطنية العسكرية فطـرة فيهم فلم تستطع الغزوات المدمرة اغتيال الروح الوطنية .

ويستمر كاتبنا الوطنى الأصيل فى عـرض أفكاره فيبين الأهوال التى تعرضت لها مصر ويعلن أنها لم تنل منها شيئاً لأن مصر قلب الدنيـا النابض وتاج الحياة المرصع بالأمجـاد نبع الخلود وأصل اليمن فيض الخير ومهد الحضارات حصن الإسلام وراية السلام جنة الإنسان وفردوس الأمان شـرفها الحق بذكرها فى القرآن الكريم فقال جل علاه : ﴿ ادخلوا مصر إن شـاء اللـه آمنين ﴾(١) فـالتعبير القرآنـى الشـريف يبين تمتـع مـن يدخـل مصـر بـالأمن والاطمئنان والسلام ويعلن أيضاً أنها أرض البركة والطهر والرقى كما وصى بها الحبيب ﷺ فقال (أنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم بإذن الله)(٢) إن كاتبنا فى مقالة (لباس الحرب) أعلن مصريته الراقية ووطنيته الواعية وصحوته الفكرية والوجدانيـة وقد أجاد عندما وصف مصر بقوله (مصر ياقوته الأهوال) وذهب الحـوادث تتوهج ولا تحترق وتتغير ولا تصدأ) حيث أوحت الصور السابقة بما لمصـر من صفات عالية فهى أصيلة فى شرفها ثابتة فى مجدهـا تثـور ثـورة عارمـة على المعتدين مـع الاحتفـاظ بكيانهـا الإنسـانى تقبل التجـدد الحـى والتطـور الحضارى دون انحراف عن المبدأ فلولا مصر ما كـان للدنيـا بقـاء والصـورة السابقة واضحة الملامح حية العواطف استطاع كاتبنا إبراز رؤيتـه فـى إطـار تشكيلى جيد .

---

(١) سورة يوسف جزء من آية ٩٩

(٢) مجمع الزوائد الهيثمى - مطبعة القدس جـ٩ ص٦٣ ، ٦٤

وقد ختم الكاتب مقالته الوطنية الرائعة بالفخر بالمصريين وبمصر العزيزة فقال :

[إن أمة هؤلاء أطفالها وبلاداً هؤلاء هم عيالها لأمة وبلاد جديرة أن تنهض النهضة التىهى أهل لها وما ذلك على الله بعزيز] والكلمات نداء حار لصحوة اجتماعية وثقافية ووجدانية من خلال فخر بكيان مصر وأطفالها.

ومن الجدير بالذكر أن المتلقى إذا استحضر أطفال الأمة الذين افتخر بهم محمد الأسمر يجد أنهم جيل اليوم الذى حقق أمل محمد الأسمر فى النهوض بمصر فنحن نجد من خلال جميع الأجهزة الاجتماعية والثقافية والإعلامية والدينية درجة الجهود المبذولة التى تعلن فى المجال العالمى ما لمصر من منزلة حضارية ولعل مقال(**أخلاق أسير**) كشف عن أصالة المصرى وتمتعه بحسن الخلق وتميزه عن جميع أبناء الشعوب :

[فىالحرب العالمية الثانية فى محطة حلوان بمصر وصل قطار يحمل أسرى معركة من المعارك فأطل من نافذة القطار أسير من هؤلاء الأسرى يحمل بيده اليمنى قطعة من النقود ويمد يده اليسرى لبائع متجول فقير يعرض برتقالة وأشار الجندى الأسير إلى البائع الفقير فأسرع إليه ومد الجندى الأسير يده اليمنى بالنقود قابضاً عليها ويده اليسرى إلى البرتقال مفتوحة كل الفتح فلما استقر البرتقال فى يده اليسرى ضم يديه جميعاً إليه واختفى من النافذة بالبرتقال وبالنقود !

لم يكن يبدو على هذا الجندى الأسير شىء مما كان يجب أن يشعر به الجندى الأسير من مرارة الأسر . إذا فهو ليس بجندى ولم تكن معاملته لبائع البرتقال معاملة الشرفاء إذاً فهو ليس بشريف ولم يكن له ما للناس من ضمائر

تؤنبهم فيعود إلى النافذة ليمسح خطيئته إذا فهو ليس بإنسان فعل هذا الجندى ما فعله وزملاؤه يضحكون .

جنود هذه أخلاقهم كيف تكون أمتهم ؟ وأمة هذه أخلاق جنودها كيف تكون بين الأمم ؟! بئست الأمة وبئس الجنود](١) .

يوضح المقال السابق أن الأصالة الأخلاقة فطرة فى نفوس أبناء الأمة ودلالة على طيب أرضها فالأرض الطيبة تنبت بذوراً طيبة وهكذا الأمة الصالحة تخرج أجيالاً صالحة ولعل الموقف الذى سرده المنشىء عن الجندى الأسير الذى خدع البائع الفقير يبين خسنة وضعته ويدل على خسة أرضه وخبثها أما مقولة محمد الأسمر (جنود هذه أخلاقهم كيف تكن أمتهم ! وأمة هذه أخلاق جنودها كيف تكون بين الأمم ؟! بئست الأمة وبئس الجنود) فتوحى بما لمصر من مكانة شريفة وبما لأهلها من منزلة عالية وبما لجنودها من جلال وهيبة تنبثق من طهر أرضها فنعم الأمة ونعم الجنود إذا استرجع المتذوق مقال (لباس الميدان) يجد فخر الكاتب بأطفال مصر الذين يتمتعون بروح عسكرية عالية وفى مقال (أخلاق أسير) يتهكم بأخلاقيات أسرى الحرب العالمية الثانية وهو بهذا يعلن للعالم أن لمصر شموخها الاجتماعى والأخلاقى والعسكرى ومنبع ذلك أرضها الخضراء الطيبة .

والمقال ينم عن روح الاعتزاز سطره الكاتب بخواطره المخلصة وتجربته الصادقة وصوره المعبرة عن السلوك والوجدان .

ويلتقى المتذوق الكريم بعد مقال (أخلاق أسير) بمقال(الحداد والحديد) يوضح فيه أن لكل الأشياء وظيفة فى الحياة وأن لكل بيئة ظروفها

---

(١) مع المجتمع ص٥٢ .

وأن للمصرين جلالاً وعزة ترفض الذل والهوان وقد سطر هذه الأفكار عبر حوار بين الحداد والحديد يرمز إلى المحتل الغادر والتحدى المصرى :

[زعموا أن حداداً من الجبارين ألقى بمطرقته جانباً وترك ناره وكيرة وصار إلى غابة من الغابات ليروح عن نفسه .

وكانت خطى الجبار فى الغابة خطى ثقيلة الوطأة تسحق تحتها الأزاهير والأعشاب والحشرات الصغيرة الضعيفة .

وكان الجبار مغتبطاً بهذا كل الاغتباط يود لو أنه كان يمشى على السماوات بهذه الخطى فيسحق نجومها ويطمس هلالها (ويشوت) برجله شمسها .

وبينما كان الجبار غارقاً فى خيالاته وكبريائه عثرت قدمه بشىء صلب فاستيقظ من أحلامه وانحنى غاضباً يرى ما هذا الشىء الذى تجرأ فأدمى أصابع قدمه ثم تناله بيده وتأمله فإذا به قطعة من الحديد ضحك الحداد الجبار ساخراً وقال : قطعة وقحه من الحديد تقف فى سبيل الحداد الجبار ثم صاح أيتها الحديدة الويل لك أنا الحداد أنا الجبار .

فأجابته قطعة الحديد لا تتعجل أيها الحداد الجبار أنا لم أقف فى سبيلك ولكنك استبحت أن تطأ هامتى بقدمك .

فقال لها تلك جريمة أخرى أتجرئين على محاورتى لأسحقنك بيدى ثم أخذ يضغط عليها بأصابعه أنا الحداد . أنا الجبار .

فلما أدمت الحديدة أصابعه هرول بها إلى حيث المطرقة والكير والنار وظل يردد وهو يطرقها أنا الحداد أنا الجبار فتطاير الشرر منها إلى عينيه وكلما قسا فى طرقه كثر تطاير الشرر إلى وجهه وظل يقسو فى الطرق وظل الشرر يتطاير حتى شوه وجه الحداد وحتى أحرق الكير وحتى صاح جيران

الحداد الجبار كفاك أيها الحدادالجبار لقد صدعت آذاننا بمطرقتك وهذه نار كيرك المحترق تكاد تندلع ألسنتها إلى منازلنا .

وأبى الحداد الجبار أن يستمع للناس فالتقط الحديدة وقذف بها إلى فرن من أفرانه الصاهرة فلما أبصرها وهى تسيل ذائبة ضحك ضحكة الجبارين وقال لها ألم أقل لك إننى أنا الحداد أنا الجبار ؟

واضطجع بعد ذلك الحداد الجبار اضطجاع الفارغين من انتصاراتهم اللاهين بالنظر إلى فرائسهم لا تعدو عيناه حديدته المصهورة أمامه ولكن غبطة الحداد الجبر لم تتم فإنه أبصر الفولاذ المصهور يسترد طبعه رويداً رويدًا . وإذا بالحديدة تعود وهى - كما كانت - الحديدة وإذا بها تقول للحداد الجبار أنا الحديد أنا الحديد](١) .

يتسم المقال بالرمزية العالية التى تهدف إلى إبراز الروح الوطنية المصرية والإرادة الصلبة لشعب مصر وقد صور المنشىء التحدى المصرى فى صورة حية جسدتها العلاقة بين الحداد والحديد .

والحداد هو المستعمر الأوربى الذى جاء بعدوانه الغاشم على الوطن العربى يصبو إلى السيطرة الكاملة على بلاد العرب حيث وجد فيها تحقيق أطماعه فقول محمد الأسمر (صار إلى غابة من الغابات ليروح عن نفسه) تبين ترك المحتل الأوربى لدياره ونزوله لأرض البلاد العربية وسحقه لكل جميل فيها فصورته (تسحق تحتها الأزاهير والأعشاب والحشرات الصغيرة الضعيفة) تعبر عن قتله الأطفال والنساء والشيوخ والعادات والقيم .

---

(١) مع المجتمع ص٥٣ ، ٥٤ .

وقد صور الكاتب المظالم العنيفة التى غرسها المحتل كما صور تمكنه من الوطن العربى (وكان الجبار مغتبطاً بهذا كل الاغتباط) كما صور صيحة الحرية والرفض فى تعبيره (وبينما كان الجبار غارقاً فى خيالاته وكبريائه عثرت قدمه بشىء صلب فاستيقظ من أحلامه وانحنى غاضباً يرى ما هذا الشىء الذى تجرأ فأدمى أصابع قدمه ثم تناوله بيده وتأمله فإذا به قطعة من الحديد) حيث كشف التعبير إن المراد بالحديدة الشعب المصرة الذى ثار ثورة عارمة جعلت المحتل الأوربى يستيقظ من أحلامه الذى تمنى فيها السيطرة الكاملة على الوطن العربى .

وتعبير كاتبنا (ما هذا الشىء الذى تجرأ فأدمى أصابع قدمه ثم تناوله بيده) يوحى بخطة الأجنبى الذى انهار من إرادة الشعب المصرى فخطط لكيفية القضاء عليه بكل السبل .

وقد أحسن الكاتب فى تعبيره عن تحدى مصر للمحتل وأبدع حين قال : (أتجرئين على محاورتى لأسحقنك بيدى) والمقولة توحى بمطالب نواب الشعب المصرى وصرخة أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول زعماء مصر الأحرار كما توحى باحتدام الأجنبى مع الشعب المصرى الذى ذاق منهم الأهوال وخاصة فى حادثة دنشواى التى ظن المحتل أنها عقوبة رادعة قادرة على قتل عزيمة مصر ولكن هيهات لقد ضاعفت المذبحة من ثورة الشعب المصرى فجن جنون المحتل وأخذ يردع المصريين بكل قوته :

(فلما أدمت الحديدة أصابعه هرول بها إلى حيث المطرقة والكير والنار وظل يردد وهو يطرقها أنا الحداد أنا الجبار فتطاير الشرر منها إلى عينيه) والمراد استمرار شراسة المحتل فى قتل الأبرياء كما أن العبارة

توحى بما استخدمه الأجنبى فى ردع الشعب المصرى من جلد وتعذيب وقتل وزج فى السجون ونفى حتى صاح العالم ما هذا الذى تفعله بالشعب المصرى وقد عبر المنشىء عن هذا بقوله (حتى صاح جيران الحداد الجبار كفاك أيها الحداد الجبار لقد صدعت آذاننا بمطرقتك وهذه نار كيرك المحترق تكاد تندلع السنتها إلى منازلنا) ويهدف الشاعر أن ثورة الشعب المصرى تحولت إلى حروب دامية تطاير شررها إلى بلاد العالم فالتعبير (تندلع ألسنتها إلى منازلنا) تدل على استعداد العالم لحروب طاحنة تمثلت فى الحرب العالمية الأولى والثانية فخيم الظلام سماء مصر حتى توهم المحتل أنه أخمد شعلة الإرادة المصرية لكن الشعب المصرى سكن لحظة ليخطط فيها تخطيطاً عالياً (أبى الحداد الجبار أن يستمع للناس فالتقط الحديدة وقذف بها إلى فرن من أفرانه الصاهرة فلما أبصرها وهى تسيل ذائبة ضحك ضحكة الجبارين وقال لها ألم أقل لك أنى أنا الحداد أنا الجبار) فقول الأسمر (فلما ابصرها وهى تسيل) يبين أن المصريين استسلموا للمحتل ولكنهم التزموا الصمت بقصد تدبير أحوالهم وتدمير هذا الجبار .

وجميل من المنشىء تصويره لصحوة الشعب المصرى صحوة واعية بقوله (ولكن غبطة الحداد الجبار لم تتم فإنه أبصر الفولاذ المصهور يسترد طبعه رويداً رويدا وإذا بالحديدة تعود وهى - كما كانت - الحديدة وإذا بها تقول للحداد الجبار أنا الحديد أنا الحديد) .

حيث صور صحوة إرادة الشعب المصرى بقوله يسترد طبعه . وقد وصل المقال ذروة جودته المتمثلة فى صيحة الحديد أنا الحديد - أنا الحديد وتكرار الصيحة يوحى بأنها صحوة واعية اندلعت بثورة يوليو التى حققت للشعب المصرى كرامته .

والمتذوق للمقال يدرك قدرة الكاتب الإبداعية ومهارتـه الفنيـة ورمزيتـه العميقة الموحية بالجو النفسي . والواقع أن كاتبنا وفق فى اختيار مهنة الحـداد للمحتل ليبن طبيعة منهجه كما وفق فى اختيـار الحديـد ليوحـى بصلابـة إرادة الشـعب المصـرى لمقـال يتسـم بـالروح الوطنيـة النبيلـة فـى إطـار أدبـى جيـد وعاطفة جياشة ودلالات لفظية إيقاعية موحية بنغمات الصحوة .

والمقال ترنيمة رائعة فى سماء المجد المصـرى تغنـى بهـا الكـاتب فـى عبارات قوية جزلة وصور واضحة الملامح .

وبمقال (الحداد والحديد) ختم الكاتب مقالات (من وحى الحرب) .

ليشرق كتابه الجيد مع المجتمع بمقالات تحت عنوان (من وحى الدين).

من وحى الدين

غرد كاتبنا بالروح الوطنية التى يتمتع بها الشعب المصرى الكريم مؤمنا بأن استمرار هذه الروح الأصيلة يكمن فى الحفاظ على أصول وقواعد الدين الإسلامى ولهذا انطلق يطرق باب السلوكيات الاجتماعية التى ترتبط بالبنيان الإسلامى فسجل خواطر فى باب (من وحى الدين) الذى ضم المقالات الآتية :

- مغارس الإيمان .
- بين التوكل والتواكل .
- المأذون الشرعى السينمائى .
- القرآن وقانون من أين لك هذا .
- الأديان والمتدينون .
- استغفروا ربكم .

بدأ الكاتب مقالاته بمقال (مغارس الإيمان) تحدث فيه عن أثر البيئة فى تكوين المشاعر الإيمانية فقال (إذا نظرنا إلى أهل البوادى والقرى ثم نظرنا إلى أهل العواصم والمدن رأينا فرقًا واضحًا بين إيمان هؤلاء وإيمان أولئك وذلك فيما يبدو راجع إلى البيئة المحيطة بكل منهم .

وإذا كانت البيئة مؤثرة فى تكوين الأجسام وصبغ الألوان وغرس الطباع وكان ذلك مقررًا ومشاهدًا فى كائنات كل بيئة فإن ذلك مما يرجح أن هذه البيئة ذاتها لها تأثيرها أيضا فى المعتقدات إيمان وغير إيمان فأهل البوادى والقرى أقرب إلى الإيمان من رجال العواصم والمدن وذلك لأن

الأولين لا يكاد يقع بصرهم إلا على ما هو من صنع الله تعالى وما هو على فطرته التى فطره الله عليها فالزرع والضرع والأرض بوهادها وجبالها وسهولها وروابيها وجداولها وينابيعها والسماء بشمسها وقمرها ونجومها والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس كل هذا وما يماثله يملأ البادى والقروى إيمانًا بالله ورهبة لله حتى إنه فى هذه البيئة المحيطة به ليعبد الله كأنه يراه ولا يقولن قائل إن شمس البوادى والقرى هى شمس العواصم والمدن والسماء هى السماء والليل هو الليل إلى آخر ما ذكرنا وما لم نذكر فالفرق عظيم بين اجتلاء هذه الأشياء غارقة فى ضوضاء المدينة وجلبتها وشامخ مبانيها وبين اجتلائها فى مسارحها ومجاليها هى أوضح ما تكون فى القرى والبوادى وما يشابهها حتى لكأن الشمس غير الشمس والليل غير الليل والسماء غير السماء.

وإن نظرة فطرية (إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) لكافية أن تملأ قلب البادى والقروى إيمانًا بالله فى غير حاجة إلى كثير من البرهنة والبيان .

وقد قال بعض الأعراب فيما قال : إن الأثر يدل على المسير فأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج وسماء ذات أبراج ألا يدل ذلك على العليم القدير ؟!

فهؤلاء الباديون والقرويون أقرب الناس فى حالاتهم واستدلالاتهم إلى الفطرة والناس بفطرتهم مؤمنون فهم أقرب من غيرهم إلى الإيمان بالله وصلوا إلى ذلك لاعن طريق الجدل أو الاشتغال بالإلهيات وإنما آمنوا لأن كل ما يحيط بهم ينادى للإيمان ولأن كل ما بهم يتجلى فيه واضحًا صنع الله، فهم دائمًا يستشعرون الحاجة إلى ذلك الخالق المبتدع وهم لهذا الاستشعار الملازم لهم ما لازمتهم مبتدعاته يعبدونه رغبًا ورهبًا يرجون نعمه ويخشون نقمه فهو

الذى يرسل السحاب بالمطر وهو الذى يسير السحاب بالصواعق وهو باسط الرزق وقابضه ، وهو المحيى والمميت ، وهو من عرفوه أنه على كل شىء قدير .

أما سكان العواصم والمدن : فهم أهل صناعة وفن وانغماس فى اللذات وهم فى غفلة من التفكير فى عظمة الكون وعجائبه كل ما يحيط بهم واضح فيه إنه من عمل أيديهم ذللوا البخار والكهرباء وأنشئوا من المخترعات ما شغلهم عما خلق الله للناس فى القرى والبوادى فاستغنوا – فى الظاهر – عما امتن الله به على العباد فى مثل قوله تعالى عن الأنعام والدواب ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ .

فهم لا يستشعرون رأفة الله ورحمته كما يستشعرها البادى والقروى ولا يرون فى هذه الأشياء الجمال الذى يراه البادى والقروى لاستغنائهم فى الظاهر عنها والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ ، ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(١) .

كشف الكاتب النقاب عن المنبع الذى يشكل الطبيعة الإيمانية فبين أن البيئة بما لها من مشاهد ومظاهر قادرة على تحريك العاطفة الدينية وإثارة المشاعر الإيمانية ووضح أن أهل البوادى والقرى أقرب للإيمان من أهل العواصم والمدن لصفاء فطرتهم التي تفتح نوارها على روعة الأرض السندسية والسماء الصافية بشمسها التى تشرق باسمة وقمرها الذى يداعب الخيال والعواطف برقته الساحرة ونجومها التى تغرد فى مناجاة حالمة مع ليل

---

(١) مع المجتمع ص ٥٧ ، ٥٨

وديع وذوبان مع صبح أثير بهيج يشدو بعظمة الصانع العظيم الذى أبدع الجمال فهتفت القلوب الصافية تبارك الله أحسن الخالقين .

ويعلن كاتبنا أن صفاء السريرة مدعاة لتوثيق المشاعر الإيمانية التى تنبع من سلاسة وبساطة مشاهد الحياة فى البوادى والقرى وليس هذا بغريب فقد خلق الله الجمال فى الكون بوحى أسراره التى تغرس الأمن وتنشر الاطمئنان فى نفوس الناظرين ويتولد الأمن والأمان من اليسر والسهولة فى تفسير مشاهد الجمال وتعليل سحر مظاهره التى تعلن أن الله سبحانه المبدع لهذه المشاهد والمظاهر فتتغنى المشاعر والأحاسيس وتطمئن القلوب ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولهذا نجد أهل البوادى والقرى أكثر سعادة حيث يتمتعون بالاطمئنان لإيمانهم بأن أسرار الكون بيد الله فنعمت بالبساطة واليسر ونعم اليسر أما سكان المدن والعواصم فهم أهل انغماس فى اللذات يغرقون فى الضوضاء التى تحجب عنهم وضوح الرؤية وتلقى بهم فى بحار متلاطمة الأمواج فيتلاشى من قلوبهم شعور الاطمئنان وتتسرب الغفلة إلى نفوسهم فيصبح شاغلهم الشاغل ماديات الحياة وهنا يفر الاطمئنان منبع الإيمان بأسرار الله فلا سبيل له مع الضوضاء التى ترجع إلى الانصراف المطلق للمخترعات .

والمنشىء فى مقاله لا ينادى بترك العمل والبحث والتنقيب أو الانصراف عن الاجتهاد الذى يثمر الاختراعات والاكتشافات لكنه يرمى إلى تحذير أهل المدن والعواصم من الانغماس فى الماديات التى تهلك مشاعرهم وتدمر أحاسيسهم فترتكز حياتهم على عنصر واحد وهو المادة مع أن دائرة الحياة لا تكون متكاملة إلا بالروح مع المادة ففى اتحادهما التزام بمنهج الله الذى يهدى إلى الصراط المستقيم .

والمقال دعوة إلى ضرورة الاتزان الاجتماعى والوجدانى سطره محمد الأسمر بصور رائعة التشكيل جيدة الألفاظ صادقة المشاعر أوحت بجمال الاطمئنان كما أوحت بسحر المدينة المادى ورغبت فى الجمع بين الجمال المطلق والسحر المادى الذى يرقى إلى سحر سامى تشكله الروح والمادة وقد عبرت الدلالات الإيقاعية عن مفاهيم المقال الاجتماعية الإيمانية الوجدانية.

وقد خشى المنشئ من الظن بأن مقاله دعوة لصرف الهمم عن الابتكار والاختراع فكتب (**بين التوكل والتواكل**) والمقال دعوة صريحة للعمل والاجتهاد الذى ينمو فى رحاب الإيمان بوحدانية الله وهدايته لعباده فى كافة المجالات مع التأمل الواعى لأمور حياتنا والفهم الصحيح لأصول وقواعد الإسلام :

قال : (سمعت من الإذاعة المصرية بعض المقرئين الذين ينشدون الشعر على الطريقة المعروفة فى مصر بطريقة (المواليدية) وهو ينشد قصيدة فيها البيت الآتى :

كن عن أمورك معرضًا   وكل الأمور إلى القضا

والدين الإسلامى الحنيف لا يقول للمسلم - كن عن أمورك معرضًا - وإنما يقول له ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ويقول ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ ويقول ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ ويقول ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾.

إننا لو أردنا أن نذكر الآيات التى تحض على العمل والاجتهادات لضاقت هذه العجالة بها . ولكنا نريد أن نلفت النظر إلى أن هناك فرقًا كبيرًا

بين التوكل والتواكل فالتوكل على الله هو أن تبذل جهدك فى عملك وأنت مطمئن إلى معونة الله وتأييده لك وأما التواكل فهو هذا الذى يشيعه ويذيعه هذا المقرئ بين الناس فيخاطب من يستمع إليه بقوله (كن عن أمورك معرضـًا) والعرب تقول رجل (وكأسه) (بضم الواو وفتح الكاف) أى عاجز ضعيف يكل أمره إلى غيره والإسلام دين القوة ودين العزة ودين الاعتماد على النفس لايدعو المسلمين إلى التواكل بل يدعوهم إلى التوكل لأن التوكل فيه قوتان عزيمة الإنسان وثقته بالله فهو يجمع بين قوة العمل وقوة الروح المعنوية انظر إلى قول الله تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ . أرأيت كيف أن التوكل الإسلامى لا يكون إلا مع العزم ؟ وأما التواكل فهو ضعف فى العزيمة وانحلال فى النفس .

قال ﷺ : " لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تعدو خماصـًا وتروح بطانـًا " أى تصبح وهى جائعة ثم تطير هنا وهنالك فترجع فى العشيات إلى أوكارها وهى شبعة هذا هو التوكل الحق أساسه السعى والجد لا القعود والخمول ولا أن تكون عن أمورك معرضـًا !

جاء فى كتاب من كتب التصوف أن رجلاً صالحـًا تفقد صديقـًا له فلم يجده ثم رآه فى غار يكاد يشرف على الهلاك من الجوع فقال له ما هذا ؟

فقال انقطعت عن العمل وعن أمور حياتى لأنى رأيت غرابـًا خطف من أمامى رغيفـًا وطار به فتتبعه فإذا به يلقيه أمام غراب ضعيف لا يستطيع أن يطير فقلت لنفسى إن من يرزق هذا الغراب الضعيف يرزقنى فى هذا الغار فقال الرجل الصالح لصديقه : لم اخترت لنفسك أن تكون الغراب الضعيف ولم لا تكون الغراب القوى ؟!

أيها المسلمون لا تكونوا عن عملكم معرضين بل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون فهكذا يقول الله والله سبحانه وتعالى أصدق[١] القائلين ».

يدرك المتذوق الكريم ارتباط مقال (بين التوكل والتواكل) بالمقال السابق له (مغارس الإيمان) حيث أبرز في مغارس الإيمان تمتع أهل البوادي والقرى بالسمو الإيماني والنقاء الوجداني والطهر القلبي ومرجع ذلك عمق إيمانهم بالله وبقدرته المطلقة وتجلي مظاهر صنعه البديع في مشاهد الكون من حولهم كما أبرز المقال غفلة أهل المدن والعواصم عن أسرار الجمال الرباني والإبداع الإلهي وسط أمواج الضوضاء ولهذا جاء مقاله تعبيرًا عن نداء لصحوة روحية تسير في موكب الحياة المدينة مع نشاطها المادي حتى تتزن أمور حياتهم فلا يدمر الضوضاء عواطفهم التي تغرس الاطمئنان في قلوبهم وجاء مقال (التوكل والتواكل) ليترجم بجلاء رؤيته في (مغارس الإيمان) فبين أن أساس الحياة السوية يعتمد على عنصرين منذ خلق الله الأرض إلى أن يرثها وهما العمل الجاد والإيمان الصادق فالإسلام هدية الله لعباده جميعًا وهبته العظيمة وضعها بحكمته العالية وعلمه الشامل فجعلها سلوكيات نبيلة تفجرها معنويات سامية فالإسلام لا يدعو إلى الإيمان والتوكل وترك العمل كما لا يدعو إلى العمل والانصراف عن الإيمان بل كانت دعوته الإيمان الصادق بالله والعمل الجاد الخالص لوجهه تعالى فقد خلق الحق الإنسان ومهد له طريق الحياة فجعل محورها السعي مع الإيمان بالله والتوكل عليه وعندما قدم سبحانه هديته لعباده وضع لها القوانين والنظم والضوابط التي تنظم حياتهم على أساس من تناسق الماديات مع المعنويات .

---

(١) مع المجتمع ص ٥٩ ، ٦٠

وقد استشهد محمد الأسمر فى مقـال (بيـن التوكـل والتواكـل) بكلمـات الله التى تنادى بضرورة السعى والعمل مع الإيمان بقدرة الله فقال : (الإسـلام ديـن القـوة وديـن العـزة وديـن الاعتمـاد علـى النفس لا يدعـو المسلمين إلـى التواكـل بـل يدعوهـم إلـى التوكـل لأن التوكـل فيـه قوتـان عزيمـة الإنسـان وثقتـه بالله فهو يجمع بين قوة العمل وقـوة الـروح المعنويـة انظـر إلـى قولـه تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ .

كما ناقش بموضوعية الفرق بين التوكل والتواكل فبين أن التوكل يمنـح الإنسان نغمات ربانية تدفعه للعمل المثمـر الخـالص للـه أمـا التواكـل فمذهـب الكسول الخامل .

وقد صرح المنشئ أن مقاله كان ثورة على ما سمعه فـى الإذاعـة مـن أبيات شـعرية تتغنـى بـالتواكل فخشـى علـى عزيمـة أبنـاء مصـر مـن التسليم لمفاهيم بعيدة عن الإسلام وروحه الشريفة فنهض يدافـع عـن الإسـلام وعـن كيان مصر الذى يمثل راية النصر للدين الحنيف .

وفـى المقـال نـداء للمشرفين علـى الإعداد الإذاعـى مـن تحليـل المـادة الإذاعيـة قبـل التصريـح بإذاعتهـا حتـى لا تكـون الإذاعـة مـن أسـباب انهيـار التكوين الإنسانى الصحيح الذى حث عليـه الإسـلام ويعتمـد علـى الجمـع بيـن العمل والإيمان .

وقد أعجبنى من الكاتب منهج عرضه للمقال وما استعان به من براهين وأدلة يثبت بها منهج الإسلام وضاعف مـن إعجـابى تحليلـه للتوكـل بقولـه أن (التوكل فيه قوتان عزيمة الإنسان وثقته بالله فهو يجمع بين قـوة العمـل وقـوة الروح المعنوية) حيث بين أن التوكل عزة وكبرياء وشرف لأنه يتصـل باللـه

ويستمد من جلال سلطانه القوة ومن فيض رحمته الاطمئنان بأنه المعين والموفق .

والمقال اجتماعى موضوعى جيد تمتع بالصدق العاطفى الذى نبع من الغيرة على الإسلام التىدفعت محمدًا الأسمر إلى كتابة مقال (المأذون الشرعى السينمائى) قال فيه (تحتوى القصص السينمائية التى تعرض على الشاشة فى بعض الأحايين منظر زواجمسلم بمسلمة ومعروفأن هذا لايتم إلا بعد صيغة الزواج المعروفة التى يقوم بها (المأذون الشرعى) والزواج فى ذاته ارتباط له قدسيته وجلاله ومن أجل هذا وجب أن يكون بعيدًا كل البعد عن التهريج والسخرية سواء أكان هذا الزواج فى عالم الحقيقة أم كان فى عالم التمثيل .

ولكن الذى نشاهده فى تأليف القصص السينمائية وفى إخراجها يخالف ما يجب أن يكون عليه عقد الزواج من قدسية وجلال فالمؤلف يحرص على أن يكون كلام المأذون كلامًا يبدو عليه ما هو معروف بين المصريين باسم (الفقهنة) والمخرج يحرص على أن يكون ثوب المأذون الشرعى وعمامته وحركاته أمورًا تثير الضحك والتندر .

والذى يزيد فى ألم كل مسلم حريص على كرامة دينه أنه حينما يشاهد على الشاشة عقد قران مسيحى أو يهودى يجده محوطا بالقدسية والجلال ويجد عقد قران المسلم ينفرد بهذا التهريج والعبث الواضحين فى شخصية (المأذون الشرعى) كلامًا وثوبًا وتمثيلاً !

لو أن المناظر السينمائية الخاصة بالمأذون الشرعى مما يضع حوارها مؤلفو (هوليود) ومما يقوم بأدوارها ممثلوها لقلنا إحدى تجنيات الغرب على

الشرق ولكن الذين يقومون بكل ذلك مصريون المفروض فيهم أنهم فى أمة دينها الرسمى الإسلام أننا هنا نغضب ونثور ونقوم قائمتنا حينما تتناول الصحافة الأجنبية بعض شئوننا بالانتقاد والتشهير بالسوء فما بالنا ونحن والحمد لله عندنا هذه الغيرة على كرامتنا نضع بألسنتنا وأيدينا الكذب على أنفسنا فنشوه جمال أمورنا ونظهر عقد زواج المسلم بالمسلمة فى هذا المظهر الذى لا يليق حتى بأمة لا دين لها فكيف بالأمة المتدينة المتمدينة ؟!

ثم ماذا ننتظر إذا ما استمر زواج المسلم بالمسلمة على الشاشة البيضاء بهذه الكيفية الساخرة ؟ ثم استمرت مشاهدة الجماهير لها ؟ ألا تكون النتيجة المترتبة على ذلك مع طول الزمن هى أن يستقر فى نفوس العامة والدهماء أنهم إذا دعوا لعقد قران ورأوا (المأذون الشرعى) يقوم بهذا العقد أن يضحكوا أو يسخروا شأنهم فى ذلك شأنهم حينما يرون أحد الممثلين الفكاهيين حتى ولو أبصروه وهم فى حفل عزاء !! ثم ألا تكون النتيجة - بعد هذه النتيجة - أن ينظروا إلى زواج المسلم بالمسلمة فى عالم الحقيقة مثل نظرهم إلى زواج المسلم بالمسلمة فى عالم التمثيل الذى يشاهدونه على أنه عبث وتهريج .

يجب على الأزهر وعلى وزارة الداخلية فى مصر وعلى جميع المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى حكومات وشعوبًا أن ينتبهوا لهذه المسألة الدقيقة كل الانتباه حتى لا يبدو (المأذون الشرعى السينمائى) فى شكل لا يتفق مع كرامة الإسلام والمسلمين)(١) .

---

(١) مع المجتمع ٦١ ، ٦٢

يتناول المقال الاجتماعى السابق قضية هامة تمس كيان الإسلام وكرامته وتتمثل فى الشكل الذى يظهر به المأذون الشرعى على الشاشة السينمائية ويبين الكاتب أن هذا العقد يجب أن تحتضنه هالة من الجلال والقدسية لأنه يرتبط بالشرع الإسلامى الحنيف ويعلن محمد الأسمر ضرورة غيرة المسلم ومشاعره الحرة فإن أسلوب السخرية الذى يظهر على الشاشة البيضاء فى تصوير عقد الزواج لا يلتصق إلا بالعقد الإسلامى مع أن تصوير عقد زواج المسيحى واليهودى يقدم على الشاشة بكل مظاهر التقديس والجلال وهذا هو الأسلوب الأمثل الذى يحافظ على كرامة الدين وكرامة أتباعه .

ويرى كاتبنا أن التقديس من آيات التكريم الواجبة للدين ونحن دولة إسلامية ولهذا يجب علينا جميعًا رفض أى شائبة تمس عظمة الإسلام وجلاله ورفض أى عبث يشين كرامة أتباعه بأسلوب التندر أو الاستخفاف بقصد إثارة الضحك لدى المشاهد ففى هذا السلوك ذروة الامتهان للإسلام وأتباعه .

والمتلقى لعبارات الكاتب الآتية يدرك مدى مرارة الألم التى غرست فى نفسه :

" والذى يزيد من ألم كل مسلم حريص على كرامة دينه أنه حينما يشاهد على الشاشة عقد قران مسيحى أو يهودى يجده محوطًا بالقدسية والجلال ويجد عقد قران المسلم ينفرد بهذا التهريج والعبث الواضحين فى شخصية (المأذون الشرعى) كلامًا ، وثوبًا ، وتمثيلاً !! " .

والمتأمل الكريم للألفاظ كلامًا ، ثوبًا ، تمثيلاً . يدرك أن الكاتب يصرخ صرخة عالية لما انتاب السلوكيات الإسلامية من اضطرابات شديدة تهدد بالخطر الذى لا يمس الظاهر فحسب بل يسرى بخبث ودهاء فى جوهر

الإسلام وينادى الكاتب بالصحوة الإسلامية الوجدانية والاجتماعية حتى لا نكون أداة التدمير لديننا .

وجميل من كاتبنا إثارته للروح الدينية بقوله :

(إننا هنا نغضب ونثور وتقوم قائمتنا حينما تتناول الصحافة الأجنبية بعض شؤوننا بالانتقاد والتشهير بالسوء فما بالنا ونحن والحمد لله عندنا كل هذه الغيرة على كرامتنا نصنع بألسنتنا وأيدينا الكذب على أنفسنا فنشوه جمال أمورنا ويظهر عقد زواج المسلم بالمسلمة فى هذا المظهر الذى لا يليق حتى بأمة لا دين لها ، فكيف بالأمة المتدينة المتمدينة ؟!) .

إن الكلمات صرخة عالية ودعوة صادقة للحفاظ على الإسلام وكرامته ففى ذلك محافظة على كياننا وشرفنا بين الآخرين .

وقد أعجبتنى دعوة الكاتب الآتية :

(يجب على الأزهر وعلى وزارة الداخلية فى مصر وعلى جميع المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى من حكومات وشعوبا أن ينتهبوا لهذا المسألة الدقيقة كل الانتباه حتى لا يبدو (المأذون الشرعى السينمائى) فى شكل لا يتفق مع كرامة الإسلام والمسلمين) .

ففى هذه الدعوة نداء للأجهزة التى تحمل على عاتقها مسئولية الحفاظ على كيان الإسلام وأبرزها الأزهر الشريف الذى حمل أمانة الحفاظ على الإسلام وأتباعه وقضية الكاتب ليست (المأذون الشرعى السينمائى) إنما قضيته خوفه من استفحال الصغائر وانتشار الشرر الذى يمس جلال الإسلام ويلتهم كرامة أتباعه .

وقد أثمرت دعوة محمد الأسمر ثمارها حيث نجد الآن دور الأزهر الإيجابى الذى يتجلى فى مراقبته المستمرة الواعية لما يعرض على السامعين والمشاهدين ليحافظ على قدسية الإسلام وكرامة أتباعه كما تبذل جميع الأجهزة جهودها حرصًا على البناء الإسلامى الشامخ فى مظهره وجوهره .

والمقال اجتماعى هادف واضح الأفكار سلس العبارات وقد استطاع المنشئ من خلال عرضه الجيد إثارة مشاعر المتلقى لقضية الحفاظ على الإسلام .

ويتحرك ركب (من وحى الدين) فيعرض الأسمر فكرة حية تناقش الأوضاع الاقتصادية وما بها من اضطرابات من خلال مقال (القرآن وقانون من أين لك هذا) قال فيه :

(إن الناس مرتبطون بالناس فهؤلاء الذين يظنون أنهم يعيشون وحدهم لأنهم بعيدون عن الناس مخطئون فهم وإن بعدوا عن الناس قريبون منهم يتحدث عنهم الناس فى منازلهم وفى منتدياتهم وفى أمكنة عملهم ويتحدث عنهم الإنسان بينه وبين نفسه وهذه الحالة سنة الله فى خلقه وفطرتهم التى فطرهم عليها . ويكثر تناول الناس للناس فى أحاديثهم إذا بدت عليهم آثار النعمة ويكون الكلام أكثر إذا كانت أسباب هذه النعمة غير معروفة فإنهم حينئذ يهيمون فى وادى الظنون بحثًا عن هذه الأسباب فواحد يقول إن السبب فى غنى فلان كذا ، وثان يقول : بل هو كذا وثالث يقول هو كذا وهذه الظنون كلها تدور فى جو من الريب والأحقاد على من أدركته النعمة التى لا يعرف سببها لأن كل إنسان يحب الخير لنفسه وهو لذلك يكدح فحينما يرى إنسانًا لا يكدح قد أدرك من خير هذه الدنيا ما لم يدركه هو أثار ذلك فى نفسه التساؤل ونية الريب والأحقاد وشكك النفوس فى عدالة المجتمع ورجح فى الأذهان أن

الصراط المستقيم الواضح لا يؤدى إلى الخير الدنيوى وإنما الذى يؤدى إلى الخير الدنيوى شىء سواه وبذلك تضطرب أمور المجتمع وتضعف الثقة بالصراط المستقيم .

والناس معذورون إذا تساءلوا فيما بينهم كيف أثرى فلان وفلان هذا الإثراء العريض المفاجىء ؟

فهذا (زكريا) عليه السلام حينما دخل على مريم المحراب ووجد عندها من الطعام ما لم يحضره لها وكان زكريا الكافل لها والقائم بأمرها قال لها : ﴿ يا مريم أنى لك هذا ؟! قالت هو من عند الله ! ﴾ .

لم يكن فى هذه الأيام شىء اسمه قانون (من أين لك هذا) ولكن هذا القانون إن لم يكن مكتوبًا على الأوراق فى أيام زكريا فقد نقشته فى الصدور وأشاعته الفطرة فى النفوس فسأل زكريا مريم (أنى لك هذا) فأخبرته مريم عن مصدر ما عندها (قالت هو من عند الله) سأل زكريا وأجابت مريم ، فهل إذا سألنا هؤلاء الذين أصبحوا فى ثراء عريض والناس يتضورون جوعًا تزدحم بهم المساكن وتقهرهم الأمراض نقول : إذا سألنا هؤلاء الذين أثروا إثراء غير واضح وقلنا لهم من أين لكم هذا هل نجد الجواب ؟! .

قالت مريم فى جوابها لزكريا لما سألها عن مصدر ما عندها (هو من عند الله) وكانت صادقة وهؤلاء الذين أصبح لهم الثراء العريض غير المعروف الأسباب لو سئلوا من أين لكم هذا وأرادوا أن يكونوا صادقين كما صدقت مريم لقالوا " هو من عند الشيطان " .

إن زمن المعجزات الإلهية التى كانت توجد لمريم فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وتحضر لديها ما لم يحضره زكريا كافلها والقائم بأمرها قد انتهى ... نعم قد انتهى زمن المعجزات الإلهية .

فهل سيكشف (قانون من أين لك هذا ؟) فى هذه الأيام حقيقة الذين أثروا إثراء غير معروف الأسباب ليرى الناس أحدث المعجزات العصرية التى ينقلب بها الرجل الفقير فى أيام وهو ذو ثراء عريض يحير الألباب .

قرأت فى جريدة الأهرام أن البوليس اقتحم كوخ اللص صلاح عبد العاطى بحى طولون فعثر الضابط فى هذا الكوخ على ملابس وأدوات زينة وحقائب سيدات عجز المتهم عن إثبات مصدرها فقبض عليه .

آمنت بالله وهذه العمائر التى تقام وهذه الأطيان التى تشترى ألا تسألون أصحابها من أين أقمتم هذه العمائر ؟ ومن أين اشتريتم هذه الأطيان ؟

إن الجماهير فى الشرق أصبحت يقظة لا يخفى عليها شىء وهى تعرف عن الناس أكثر ما يعرفه القانون فمن الحكمة أن يراعى من فى الشرق شعور الجماهير تلك الجماهير التى تحتقر اللصوص وإن كانوا أغنياء وتحترم الشرفاء وإن كانوا فقراء)(١) .

يعرض مقال (القرآن .. وقانون من أين لك هذا) الأوضاع الاقتصادية التى تدل على اضطراب القيم فى المجتمع فقد أعلن محمد الأسمر أن الشرفاء يكدحون حتى يتحقق لهم الستر وأن اللصوص تتنعم وتقطف ثمار الترف دون جهد شريف مما يثير فى النفوس دهشة الريبة وظن الشك .

---

(١) مع المجتمع ص ٦٣ : ٦٥

ويبين المنشئ أن التساؤل الذى يدور ويجول فى النفوس عن سبب هذه النعمة وهذا الثراء من الأمور الفطرية ويستدل على ذلك بسؤال زكريا لمريم عن وجود طعام لم يحضره لها ويشير محمد الأسمر أن السيدة العذراء أجابت بصدق ووضوح بأن هذا من عند الله ويعلن الأسمر أن زمن المعجزات الإلهية انتهى بتمام أنوار الحق فما إجابة الأثرياء اليوم الذين أثروا إثراء غير واضح الأسباب ؟

والمتذوق الكريم لمنهج عرض المنشئ يدرك أنه أجاد فى نسج خيوط المقال فبين طبيعة البشر فى حب معرفة أسباب حدوث التغير كما صرح بأن هذه الطبيعة فطرة فى التكوين البشرى والحق أن هذه الطبيعة لم يغرسها الله إلا لفائدة تعود على الفرد والجماعة وتتجلى فى حفظ التوازن الاجتماعى وضبط معايير السلوكيات فالإنسان يدرك طبيعة أبناء جنسه فى التقصى والبحث مما يجعله يفكر مرات عدة قبل تحصيل المال بأى أسلوب لعلمه بأن الجميع يعرف عنه ما يحاول دسه فى التراب ويعلن كاتبنا أن طبيعة الحرص خمدت فانتشر الثراء المحرم مما يدل على تفشى الفساد الأخلاقى إلى جانب الفساد السلوكى والنفسى وقد أكد محمد الأسمر ذلك فى قوله (لو سئلوا من أين لكم هذا وأردوا أن يكونوا صادقين كما صدقت مريم لقالوا (هو من عند الشيطان) ويريد الكاتب بلفظه الشيطان تناسى الكثير من الناس للقيم الأخلاقية وانغماسهم فى بحر لجى ظلماته بعضها فوق بعض فقد أصبح هدفهم تحقيق الثراء والنعيم بأى منهج حتى لو خالف أصول الشريعة والمنشئ هنا ينادى بصحوة الضمير الذى دفن ويبكى الكاتب هذا الحصن الذى جعله الله أداة واعية طاهرة تحفظ الكيان الإنسانى وترقى بالمجتمع لعالم السمو ودنيا الفضيلة ولكن الشيطان يأبى للإنسان أن يعيش فى رحاب السعادة والدليل على ذلك ما نشرته الأهرام من تفشى سلوك السطو والتزوير لتحصيل الثراء .

وختم الكاتب مقاله بمقولة تحذير اجتماعية أخلاقية قائلاً :

(إن الجماهير فى الشرق أصبحت يقظة لا يخفى عليها شئ وهى تعرف عن الناس أكثر ما يعرفه القانون فمن الحكمة أن يراعى كل من فى الشرق شعور الجماهير التى تحتقر اللصوص وإن كانوا أغنياء وتحترم الشرفاء وإن كانوا فقراء) .

والكلمات تندد بالثراء الذى يحدث نتيجة لسبل غير شريفة وينادى بصحوة الأجهزة للحد من الانحرافات المختلفة مع استمرار البحث عن الكسب غير المشروع وقول محمد الأسمر (إن الجماهير فى الشرق) يدل على أنه يذكرنا بأننا أهل الذكاء والفطنة أهل الشرف والكرامة فالشرق منار الحضارة التى لن تستمر إلا بالأخلاقيات الحميدة التى غرسها الإسلام .

وقد تمتع المقال بالروح الاجتماعية الواعية التى تألقت عبر تناول الكاتب لأفكاره ومعاينة التى انسجمت فى إطار تعبيري جيد .

ويطالعنا مقال (الأديان والمتدينون) الذى يبين أن التدين الحقيقى تترجمه سلوكيات رفيعة نبيلة قال فيه :

" جميع الكتب السماوية تدعو إلى الخير (القرآن) يدعو إلى الخير (والتوراة) تدعو إلى الخير و (الإنجيل) يدعو إلى الخير " .

جاء فى القرآن ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ وجاء فى القرآن ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ وجاء فى القرآن ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ وجاء فى القرآن ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ .

وجاء فى التوراة (طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس) وجاء فى

التوراة (اتق الرب وأبعد عن الشر) (لا تمنع الخير عن أهله) (لا تخترع شراً) وجاء فى الإنجيل (كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا) وجاء فى الإنجيل أنه قال بطرس للمسيح عليه السلام (كم مرة يخطئ إلى أخى وأنا أغفر له هل سبع مرات ؟! قال له يسوع : لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات !!) وجاء فى الإنجيل (إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء) .

هذا قليل من كثير مما جاء فى (القرآن) و (التوراة) و (الإنجيل) داعيًا إلى الخير .

والعالم الأرضى مملوء بالمسلمين والمسيحين واليهوديين وهؤلاء جميعًا تدعوهم أديانهم إلى الخير فكان الواجب - من الناحية الدينية - أن يكون العالم الأرضى مملوء بالخير .. ولكن الواقع غير ذلك فالعالم الأرضى مملوء بالشر .

نحن نزعم أن العالم الأرضى يعيش فى ظلال الأديان ولو كان مازعمناه حقا عاش هذا العالم فى نعيم هذه الظلال ولكن العالم الأرضى جحيم والناس يعيشون فيه كما تعيش الأبالسة فى الجحيم .

فى كل نواحى الأرض مساجد عامرة بالمسلمين وكنائس عامرة بالمسحيين وأخرى عامرة باليهوديين وعلماء وقسيسون وأحبار كل ما تشاء من مظاهر الدين وأدوات الدين ولكن أين ما دعا إليه الدين ؟!

وأين روح الدين ؟! أين العدل وقد دعا إليه الدين أين البر وقد دعا إليه الدين الرحمة وقد دعا إليها الدين أين ما دعا إليه القرآن أين ما دعت إليه التوراة أين ما دعا إليه الإنجيل ؟!

أيها المتدينون فى مشارق الأرض ومغاربها هل نحن حقيقة متدينون ؟!
أم نحن نمثل على الكوكب الأرضى مسرحية المتدينين ؟!

قال الله تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ، (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) (فانتقمنا منهم) (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) صدق الله العظيم[١] .

يناقش المقال السابق بموضوعية قضية تحقق الخير على الأرض التى كانت الهدف من بعث الحق سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل الذين أعلنوا جميعًا بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيبين الكاتب اضطراب غصون الخير بتعرضها لرياح شيطانية تقتلع بذور الفضيلة وتجتث جذور المثل مع أن الكتب السماوية حذرت من أساليب الشيطان ومنحت الإنسان سبل الوقاية منها وقد استدل كاتبنا على ذلك بما ورد فى القرآن الكريم والتوراة والإنجيل من تعاليم داعية للخير مبينة كيفية تحصيله .

ويعلن محمد الأسمر أن العالم الأرضى مملوء بالمسلمين والمسيحيين واليهود الذين يدينون بالأديان السماوية ومع ذلك ينتشر الشر فى أرجاء الدنيا وتعيش الأفراد والجماعات فى جحيم .

ويرجع ذلك إلى أن اتباع هذه الأديان لا يحملون منها إلا اسمها ويجهلون روحها التى تفيض بالخير .

---

(١) مع المجتمع ص ٦٦ ، ٦٧

يقول الأسمر (فى كل نواحى الأرض مساجد عامرة بالمسلمين وكنائس عامرة بالمسحيين وأخرى عامرة باليهوديين وعلماء وقسيسون وأحبار كل ما تشاء من مظاهر الدين وأدوات الدين لكن أين ما دعا إليه الدين ؟! وأين روح الدين ؟! أين العدل وقد دعا إليه الدين أين البر وقد دعا إليه الدين أين الرحمة وقد دعا إليها الدين .. أين ما دعا إليه القران أين ما دعت إليه التوراة ، أين ما دعا إليه الإنجيل ؟! والصحوة تدل تدهور عام بين المسلمين والمسيحين واليهود حتى ضاع العدل والبر وفقدت آيات الرحمه .

وقد أجاد المنشىء فى استفهامه الإنكارى (أيها المتدينون فى مشارق الأرض ومغاربها هل نحن حقيقة متدينون ؟! أم نحن نمثل على الكوكب الأرضى (مسرحية) المتدينين ؟! والاستفهام يحمل التهكم الساخر لما أصبح عليه المتدينون فى مشارق الأرض ومغاربها .

فلو تمسكوا بالأخلاقيات التى حث عليها الدين لصارت الأرض جنة وأرفة الظلال .

وجميل من الأسمر ما ختم به المقال حيث استشهد بالقرآن الكريم على آثار صدق الإيمان وكأنه يعلن للدنيا أن الإسلام هو مسك الختام ولهذا يجب على أتباعه الالتزام بتعاليمه حتى يفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ويغفر لهم وعليهم العمل بروحه بفهم جوهره حتى ترفرف السعادة على العالم الأرضى فيصبح نموذجًا طيبًا لعالم الخلود الرضوانى يترنم بجمال الخير والمقال اجتماعى جيد تناول قضية الدين الذين ينظم العلاقات الإنسانية بحيوية إيمانية فاستشهد بما جاء فى القرآن الكريم والتوراة والإنجيل وختم المقال بآيات من القرآن الكريم تبين بركة الإيمان الصادق وبركة العمل به والمقال دعوة للخير النابع من القيم الدينية التى تهدف إلى بث السعادة بين البشر وقد

أجاد المنشىء حينما بين أن أسباب نشر الخير على الأرض تتمثل فى العدل والبر والرحمة .

ويتمتع المقال بنفحة ربانية طاهرة تولدت من أنوار الآيات القرآنية التى استدل بها الكاتب على كيفية حدوث الخير وآثار الإيمان الطيبة فى الدنيا والأخرة.كما تمتع المقال بسهولة العرض وتناسق الأفكار ووضوح الصياغة ولعل كاتبنا لم يفرغ شحنته الثائرة فى المقالات الاجتماعية الدينية السابقة فسطر مقاله (استغفروا ربكم) جاء فيه :

(الدعاء كله مستحب والضراعة إلى الله تعالى مطلوبة وكل مخلوق أدرى بأمره وبما يدعو به خالقه والناس فى ذلك يختلفون باختلاف أحوالهم فدعاء الصالح غير دعاء الطالح ومهما يكن من شىء فلا حرج على فضل الله.ولكننى قلت ما قلته وهو أن دعاء الصالح غير دعاء الطالح لأمر شاهدته فى نفسى وأنا مريض فقد كنت أتجه إلى الله قائلاً : اللهم اشفنى وكان يجول فى نفس كلما دعوت بهذا الدعاء أن أبحث عن دعاء آخر إلى أن ومض فى خاطرى أن ألجأ إلى الاستغفار فلجأت إليه وصرت أكثر من قولى (استغفر الله العظيم) وأعتقد أن استغفارى كان يخفف عنى ما أجده من آلام المرض.

وقد تبين لى من هذا أننى فى حاجة إلى سؤال المغفرة من الله قبل أن أكون فى حاجة إلى أن أسأله تعالى أى شىء آخر وعلمت أن هذه منزلتى ومنزلة أمثالى ولكل مقام مقال ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فأنزلها منزلتها .

وليس استغفار الله بالشىء القليل الأثر ولكنه غرس إذا صحت نية صاحبه جاء بالخير العميم . قال تعالى فى كتابة الكريم (استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا) .

أرأيت كيف عقبى الاستغفار الصادق ؟! أرأيت كيف يحدثنا الله عنه ويرغبنا فيه ؟! أرأيت هذه الجنات والأنهار والأموال والبنين كيف تكون كلها جزاء استغفار المستغفرين ؟

نحن مذنبون غارقون فى ذنوبنا تكتنفنا هذه الذنوب فى كل وقت وفى كل مكان تحيط بنا فى الليل والنهار وتحيط بنا فى محل أعمالنا وفى طرقاتنا نذنب بأيدينا ونذنب بألسنتنا ونذنب بعيوننا وتذنب بآذاننا ونذنب بقلوبنا فإذا كان هذا حالنا فما بالنا لا نستغفر الله كثيرًا فى كل زمان وفى كل مكان حتى نلقى من الله ما وعد به المستغفرين ؟ ولا يقولن قائل ما بالنا (ونحن مذنبون غير مستغفرين) فى جنات وأنهار وأموال وبنين ؟! نعم لا يقولن قائل ذلك فنحن فى غلاء هو غلاء الجدب فما قيمة الجنات والأنهار ونحن فقراء إلى السعادة شاكون من عقوق الأولاد فما جدوى الأموال والبنين ؟! وإن حرمانك من الانتفاع بالشىء وهو أمام عينيك وفى متناول يدك لأشد حسرة وألما من حرمانك منه وهو مفقود ؟!

أيها الناس أيها المخطئون ، استغفروا ربكم وعودوا إليه استغفروا ربكم ليبارك لكم فى جناتكم وأنهاركم وأموالكم وأبنائكم (أستغفروا ربكم إنه كان غفارًا) ، (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود)(١) .

---

(١) مع المجتمع ص ٦٨ : ٦٩

المقال نفحة إيمانية راقية تهفو بمشاعرها السامية إلى عالم الطهر والنقاء وحياة الصفاء والنعيم فى ظل دعاء يتطلع إلى القرب من الله ففى قربه سبحانه النعيم الروحى والجمال العلوى وقد بين محمد الأسمر أنه سطر مقالة استجابة لحالته الصحية التى تجرع منها مرارة الألم العضوى وحسرة العذاب الوجدانى فتأمل أشواك مرضه ونيران وحدته محاولا التخفيف عن نفسه فلم يجد ملاذاً يفرج كربته إلا الله والدعاء إليه لأنه يحقق للنفس بركات من الهدى وآيات من الرضا تجعل الإنسان يعيش فى رحاب ملكوت الرضوان وقد بين الكاتب أن للدعاء منزلته التى تتمثل فى التضرع إلى الله وحده وكذلك الاستغفار حيث يتجلى التضرع بأعمق صوره ففيه جلال الوجدانية وجمال القرب وحرارة الشوق لتحصيل الرضا الربانى وقد استدل الأسمر على منزلة الاستغفار من القرآن الكريم موضحًا آثاره الطيبة التى يريد الحق تمتع عباده بها .

ويربط المنشىء بذكاء بين بركات الاستغفار وبين اضطرابات المجتمع الاجتماعية والوجدانية التى تدفع إلى اجتراف الذنوب فيحث على الاستغفار لأنه من أسرار السعادة حتى تتلاشى به الهموم المنتشر فى المجتمع وأبرزها العقوق والفقر والأمراض النفسية .

والقارئ الكريم للمقال يدرك مهارة المنشئ التى برزت فى دقة الربط بين ضرورة الاستغفار وبين ظروف المجتمع وذلك فى الفقرات الآتية :

(نحن مذنبون غارقون فى ذنوبنا تكتنفنا هذه الذنوب فى كل وقت وفى كل مكان تحيط بنا فى الليل والنهار وتحيط بنا فى أعمالنا وفى طرقاتنا نذنب بأيدينا ونذنب بألسنتنا ونذنب بعيوننا ونذنب بآذاننا ونذنب بقلوبنا فإذا كان هذا

حالنا فما لنا لا نستغفر الله كثيرًا فى كل زمان وفى كل مكان حتى نلقى من الله ما وعد به المستغفرين) .

كما أجاد المنشئ عندما ختم المقال بكلمات الحق الشريفة التى ترغب فى الاستغفار وتعلن رحمة الله المطلقة وقربة من عباده .

والمقال نفحة آمنة تسبح فى عالم الاطمئنان مسبحة بجلال الله شاكرة لنعمة التى يعد الاستغفار من فروعها والمسلم الكريم يدرك بقلبه الطاهر أن جمال الاستغفار ينبع من حلاوة طاعة الله وتنفيذ أمره سبحانه فقد أمرنا بالاستغفار مطلقًا فيجب علينا طاعته كما أن الاستغفار يحدث للنفس جمالا روحيا حينما يشعر المسلم بأنه يتضرع لربه الرحمن الرحيم فيذوب فى فيض رحمته ويتنعم بسعادة تفوح عليه بعطر السلام وللاستغفار فضيلة سامية فهو وقاية ربانية تحمى من الوقوع فى الأخطاء فعندما ما يكثر الإنسان من الاستغفار يعيش فى روضة طاهرة تجنبه غواية الشيطان حتى لوراودته نفسه ومهدت له سبل الأثم يحذره قلبه قائلاً : لما تجترف الأثم وأنت الأن تستغفر ألا تستحى من جلال الله ؟ وبهذا فالاستغفار نقاء للقلب وطهارة للنفس وحماية من الوقوع فى الآثام وفوز فى الدنيا والآخرة .

وبحلاوة الاستغفار تنتهى مقالات من وحى الدين من إشراقات لينسج الكاتب مقالاته من وحى النيل .

من وحى النيل

صور الكاتب فى هذا الباب خواطره الاجتماعية التأملية الوصفية التى تترجمها أحاسيس مصرية صادقة ويضم هذا الجزء من كتاب (مع المجتمع) المقالات الآتية :

- النيل يخاطب أبناءه
- أسوان الجميلة
- من الشلال إلى حلفا
- فى السودان
- مصر والاعتدال
- مصر والعروبة
- أنطون باشا الجميل
- محمد توفيق وهبى
- محمد مصطفى همام .

يناقش مقال (النيل يخاطب أبناءه) أسس ازدهار مصر وأصول استمرار تميزها بين دول العالم المتقدمة من خلال نصيحة النيل لأبناء مصر الشرفاء حيث (قال النيل لأبنائه أطلب إليكم أن تكونوا مثلى فالولد سر أبيه وأبناء النيل أولى الناس بأن يكونوا مثل أبيهم النيل .

أطلب إليكم أن تتحدوا ففى الاتحاد قوة وهل أنا إلا قطرات صغيرة حينما اتحدت كونت هذا النهر الكبير ؟ وهل أنا إلا قطرات ضعيفة حينما اتحدت كونت هذا النهر القوى المتدفق ؟

أطلب إليكم أن تسيروا دائماً إلى الأمام فإننى دائماً أسير إلى الأمام ما رجعت يوماً ولا ساعة ولا لحظة إلى الوراء فليكن شعاركم فى كل أعمالكم (إلى الإمام) فإنه شعارى من يوم أن كنت ما نكصت على عقبى ولا توقفت فى سيرى ولا عدت من ناحية مصبى إلى ناحية منبعى بل دائماً إلى الأمام وإلى الأمام وحده إن آباكم ما مشى فى حياته إلا إلى الأمام فإلى الأمام .

أطلب إليكم أن لا تحول العوائق التى تظهر فى سبيلكم بينكم وبين الوصول إلى غايتكم بل أطلب إليكم أن تزيد العوائق فى سرعة سيركم نحو أهدافكم فإن الشلالات التى أمر عليها نحو غايتى انحدر من فوقها لا اتهيب الهوات التى خلفها إن إقدامى على الانحدار من فوقها يزيد فى سرعتى ويقربنى من الوصل إلى غايتى أطلب إليكم ألا تتخلقوا بأخلاق البحار الصاخبة المضطربة بل اعملوا أعمالكم فى وقار واتزان فإن هذه أخلاقى اجعلوا أعمالكم هىالتىتتحدث عنكم كما تتحدث الأشجاروالثمار عنىولا تكن أعمالكم ضجيجاً من الأقوال كأمواج البحار التى لا تنبت الأشجار ولا تثمر الثمار .

أطلب إليكم أن تكونوا أوفياء إن آباكم يضرب به المثل فى الوفاء إن (وفاء النيل) يعرفه العالم كله لا يمنعنى عنه مانع ولا يحول بينى وبينه حائل.

إن أطلب إليكم أن تكونوا نافعين لا مناظر كل ما فيها أشكال وألوان إننى وأنا أبوكم أجوب النواحى وأرحل إلى هنا وهناك لينتفع بى الإنسان والحيوان والنبات فأنا مع هؤلاء سر الحياة وسر الازدهار .

(يا أبناء النيل ، يا أبنائى فى مصر والسودان أطلب إليكم أن تؤدوا رسالتكم فى الحياة كما أؤديها فالولد سر أبيه)(١) .

يترنم المقال بروح وطنية تشدو بأصالة مصر فى المجال الاجتماعى الأخلاقى الوطنى وقد جعل الكاتب نهر النيل راوياً لهذه المنزلة الشريفة التى تنبثق منها أنوار الفضائل وأعظمها فضيلة الاتحاد والإصرار والتحدى مع

---

(١) مع المجتمع ص٧٣ : ٧٤ .

العزيمة الواعية إلى جانب الاتزان الاجتماعى الذى ينشر الرقى الأخلاقى يضاف إلى هذا ما تتزين به مصر من وفاء تغرد به الدنيا .

وينادى الكاتب بلسان النيل أبناء مصر نداء الرجاء فيحثهم على استمرار العطاء الذى تميزت به مصر منذ عهدها بالحاة .

ومتذوق المقال يدرك ما تمتع به من جودة العرض وحيوية الصور حيث صور المنشىء النيل بالأب المتزن الواعى الخلوق الذى يتحدث مع أولاده حديث الود والنصح الرشيد وقد أجاد الكاتب فى مقولته (فالولد سر أبيه وأبناء النيل أولى الناس بأن يكونوا مثل أبيهم النيل) ومنبع الإجادة من العبارة (سر أبيه) التى أوحت بما للنيل من مكانة عظمة ومنزلة شريفة يجب أن يتزين بها أباء النيل ألا وهو خلود العطاء ونبل الكرم كما أجاد حينما جعل دعوة الاتحاد بلسان النيل بهذا التصوير الجيد (وهل أنا إلا قطرات صغيرة حينما اتحدت كونت هذا النهر الكبير ؟ وهل أنا إلا قطرات ضعيفة حينما اتحدت كونت هذا النهر القوى المتدفق) والصورة تحث المصريين على الاتحاد فيما بينهم كما تحثهم على الاتحاد بينهم وبين العرب والعالم الإسلامى حتى تصبح أمة الإسلام بقيادة مصر السراج المنير الذى يمد العالم بنور الهدى ورايات الحضارة ويبين الكاتب بذكاء تصويرى أثر الاتحاد العربى الإسلامى فيصور هذا من خلال حديث النيل الذى بين كيفية تكوينه المهيب فقد كان قطرات صغيرة ضعيفة اتحدت فأصبح لها هذا الشكل العظيم القوى المتدفق ووصف الكاتب النهر بالقوى المتدفق يرمى إلى أن اتحاد العرب والعالم الإسلامى يشكل منهم قوة عظمة لها هيبتها حيث يقدرها العالم ويحترم منزلتها ويسعى لتحصيل ثمار الخير منها – ولفظة المتدفق توحى بما للاتحاد العربى الإسلامى من عطاء متجدد يفيض على العالم بالخير كما أن

لفظة متدفق بما لها من اندفاع فـى الحركـة ومـا لهـا مـن رنيـن صوتـى قـوى توحى باليمن المتكاثف الغزير المتصل .

وأبدع كاتبنا حينما تحدث بلسان النيل عن التقدم إلى الأمام حيث صـور حركة النيل بحاسته المرهفة فقال (إننى أسير دائماً إلى الأمام ما رجعت يوماً ولا ساعة ولا لحظة إلى الوراء فليكن شعاركم فى كـل أعمـالكم إلـى الأمـام) والمتأمل لحركة النيل يجد أنها تتحرك إلى الأمام ولا يمكن أن تتحرك أمواجه إلى الوراء مهما كان عنفوان الرياح والكاتب بهذا يحث المصريين على طلـب العلا والصمود فى وجه الشدائد بعزة وكبرياء وعزيمة فلا يجوز للصعاب أن تحبط إرادتهم مثل حركة ماء النيل فهى دائماً للأمام ولا يمكن تحويل حركتهـا للوراء ولهذا يجب على الأبناء التمسك بمنهج الأب الذى يتجلى فى استمرار الصمود حتى أصبـح سـمة طبيعيـة لـه وفطـرة فـى تكوينـه شـهدت بهـا الدنيـا فحركـة النيـل إلـى الأمـام طبيعيـة وكذلـك يجـب علـى أبنـاء النيـل الاتصـاف بالتحدى الشريف والإصرار على السير إلى الأمام حتى تصبح حركة سيرهم إلى الأمام طبيعية يشهد بها العالم بأنها حقيقة غريزية وطبيعية ثابتة لا تغيرها الظروف وبلغ الكاتب ذروة جماله التصويـرى فـى لوحتـه التـى وردت بلسـان النيل (أطلب إليكم أن لا تحول العوائـق التـى تظهـر فـى سـبيلكم بينكـم وبيـن الوصول إلى غايتكم بل أطلب إليكم أن تزيد هذه العوائق فـى سـرعة سـيركم نحو أهدافكم فإن الشلالات التى أمـر عليهـا نحـو غـايتى انحـدر مـن فوقهـا لا اتهيب الهوات التى خلقها إن إقدامى على الانحدار من فوقها يزيد فى سرعتى ويقربنى من الوصول إلى غايتى) .

لقد اسـتطاع الكـاتب تجسـيم الصعـاب بصـورة حسـية واقعيـة ملموسـة فتحدث بلسان النيـل بـأن الشـلالات لا تحـول مـرور مـاء النيـل بـل تزيـد مـن

سرعته حتى يصل إلى غايته المنشودة ولعل الكاتب يحث أبناء مصر على التصدى لعقبات العدو والتغلب على العوائق التى يبثها فى طريق تقدمهم ويذكرهم بصورة النيل الذى يتحدى الشلالات التى تشبه صعاب طريقهم عليهم التمسك بمنهج النيل حيث يضاعف من سرعته ليحقق غايتهم ولهذا يجب على أولاد النيل التمسك بالمنهج ومضاعفة البذل والإصرار والرغبة الملحة فى تحصيل الغاية والإسراع فى أخذ قرار التصميم .

وجميل من محمد الأسمر دعوته لأبناء النيل بضرورة التزين بالصبر والعمل بصمت (أطلب إليكم ألا تتخلقوا بأخلاق البحار الصاخبة المضطربة بل أعملوا أعمالكم فى وقار واتزان .. اجعلوا أعمالكم تتحدث عنكم كما تتحدث الأشجار والثمار عنى ولا تكن أعمالكم ضجيجاً من الأقوال كأمواج البحار التى لا تنبت الأشجار ولا تثمر الثمار) والصورة متشابكة الملامح حية العناصر حين يستحضر المتذوق هيئة حركة ماء النيل وحركة أمواج البحر يجد أن حركة ماء النيل هادئة يداعب النسيم صفحته مداعبة لطيفة باسمة رشيقة أما موج البحر فيصدر أصواتاً عالية مطموسة الحروف توحى بثورة عارمة عقيمة ويمعن الكاتب فى بيان صفات النيل المتمثلة فى الصبر والاتزان والشموخ والعطاء فيتحدث بلسان النيل الذى لا يشير إلى آثاره بل إن أعماله تدل على منزلته حيث تتغنى الأشجار والثمار وتغرد الدنيا بما له من آيات النعم ورايات العطاء ولعل كاتبنا يحذر من السلوك العقيم الذى يتمثل فى أصوات صاخبة تعلن عن محور أعمال عدة ولا يجد لها الناس سبيلا مما يدل على الثرثرة والسراب ويهدد بالتدهور والتخلف عن ركب الحضارة .

وجميل من الأسمر جعله الأشجار والثمار تتحدث عن فضائل النيل وفى هذه الصورة حث لأبناء مصر على التفوق فى جميع ميادين الحياة حتى تتغنى

آثار التفوق والتميز بدورهم الإيجابى وتعلن ما لهم من أسرار الاكتشافات والمخترعات كما تتحدث الأهرام عن قدرتهم فى مجال العمران ومهارتهم الهندسية وكما تتحدث الحياة عن سر استمرارها وتعلن أنه يكمن فى النيل وكاتبنا يتمنى تفرد أبناء النيل فى كل مجال حتى تصبح مصر مصدر العطاء ونبع الخير .

وقد أعجبنى من الكاتب دعوته إلى الوفاء وربطة بين هذه الصفة النبيلة وبين النيل (أطلب إليكم أن تكونوا أوفياء إن آباكم يضرب به المثل فى الوفاء [إن وفاء النيل] يعرفه العالم كله) والوفاء الذى يهدف له الكاتب يكمن فى الحفاظ على منهج الأب والتمسك بجميع نصائحه التى تتمثل فى الاتحاد والإصرار والتحدى فى تحقيق غاية المجد بالعمل الجاد المثمر الذى يتزين بالتفكير العميق الذى يرمى إلى الرغبة فى الابتكار والإبداع حتى يأخذ العالم منا سبل هدايته .

وجميل من الأسمر دعوته التى تنادى بضرورة مماثلة وفاء الابن لوفاء الأب فوفاء النيل يرمز إلى الالتزام المثمر والعطاء المتجدد وهكذا يجب على الأبناء الإخلاص لأبيهم والسير على سنته التى يجسدها كرم العطاء وصدق الالتزام وغزارة الخيرات .

وقد وصف كاتبنا الأب بالوفاء وطالب الأبناء بأن يكونوا أوفياء والمراد مضاعفة الأبناء للخيرات والبركات فلفظة أوفياء ترمى إلى الزيادة بغزارة أما الوفاء فيهدف إلى الالتزام وكأن الكاتب ينادى أبناء مصر فيحثهم على الوفاء المتمثل فى منهج الأب الملتزم مع تميزهم بالبناء الشامخ والعطاء المتجدد إنه نداء لأبناء مصر بضرورة استمرار المنهج ومضاعفة بركاته وخيراته .

وقد أبدع وأجاد وأحسن الأسمر فى قوله بلسان النيل : (أطلب إليكم أن تكونوا نافعين لا مناظر كل ما فيها أشكال وألوان إننى وأنا أبوكم أجوب النواحى وأرحل إلى هنا وهناك لينتفع بى الإنسان والحيوان والنبات فأنا مع كل هؤلاء سر الحياة وسر الازدهار) . والصورة نداء للعمل والابتكار والاختراع ودعوة لتنشيط حركة البعثات والاطلاع على أحدث الأسس والقواعد والأصول العلمية فى العالم مع الاحتفاظ بالأصالة المصرية المتمثلة فى القيم الأخلاقية والتراث العلمى والأدبى الموروث والمتأمل لأبعاد العبارة يستشعر نبرة الحث والتشجيع لأبناء مصر أبناء النيل ليصبحوا رواد العالم فى كل مجال وهو ما هدف إليه الكاتب بلفظة (نافعين) أما قوله (لا مناظر كل ما فيها أشكال وألوان) فهو تحذير من التقليد والمحاكاة لما فيهما من سلبية تقضى على تميز الأصالة المصرية .

والمتذوق لعبارة (إننى وأنا وأبوكم أجوب النواحى وأرحل هنا وهناك لينتفع بى الإنسان والحيوان والنبات) يجد أنها تحذر من حب الذات وتحث على الإيثار والإيجابية التى تثمر الخير فالنيل يجوب النواحى لينتفع به المخلوقات وكذلك أولاده أبناء مصر يجب عليهم تحقيق الخير للجميع وكاتبنا بهذا يذكر أباء النيل بتاريخهم العظيم ومجدهم التليد فقد كان أجدادهم مصدر النور للبشرية كما كان أبوهم النيل منبع الأنوار للعالم فمن الوفاء التمسك بالإيفاء بسنتهم والسير على منهجهم فيكون الأبناء روافد الخيرات ومنابع العطاء وأصل الحضارات وسر سعادة الأمم والمتلقى لعبارة النيل (فأنا مع كل هؤلاء سر الحياة وسر الازدهار) يدرك أن كاتبنا يمعن فى تشجيع أبناء مصر ويغرس فى وجدانهم بذور العزة التى تطرح ثمار الكبرياء ليكونوا للعالم غصون الشموخ وشموس العلا .

ويختم كاتبنا المقال بنداء لأبناء مصر والسودان يحثهم فيه على التمسك بالأمانى وأداء الرسالة ليتصفوا بالوفاء مثل أبيهم فتغرد الدنيا لهم بقيثارة القيم أنشودة الأوفياء (يا أبناء النيل يا أبنائى فى مصر والسودان أطلب إليكم أن تؤدوا رسالتكم فى الحياة كما أؤديها فالولد سر أبيه) . وقد ختم مقالة الجيد بعبارة (سر أبيه) ليمعن فى إثارة مشاعر الإرادة والتحدى والعزيمة والتصميم والعزة والكبرياء وجميل من الأسمر جمعه بين مصر والسودان ولعله يرمى إلى الاتحاد العربى الإسلامى .

والمقال جيد المعانى واضح الصور متناسق الفقرات يتمتع بالقدرة على الدلالات الاجتماعية والوطنية والوجدانية حيث وفق الكاتب فى عرض القضايا العامة والخاصة التى تضمنها المقال التى أوحى بها عنوان المقال (النيل يخاطب أبناءه) .

ويتنهد كاتبنا بعد مقاله السابق الجيد فيتأمل مصر الجميلة بما لها من أرض سندسية وسماء صافية وشمس ساطعة فتتجلى له أسوان المشتى العالمى البديع فيناجى ليلها ويداعب نجومها ويهمس لفجرها ويحتضنها بأشواق الحنين من خلال مقال (أسوان الجميلة) فقال :

(كنت أظن كما يظن كثيرون غيرى أن مدينة أسوان مدينة عابسة المنظر يملؤها الغبار وتكتنفها القفار ولكنى مع هذا الظن أحببت أن أقيم بها يوماً أو يومين وأنا مار بها إلى السودان وكان ذلك فى سنة ١٩٤٦م . وصلت إليها ظهراً فى يوم من أيام شهر يناير وهو من أشهر البرد القاسية فى مصر فوجدت مدينة دافئة تطالع زائرها بوجه متهلل وثغر باسم فسرنى ما رأيت وعجبت لما كنت أظن ولما آويت إلى الفندق ونفضت عنى غبار السفر رأيت أن استجم هذا اليوم فقضيته بين القراءة والنوم حتى إذا ما لاح فجر اليوم

الثانى فتحت نافذة غرفتى ونظرت إلى الجانب الغربى لأسوان وهو يستيقظ مع الفجر وإذا كان انحسار الليل عن كائن من الكائنات علامة لاستيقاظه فقد كان إذاً أول ما استيقظ هنالك الجبل الجاثم على ضفة النيل ثم استيقظ النيل مبتسماً ابتسامته العذبة الهادئة وبدا نخل الجزيرتين وهو واقف وقفته العسكرية كأنه لم ينم وكأنه قضى الليل واقفاً يحرس الجبل والنيل حتى لتخيلته أنه بعد ما أدى واجبه وبعد ما لاح الصباح سينصرف لينام ولكأن العالم كان مسدولاً عليه كلل بعضها فوق بعض حتى إذا ما لاح الفجر أخذت هذه الكلل ترتفع واحدة بعد واحدة وما أجمل أسوان حينئذ وهى تبدو شيئاً فشيئاً والفجر يرفع بيده الرفيقة الرقيقة كلل الليل الأخيرة عنها كأنها الحسناء فى غلائلها السوداء يجردها العاشق منها غلالة رويداً رويداً .

إن الجماد لم يستيقظ وحده فى هذه الساعة الجميلة بل استيقظت الأصوات فهذه العصافير على أشجار النهر تقرأ أورادها وتعزف ألحانها وهذا شيخ يسعل سعال الشيوخ يقرع بعصاه الأرض فى طريقه إلى المسجد وهذا بائع اللبن ينادى عليه متجولاً جرياً وراء رزقه وكلما قاربت الشمس طلوعها من الجانب الشرقى لأسوان تهلل الجانب الغربى منها وبدا على وجهه ما يبدو على وجه المحب المرتقب يرى مقدمات مجىء حبيبه ولا يراه .

فالجبل قاعد قعدة الشيخ الوقور المنتظر ! والنخيل واقف وقفة الجندى الذى يعرف واجبه والنيل ينقل خطاه نقلاً خفيفاً كأنه لا ينقلها ! والعصافير تقرأ أورادها وتعزف ألحانها! ثم لاحت الشمس التى من أجلها كل ذلك وحيت بأشعتها الباسمة هذا العالم الذى ينتظرها فسرت الابتسامة وهى سحر ساحر فالجبل ذهب أصفر والأرض قطع من العنبر والنبات زمرد أخضر أو عقيق أحمر والنيل مرآة من البلور أو فيض من النور كل ذلك والعصافير تقرأ

أورادها وتعزف ألحانها وسمعت صدى قارىء يقرأ القرآن من مذياع بعيد فتذكرت قوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأشرق بنور ربها ﴾ فرأيت فى هذه الآية الكريمة جمالاً غطى على كل ما أراه من جمال ونوراً يغرق فيه كل نور !!

ثم نظرت إلى ما هو أمامى نظرة أخرى فإذا جزيرة الفيلة وخلفها جزيرة الملك يبدوان كأنهما جزيرة واحدة وكأنهما معاً مكان رحيب جميل أقامت فيه الطبيعة حفلاً باهراً كهذه الحفلات الساهرة التى يشاهدها سكان العواصم الكبيرة!! ونظرت من نافذة غرفتى إلى شجرة عارية من أوراقها ما عدا رأسها فلاحت لى كأنها راقصة هذا الحفل ! وكما أن سيدات الحفلات الساهرة يتأنقن فى اختيار ثيابهن وتصفيف شعورهن فكذلك بدت لى أشجار الجزيرتين وهى فى حللها البديعة برءوسها الجميلة فالنخيل الفارع ينظم رأسه على الطريقة الغلامية الجديثة (آلاجرسون) وغيره من الأشجار يرسل شعره إرسالاً على الطريقة القديمة وهناك أشجار لاصقة بالأرض كأنها أطفال جاءت مع أمهاتها فهى جالسة تشاهد هذا الحفل مأخوذة بما تراه !!

ثم إنه ليخيل إليك الفينة بعد الفينة أن الجبل هناك سينهال على الجزيرتين وعلى النهر وإنك لتظنه لجة كبيرة من الرمل ظلت تتماوج فى صحراء ليبيا لتقذف بها الصحراء على أسوان ولكنها حينما وصلت الشاطىء الغربى للنيل وقفت وقفة مفاجئة وتجمدت مكانها فهى لا تستطيع العودة إلى صحرائها ولا تستطيع المضى أمامها !!

لكأن النخيل القائم ديدبان يحرس الجزيرتين والنيل معاً فحينما رأته هذه الموجة وقفت أمامه جامدة . أو أنها صادفت هناك طلسماً سحرياً خفياً يقوم عليه النخل حارساً فأوقف هذا الطلسم تقدمها الجبار أو أن هذه الموجة المكتسحة رأت هذا الجمال فى هذا الحفل الرائع فشغلها ما رأته عن المضى

فى سبيلها فهى مقيمة هنالك ما أقام هذا الحفل ؛ كل ذلك والنيل يروح ويجىء فى وقاره المعروف وابتسامته العميقة .

ولمحت رجلاً يمشى على الشاطىء ولمحت ظله فى الماء أكبر منه فعجبت للرجل وظله عجبت للشىء كيف يكون أكبرمنه لا شىء ثم كيف يكون أقدر منه فهو يغوص ماشياً فى الماء والرجل بطبعه لا يغوص ماشياً فيه !! وفى صباح يوم ركبت السفينة من الشاطىء الشرقى للشاطىء الغربى لأرى عن قرب جزيرة الفيلة وجزيرة الملك والأولى سميت بذلك لأن لديها فى اليم قطعاً كبيرة من حجارة الجرانيت أشبه الأشياء بقطعان من الفيلة تستحم فيه ! ويسكن هذه الجزيرة من النوبيين ما يقارب الألفين من النفوس وجزيرة الملك عامرة بأنواع أشجار المناطق الحارة وبالأشجار الطيبة وهى فى وسط الماء كالباخرة العظيمة صدرها نحو الجنوب وعلى هذا الصدر درع عظيمة من حجر الجرانيت ولولا هذه الدرع ذهبت الجزيرة وأكلها النيل وأمام هذه الدرع قطع كبيرة فى الماء من الحجارة تخفف وقع التيار على الدرع نفسها وكذلك جزيرة الفيلة يحميها من تيار النيل قطع الجرانيت المحيطة بها والحقيقة أنه لولا هذه الأحجار لما كانت هذه الجزر لأن الماء المندفع يرمى بطميه على جانبى الحجر وخلفه فيحميه الحجر بعد ذلك ، ولا يدفعه التيار فتتكون الجزر .

وفى جنوب أسوان على رابية كبيرة تقوم حديقة (الأميرة فريال) وهى متنزه جميل على جزء من النيل محصور بين المنتزه على الشاطىء الشرقى والمتحف الفرعونى المقام هنالك على الشاطىء الغربى أمام المنتزه وهذا الجزء المحصور من النيل أشبه بعرين الأسد سكون رهيب يزيد فى رهبته انخفاض النيل هنالك بالنسبة لما يحيط به من الشاطئين المرتفعين والصمت

فى هذه الناحية أشبه بصوت ينطوى على أسرار رهيبة وكأن ساحراً من كبار السحرة له فى هذه الناحيـة كنز عظيـم وكـأن الصخـور الجاثمـة هنـا وهنـالك طلاسم وضعها الساحر لحفظ هذا الكنز أو عقبات مبثوثة لعرقلة الباحثين عنـه بل إن هذه العقبات ربما عرقلت سير الخيال الباحث عن أسرار هذا المكان العجيب !

وفى هذا الصمت الشامل كنت استمع إلـى صـوت نـاعورة يسـبح خافتاً من الشاطىء المغربى إلى الشاطىء الشرقى كأنه يهمس فى أذنيك محـذراً أن تحاول معرفة أسرار هذا المكان الصامت ! وربما غـرد قريبـاً منـك عصفـور صغير هو أيضاً يحذرك فى أدب ولطف !! وفى هـذا الصمـت الشـامل تسـمع صدى صوت العمال وهـم يضربـون بمعـاولهم ينقبـون عـن الآثـار الفرعونيـة بالشاطىء ويترنمون بأهازيج لهم كأنهم يـترنمون بألحـان كهنوتيـه يتقـون بهـا لعنة الفراعنة التى ربما أغضبها هذا الفضول وهذا التنقيب .

جو كله سحر وخيال فهذه الأحجار الشبيهة بالفيلـة أو الشـبيهة بالأسـود طلاسم على الكنز وهذه الأشجار المديـدة القامـة حـراس قـائمون علـى حفظـة وهذا العصفور المتنقل من صخرة إلى صخرة أو من شجرة إلـى شـجرة قـائم برسالة تتعلق بأمر من أمور هذا الكنز وهذه النسـمة الخفيفـة روح مـن أرواح الفراعنـة حتـى زواق النيـل فـى هـذا المكـان لـو تأملتهـا وهــى راسـية علــى الشاطىء أو هى ذاهبة جائية لرأيت فى أشرعتها المنصوبة آذاناً ممدودة تلتقط ما عساه أن يقال عن هذا الكنز أو عن حفظته !!

وفى هذا الجو الخيالى الساحر أحببت أن ألقـى بهمومـى فـى لجـة النيـل الصامتة وكأنها أحست بذلك فرأيت وجه الماء وكأنـه انقلـب إلـى صفحـة مـن الفولاذ المصقول مهما تلق بشىء عليها فلـن يغـوص فيهـا ! وخيـل إلـى أننـى أغفيت إغفاءه سمعت فيها النيـل وهـو يقـول لـى فـى رقتـه المعروفـة ووقـاره

العميق أمورك التى لا يتسع لها صدرك لا يتسع لها صدر غيرك !! لا تكن صاخباً كالبحر وكن صامتاً كالنيل !!

ومكثت هنالك فى هذا الجو الخيالى الساحر حتى رأيت الشمس وهى تغرب .. إنها ليست تغرب هنالك فى عين حمئه ولكنها تبدو كأنها ارتطمت بالرمال فاحترق مصباحها وبدا السحاب كأنه دخان هذا الاحتراق .

نسيت نفسى وتلاشيت فى هذا الجو المحيط بى ولكن صوتاً عالياً أكثر سحرًا مما يحيط بى رد إلى نفسى وأخرجنى مما كنت فيه ذلك هو صوت المؤذن بآذان المغرب يحمله إلى الهواء من نجع الشيخ دياب فيملأ أذنى ونفسى بقوله (الله أكبر الله أكبر) نعم الله أكبر مما أراه بل الله أكبر من كل شىء فهو سبحانه وتعالى خالق كل شىء ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(٢).

يتمتع مقال (أسوان الجميلة) بلمسات وصفية بديعة تكون منه لوحة حية حيث تحرك الصور خيال المتلقى وتداعب عواطفه وتناجى مشاعره وقد استطاع الكاتب بمهارته الفنية جذب المتذوق من العبارة الأولى للمقال (كنت أظن) مما يجعل المتلقى يستفهم عن سبب الظن الذى كشف الكاتب النقاب عنه فذكر أنه كان يعتقد فقدان أسوان للجمال حتى زارها فوجدها باسمة الثغر دافئة الأشواق مما حرك أحاسيس الكاتب فوصفها من وحى عواطفه ورؤيته البصرية المحبة فبين ملامح جمالها وآيات سحرها النابعة من مظاهر الطبيعة الخلابة التى تبرز من هدوء ليلها ودفء نهارها الذى يبتسم بعذوبة لنيل وديع يتحرك برشاقة إلى الأمام لتقديم تحيته التى تجود بالحياة الباسمة للإنسان والنبات والحيوان والجماد ثم ينظر إلى السماء فيقدم لها تحية الإجلال فتحتضنه بعطر الثناء وتغرد بما له من بركات .

---

(٢) مع المجتمع ص٧٥ : ٨٢ .

ويصف كاتبنا بقلمه الساحر طبيعة تغريد العصافير التى تناجى الأشجار والنخيل والجزر والجبال مناجاة التسبيح للخالق العظيم كما يصف طبيعة الجبال الشكلية والوجدانية ويبين ما تحتوى عليه جزيرة الفيلة وجزيرة الملك من جمال سحرى ويمتد بصره فيصف حديقة الأميرة فريال ويغوص بخياله فيكشف أسرار الشاطىء الغربى والشرقى ويتغنى بما فيهما من مشاهد ومناظر بديعة ويعلن رغبته فى تفريغ شحنة آلامه فى أعماق هذا الجمال السحرى الذى يشكل النيل منبعه ويصرح الأسمر برفض قبول النيل للشكوى التى تجلب التخلف عن ركب الحضارة ويختم الكاتب مقاله الوصفى الرائع بجلال التكبير الذى يحفر فى النفوس عظمة الله المطلقة التى نسجت خيوط هذا الجمال السحرى الذى نجده فى الكون .

والمتذوق للمقال يدرك درجة تمتعه بالصور الحية التى وصفت الملامح الإبداعية لمشاهد الجمال فى أسوان وقد استطاع كاتبنا بث الروح فى المقال من خلال التسلسل الحى لفقراته حيث حدد بذكاء ملامح وصفه لمظاهر الحياة من ليل وفجر ونهار واشجار ونخيل مع وصف عذب لسحر النيل (حتى إذا ما لاح فجر اليوم الثانى فتحت نافذة غرفتى ونظرت إلى الجانب الغربى لأسوان وهو يستيقظ مع الفجر وإذا كان انحسار الليل عن كائن من الكائنات علامة لاستيقاظه فقد كان إذاً أول ما استقيظ النيل مبتسماً ابتسامته العذبة الهادئة وبدا نخل الجزيرتين وهو واقف وقفته العسكرية كأنه لم ينم وكأنه قضى الليل واقفاً يحرس الجبل والنيل حتى لتخيلته أنه بعد ما أدى واجبه وبعدما لاح الصباح سينصرف لينام) توضح خطوط اللوحة السابقة علامات قدوم الفجر فالتعبير (لاح) يوحى بتباشير الخيط الأبيض الذى نسج ثوباً من الضياء الخافت وقد كشفت عبارة (يستيقظ) بجلاء درجة انحسار الليل

وذوبانه وانسلاخه حثيثاً ليكشف للناظرين آيات السحر التى تتمتـع بهـا أسـوان ويشير الكاتب إلى أول آيات السـحر التـى تتـاجى النظـارين وتتمثـل فـى هيئـة الجبل الذى يتجلى بشموخ يعلـن عـزة وادى النيـل وكبريـاء أبنـاء مصـر وقـد وصفه الكاتب بقوله (الجبل الجاثم على ضفة النيل) والمراد أن الجبل يتمكن من جلسته ويصـر علـى لـزوم المكـان بعزيمـة وإرادة والكـاتب يوحـى لأبنـاء مصر بطبيعة بلادهم وجميـل وصفـه للجبل بالعبـارة (استيقظ هنـالك الجبـل الجاثم) حيث جمع بين اليقظة التى توحى بتغير الزمان وبين جثم التى توحـى بلزوم المكان وينبع الجمال من الحركة والثبات ومن الزمان والمكـان ويرمـى كاتبنا بضرورة الصحوة المصرية التـى ترفـع رايـات المدنيـة والحضـارة مـع التمسك بعزة مصر والحفاظ على منزلتها والارتفاع بها والعطاء لها فلا يجوز لنا أبناء مصر تركها والذهاب إلى مكان آخر فى العـالم بقصـد هجرهـا فنحـن مثل الجبل الجاثم فى اليقظة والشموخ والوفاء وتتحرك ملامح الصـورة لتبيـن النيل يبتسم لرواده ابتسامة العطاء والرضا عبر تحية رقيقة كما يظهر النخيـل بوقفة الكبرياء والشرف والقوة يحرس النيل والجبل وبديع من الكـاتب وصـف النخيل بالوقفة العسكرية الجـادة التـى تحمـى بكرامـة وشـجاعة وحـب الجبـل والنيل ولعل الأسمر يرمز بالجبل إلى صمـود المصـرى وبـالنيل إلـى العطـاء المتجدد الذى تتميز به بلادنا الحبيبة .

وبديع من كاتبنا تصويره لكيفية رحيل الليل فى تعبيره : (ولكأن العـالم كان مسدولاً عليه كلل بعضها فوق بعض حتى إذا مـا لاح الفجـر أخـذت هـذه الكلل ترتفع واحدة بعد واحدة وما أجمل أسوان حينئـذ وهـى تبـدو شـيئاً فشـيئاً والفجر يرفع بيده الرفيقة الرقيقة كلل الليـل الأخيرة عنهـا كأنهـا الحسـناء فـى غلائلها السوداء يجردها العاشق منها غلاله غلاله) فقد استطاع بقلمه تصوير

الهيئة والشكل وأحسن عندما جعل الفجر يرفع بيده الرقيقة ظلمة الليل وتجلت روعة الصورة لما فيها من حيوية فاضت بجعل الكاتب ضوء النهار كالحسناء التى تشرق رويداً رويداً لعاشقها والصورة متشابكة الأحاسيس متدفقة المشاعر ضاعف من سحرها بث الكاتب عاطفة الشوق للفجر الذى ينبض بحيوية المشتاق.

وقد صور محمد الأسمر جمال الأصوات الصادرة من العصافير وقت الفجر وهيئة الجبل والنيل فى هيئة بديعة المنظر (فالجبل قاعد قعدة الشيخ الوقور المنتظر والنخيل واقف وقفة الجندى .... والنيل ينقل خطاه نقلاً خفيفاً كأنه لا ينقلها ! والعصافير تقرأ أورادها وتعزف ألحانها ..) والمتذوق للصورة السابقة يشعر بجمالها وسحرها الذى تجسد فى قوله (النيل ينقل خطاه نقلاً خفيفاً كأنه لا ينقلها) حيث بينت الصورة طبيعة حركة النيل اللطيفة والحركة يستحضرها المتخيل عندما يتصور اهتزاز صفحة ماء النيل ويربطها بحركة الطفل الذى يحبو .

كما أبدع فى تصوير صوت العصافير فبين رقتها وجمالها الانسيابى البديع واستطاع بقوله (تعزف) إبراز الإبداع الصوتى الذى يتجلى فى تنسيق النغمات وانسجام النبرات .

وينقل الكاتب آلة تصويره بعد ذلك إلى إبراز ملامح النهار وعناقه لمظاهر الكون عندما (لاحت الشمس التى من أجلها كل ذلك وحيت بأشعتها الباسمة هذا العالم الذى ينتظرها فسرت الابتسامة وهى سحر ساحر فالجبل ذهب أصفر والأرض قطع العنبر والنبات زمرد أخضر أو عقيق أحمر والنيل مرآة من البلور أو فيض من النور ..... فتذكرت قول الله تعالى : ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ فرأيت فى هذه الآية الكريمة جمالاً غطى على كل ما أراه من جمال ونوراً يغرق فيه كل نور) فقد لاحت الشمس

بأشعتها الباسمة وحيت من العلياء كوكب الأرض وقد أجاد الأسمر عندما جعل تحية الشمس تشرق ببسمة الألفة والود والسحر فرد كوكب الأرض التحية ببسمة البشرى وقد أبرز الأسمر سحر ابتسامة الشمس على الجبل الذهبى والأرض السندسية التى تتراقص فيها الثمار بأشكالها البديعة وألوانها التى تثير البهجة وجميل منه تصوير النبات بالزمرد والعقيق وجميل أيضاً تصويره لصفحة النيل بالبلور وفيض النور والأجمل قوله بعد هذا الوصف فتذكرت قوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ فرأيت فى هذه الآية الكريمة جمالاً غطى كل ما أراه من جمال ...) والمتلقى الكريم للفقرة السابقة يتمتع بالوصف الذى يعتمد على اللون والشكل والحركة والصوت ويثير فى النفس البهجة والسرور الدنيوى وعندما يتذكر كلام الحق ويستحضر جلال كلماته ويربط بينهما وبين ما يرى من المنظر الحسن يستشعر بوجدانه الطاهر أن كل جمال ملموس يدل على قدرة الله المطلقة وأن كل نور ينبثق سحره من نور الله تعالى الذى تكمن أنوار السموات والأرض فى رحاب رضوانه وقد أعجبنى تعبير الكاتب عن الآية الشريفة بأن جمالها غطى كل جمال ونورها يغرق فيه كل نور حيث فاضت مشاعره فى عالم الملكوت وذابت نفسه فى عالم الرضوان الأعلى الذى تهفو له الأرواح المؤمنة حباً لله هنا يغرق كل جمال دنيوى ويتلاشى سحره لأنه يمس الرؤية البصرية ويثير إعجابها أما كلمات الله الشريفة فتمس الوجدان والروح فتسمو فى إشراقات ربها الذى أبدع كل شيء خلقه وتأتى مرحلة تلاشى الجمال الدنيوى من التأمل المصحوب بالإيمان فالإنسان يتأمل ويتعجب وينطلق لسانه تبارك الله فإذا وصل إلى ترديد الثناء على الحق وأدرك أنه سبحانه اصل الجمال غاصت كل آيات الجمال واتجه القلب لصانعه ومبدعه .

والمتذوق لمقال (أسوان الجميلة) يجد دقة وصف الكاتب لجزيرة الفيلة وجزيرة الملك من خلال تجسيده للمناظر والمشاهد وبث الحياة فيها بأسلوب بديع يحرك خيال المتلقى ففى وصفه لهما قال :

(كأنهما جزيرة واحدة وكأنهما معاً مكان رحيب جميل أقامت فيه الطبيعة حفلاً باهراً كهذه الحفلات الساهرة التى يشاهدها سكان العواصم الكبيرة !! ونظرت من نافذة غرفتى إلى شجرة عارية من أوراقها ما عدا رأسها فلاحت لى كأنها راقصة هذا الحفل : وكما أن سيدات الحفلات الساهرة يتأنقن فى اختيار ثيابهن وتصفيف شعورهن فكذلك بدت لى أشجار الجزيرتين وهى فى حللها البديعة برءوسها الجميلة فالنخيل الفارع ينظم رأسه على الطريقة الغلامية الحديثة (آلاجرسون) وغيره من الأشجار يرسل شعره إرسالاً على الطريقة القديمة وهناك أشجار لاصقة بالأرض كأنها أطفال جاءت مع أمهاتها) .

والصورة السابقة لوحة بديعة أجاد الكاتب فيها تركيز الضوء على هيئة المناظر الطبيعة وتقريبها للمتلقى فى أشكال ملموسة فقد أعجبنى تصويره للأشجار والنخيل بهيئة نساء الحفلات الساهرة وأبدع عندما ربط رءوس الأشجار برءوس النساء الجميلة فحرك الخيال لتصور هيئة ما يريد من مناظر بديعة متنوعة ويغوص المنشىء فى وصفه لأسوان الجميلة التى ملكت وجدانه فعشق الليل والنهار والنيل والجزر والنخيل والأشجار والعصافير والحدائق الغناء ورغب فى بث همومه لهذه المشاهد واختار النيل الذى يجود بالعطاء (فى هذا الجو الخيالى الساحر أحببت أن ألقى بهمومى فى لجة النيل الصامتة وكأنها أحست بذلك فرأيت وجه الماء كأنه انقلب إلى صفحة من

الفولاذ المصقول مهما تلق بشيء عليها فلن يغوص فيها ! وخيل إليّ أنني أغفيت إغفاءه سمعت فيها النيل وهو يقول لي في رقته المعروفة ووقاره العميق أمورك التي لا يتسع لها صدرك لا يتسع لها صدر غيرك لا تكن صاخباً كالبحر وكن صامتاً كالنيل !!) .

والصورة ساحرة توحي بمشاعر فياضة وأحاسيس مرهفة كما توحي بأن النيل صاحب عطاء وشموخ وصمود ولهذا أراد كاتبنا تفريغ همومه في لجته إلا أنه ثار وتبدلت ملامحه وتعبير الأسمر دعوة لأبناء مصر تحثهم على الصبر والعزيمة والتجلد والاتزان .

وقد أبدع المنشيء في تصوير هيئة تبدل صفحة النيل وأحسن في وصفه له بالرقة والوقار .

ويجد المتلقي في هذا المقال الوصفي البديع ما يداعب خياله ويحرك مشاعره ويهز تأمله ليعلن حلول الغروب وتجلي ذلك في قول الكاتب :

(حتى رأيت الشمس وهي تغرب .... كأنها ارتطمت بالرمال فاحترق مصباحها) فالتعبير (ارتطمت) يوحي بعنفوان الاصطدام كما يوحي بنداء الطبيعة للإنسان الذي يردد كل شيء لزوال فعلينا بالصحوة حتى لا نصطدم بالواقع كما ارتطمت الشمس بالرمال فاحترق مصباحها وقد كانت لحظة شروقها عالية شامخة شقت فجر يومها بكبرياء وتربعت على عرش النجوم بخيلاء ثم غاصت في أحضان الغروب بدموع الوداع والصورة جيدة الإيحاء تذكر الإنسان بمراحل عمره كما تذكره بسنة الحياة .

ويذكرني غروب الشمس بغروب الشباب فكما أن لغروب الشمس مظاهره من سحب ودخان فكذلك غروب الشباب وما يصاحبه من احتراق بالوحدة والغربة وما ينتاب الإنسان فيه من شعور بالفناء .

وصورة المنشىء شكلية ووجدانية عميقة الآثار حيث تتحرك بها النفوس المؤمنة إلى مالك الكون الحى الباقى القيوم على أمر عباده فتهتف سبحانك رب المشارق والمغارب وفى هذا الجو النقى السامى ترقى القلوب وتسمو المشاعر وتهفو الأرواح إلى ذكر خالق الجمال فتردد (الله أكبر) وقد عاش محمد الأسمر هذه اللحظات الإيمانية الراقية حيث تشبع بصره برؤية الجمال الباهر الذى جذب حاسة إعجابه ولكن صوت الآذان همس لوجدانه بأن صانع الكون هو المبدع لكل ما يشاهده من جمال وهو أكبر من كل شىء وأن فى ذكره تعالى الرضا والنشوة مما جعله يردد (الله أكبر الله أكبر) سبحانك أنت البديع القدير فقد تمتعت بصيرته بنور ذكر الله فذاب كل جمال أمام قدرة خالقه ويتلاشى كل نور أمام نور ذكره فهو جل علاه أصل النور وصانع الجمال .

والمقال وصفى بديع يموج بالحيوية الناطقة حيث استطاع الكاتب تصوير المشاهد والمناظر وإبراز حركاتها وأشكالها وألوانها واصواتها بحاسته المرهفة ومهارته الفنية المتميزة وقد تجلى فى المقال الصفاء الروحى والطهر الإيمانى المتوج بنور الإسلام .

وتمضى أيام أسوان الجميلة بما فيها همسات وجدانية حالمة ولمحات جمالية ساحرة فيرحل الأسمر إلى وداى حلفا الذى وصفه فى مقال بعنوان **(من الشلال إلى حلفا)** فقال :

(بعد انقضاء عشرة أيام فى أسوان ركبت القطار منها إلى الشلال لأركب (البوستة) إلى وادى حلفا والبوستة هى البواخر النيلية التى تنقل الركاب من الشلال إلى حلفا - هكذا يسمونها - وبعد متاعب بسيطة ومضايقات يسيرة عرفت موضع غرفتى من الباخرة فذهبت إليه ونظمت بعض أمرى ثم غادرت الغرفة وذهبت إلى بهو الباخرة مستلقياً على كرسى مستطيل أنسانى ما لا قيت من متاعب ومن مضايقات وأشعلت سجارتى متأملاً دخانها حيناً وحجارة الشلال حيناً آخر وصفرت الباخرة وتحركت نحو الجنوب فخفق قلبى خفقة لا عهد لى بها .

ومن الشلال ابتدأ النيل يبدو لى على غير ما عهدته فهو من أسوان إلى دمياط أو إلى رشيد يختال فيما وشاه له الشاطئان من حلل كأنها حلل العروس أو ذنب الطاوس ولكنه بدا لى فى المسافة التى صحبته فيها من الشلال إلى حلفا شيئاً غير ذلك فقد لاح مع هدوئه الذى لا يفارقه عباساً رهيباً تحيط به الجبال عن يمينه ويساره كالفارس الغارق فى دروعه أو الأسد الرابض بين غابة . وسارت الباخرة بين صمت شامل لا تسمع فيه إلا صوت محركها يتردد كأنه ترنيمة ابتهال يرجعها عابد خاشع مشى فى معبد إلهه العظيم .

وأقبل الليل رويداً رويدا فكان النيل يزداد جلالاً فوق جلال ورهبة فوق رهبة وكنت أعجب والباخرة تسير بنا فى هذا الليل الحالك وفى هذا النيل الملتوى كالثعبان كيف يرى قائد الباخرة طريقه فى هذه الالتواءات الكثيرة وفى هذه الدياجى المظلمة وإن أقل انحراف للباخرة لا نتيجة له إلا تحطيمها على جبل من هذه الجبال التى تكتنف النيل ذات اليمين وذات الشمال ولكنها الممارسة والمران وللممارسة والمران ما يبدو كأنه معجزة من المعجزات

وبعدما كاد الليل ينتصف عدت إلى غرفتى لأنام بعدما رأيت فى يقظتى ما رأيته من مناظر كانت لدى كالأحلام .

واستيقظت ولاح الصباح باسماً وخيل إلى أن النيل أيضاً يبتسم وشعرت أننى ألفته فى دروعه الجنوبية كما ألفته فى حلله الشمالية ورأيت ماءه يغمر نخيلاً على الشاطئين فقلت لصاحبى وهو من رجال المساحة الموفدين إلى السودان لأمور تتعلق بخزان (مروى) قلت له : ألا ترى جمال هذا النخيل وهو يستحم ؟ فقال باسماً ما أظرفكم أيها الشعراء إن هذا النخيل لا يستحم ولكنه نخيل غريق ! هذا نخيل بلاد النوبة التى غمرها النيل بعد تعلية خزان أسوان وحدثنى صاحبى عن النيل أحاديث شتى فكان مما جاء فى حديثه أنه لولا الشلالات فى طريق النيل لما وصل إلى مصر بهذه السرعة ولا بهذه العذوبة أما السرعة فلأن الشلالات أشبه بالدرج فهو ينحدر عليها من درجة إلى درجة وهذا الانحدار يزيد فى قوة اندفاعه وأما العذوبة فهى نتيجة لهذا الانحدار أيضاً فهو مما يساعد على تجديد الماء وعلى أن يتخلله الهواء .

وقبيل الغروب من ذلك اليوم جنحت الباخرة للشاطىء الغربى أمام معبد (أبى سمبل) وهو معبد منحوت فى الجبل ذو غرف واسعة بناه رمسيس الثانى وعلى جدران هذا المعبد صورة منقوشة تمثل حوادث كثيرة وخليق بالمصلحة التى تشرف على هذه المعابد أن تضع بها لوحات باللغة العربية وغيرها من اللغات الحية ليعرف الزائرون لها كنه ما تحويه من الآثار .

وفى غرفة من غرف هذا المعبد غرفة تمثال رائع لرمسيس الثانى بجانبه زوجته وهما جالسان على أريكة الملك وقيل لى إن هذه الغرفة بنيت فى وضع هندسى من شأنه أن يجعل الشمس تشرق على وجه رمسيس فى صباح كل يوم من أيام السنة وخرجنا من زيارة رمسيس إلى زيارة الملكة

وهى معبد خاص على يمين معبد " رمسيس " وعدنا من هذه الزيارة إلى الباخرة ومكثنا على ظهرها مع بعض الرفقاء نتحدث عن مجد مصر القديم وعن نهضتها الحديثة وطموحها الجديد .

ويجمل بالمسافرين الذين يقفون على ظهر الباخرة فى هذا المكان أيام الشتاء أن ينتهبوا إلى أن ارتفاع المعبدين يجعل ظهر الباخرة هدفاً لتيار الهواء المنحدر منهما فتتأثر به صحة المتعرض له وقد أصابنى منه عنت شديد وأخذت الباخرة بعد ذلك تواصل سيرها وأقبل الليل ودخلت غرفتى ثم استيقظت وإذا بنا فى حلفا حيث السودان(١) .

عندما يتذوق المتلقى مقال (من الشلال إلى حلفا) يجد أنه نغمة عذبة من وحى النيل ترنم بها المنشىء ليكشف صفات هذا النهر العظيم ففى مقال (أسوان الجميلة) بين الكاتب ما تتمتع به أسوان من مشاهد ومناظر شكلها النيل بخيوط صمتة ووقارة وانسيابه وابتسامته من خلال رؤية خيالية نسجت صورها من فيض العاطفة التى ترتبط بكل ما ينبض على أرض مصر فقد تشبعت الصور فى هذا المقال بعواطف الكاتب حتى سبح فى دنيا الأحلام الخضراء وحان وقت اليقظة والرحيل من أسوان الجميلة إلى حلفا فنظر كاتبنا بواقعية إلى مشاهد الطريق ووصف تناسقها مع النيل عبر تشكيل وصفى انطباعى يحدد خصائص الأشياء بمهارة ودقة يلمح فيها المتذوق جدية العرض فعندما تحركت البواخر النيلية شعر الكاتب بمغادرته أسوان الحبيبة فخق قلبه خفقة القلق الذى جعله يصف المشاهد من وحى الواقع الذى يترجمه البصر مثل قوله :

---

(١) مع المجتمع ص٨٠ : ٨٢ .

(ومن الشلال ابتدأ النيل يبدو لى غير ما عهدته فهو من أسوان إلى دمياط أو إلى رشيد يختال فيما وشاه له الشاطئنان من حلل كأنها حلل العروس أو ذنب الطاووس ولكنه بدا لى فى المسافة التى صحبته فيها من الشلال إلى حلفا شيئاً غير ذلك فقد لاح مع هدوئه الذى لا يفارقه عابساً رهيباً تحيط به الجبال عن يمينه ويساره كالفارس الغارق فى دروعه أو الأسد الرابض بين غابة وسارت الباخرة بين صمت شامل لا تسمع فيه إلا صوت محركها يتردد كأنه ترنيمة ابتهال يرجعها عابد خاشع مشى فى معبد إلهه العظيم) يجد المتذوق الكريم أن الوصف يفوح بعطر الجمال عندما ترنم بسحر النيل فى أسوان فهو (يختال) برقة ورشاقة يداعب النسيم ويبتسم لمشاهد الحياة وقد وفق الكاتب فى التعبير (يختال) حيث نقل للمتذوق هيئة النيل البديعة وسحر خطاه الذى خطها بين أحضان رياض أسوان الخضراء وأبدع فى تعبيره (فيما وشاه له الشاطئان من حلل كأنها حلل العروس أو ذنب الطاووس) حيث نقل للمتخيل طبيعة الخيلاء التى تولدت من إدراك النيل لسحره وهو تبختر وسط الرياض الخضراء بثقة وحياء وقد منح التعبير (حلل العروس) المنظر بهجة الألوان وسحر الأشكال إلى جانب الإيحاء بسعادة يتغنى بها النيل ويغردها الشاطئنان أما التعبير (ذنب الطاووس) فجسد الشكل البديع مع سحر الألوان ويتعلق الوصف السابق بالنيل من أسوان إلى دمياط إلى رشيد أما من الشلال إلى حلفا فقد وصفه الأسمر بالصورة الآتية (فقد لاح مع هدوئه الذى لا يفارقه عابساً رهيباً تحيط به الجبال عن يمينه ويساره كالفارس الغارق فى دروعه أو الأسد الرابض بين غابة) والصورة تجمع بين منظرين للنيل أو لهما هيئته فى أرض مصر التى توحى بالرخاء والسلام والأمن والسعادة والنشوة والبهجة والسحر كأنها قطعة من الجنة جعلها الله سبحانه لمحة من نعيمة الذى أعده للطيبين من عباده الأبرار

وثانيهما هيئته فى أرض حلفا وما يتسم به من عبوس وجدية وشموخ وتأهب وقد استطاع الكاتب تحديد طبيعة الصفات السابقة يجعل النيل بين الجبال كالفارس الغارق فى دروعه أو الأسد الرابض بين غابة وهذه الهيئة توحى بما للنيل من هيبة وجلال وكاتبنا بالصورتين يبين أن النيل يجمع بين الجمال والجلال وبين السلام والقوة ولعل كاتبنا يرمى إلى ضرورة اتحاد أبناء وادى النيل فالجمال يحتاج للجلال والسلام للقوة وهى سنة الله الذى خلق الكون بنظام التكامل والترابط ويستمر كاتبنا فى وصف رحلته من الشلال إلى حلفا فصور طبيعته وما فيه من التواءات وشلالات كما صور المهارة الفنية التى تجلت فى أبى سبل وهو من المعابد التى تشهد للمصريين بالتميز الحضارى ويختم كاتبنا مقاله الوصفى بنداء لمصلحة الآثار يناشدها الاهتمام بالمعابد وما تضم من تماثيل ففيها الشموخ الذى ينطق بمجد مصر ويبين وفاء أبناء النيل ويكشف طبيعة طموحهم الذى يعلن للعالم أجمع أن مصر بلد المجد ومنبع الوفاء وموطن العطاء وأرض المدنية .

والمقال جيد العرض سلس العبارات قريب الدلالات كشف فيه المنشىء بجلاء طبيعة الطريق النيلى من الشلال إلى حلفا ثم نقل آلة التصوير إلى مقال (فى السودان) فقال :

(ثم ركبت القطار من حلفا إلى الخرطوم ، فوصلت إليها بعد مبيت ليلة بالقطار ومنها ركبت السيارة إلى " أم درمان " حيث نزلت ضيفاً على صديقى السيد (ميرغنى الإدريس) شيخ السادة الأدارسة وهو غير السيد (على الميرغنى باشا) الزعيم الروحى لأكثرية السودانيين وشيخ السادة الختمية .

وإذا كانت الخرطوم معروفة بأنها العاصمة السياسية للسودان فأم درمان معروفة بأنها العاصمة الوطنية له وعددها أكثر وتجارتها أوسع .

و (الخرطوم) سميت بهذا الاسم لأنها أشبه بخرطوم النيل وأرجح أن معنى (أم درمان) هو دار الأمان فسميت بذلك تفاؤلاً ولهذه المناسبة أذكر أن بالسودان جزيرة خصبة تسمى (توتى) وقد سألت هنالك عن سبب هذه التسمية فلم أهتد لما سألت عنه وأرجح أنها محرفة عن (تؤتى) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ ما أشبه منظر السودان بمنظر مصر إنهما توأمان للنيل متشابهان كل التشابه أرض سندسية منبسطة هنا وأرض سندسية منبسطة هنالك ونخيل وأشجار هنالك ونيل هنا ونيل هنالك!.

إن مصر والسودان أشبه ببيت من الشعر فمصر شطر والسودان شطر آخر! والبقعة التى بين أسوان وحلفا أشبه بالحلية التى يضعها الخطاط بين شطرى البيت! وإخواننا السودانيون عاطفيون أكثر منا سريعو التأثر يتحلون بأخلاق الفطرة السليمة كرماء إلى أقصى حدود الكرم وهم يحبون إخوانهم المصريين كل الحب وكل ما فى السودان يذكرهم بصدق مودة المصريين فالمبانى العظيمة هناك بنتها أيد مصرية والثقافة مصرية والنهضة فى شتى أعمال الحكومة مصرية أو أصلها مصرى هذا إلى ما يربط السودانين بالمصريين من وشائج العروبة والدين واللغة والكثير من العادات .

كنت ماراً ببعض الأحياء الوطنية وكان الحر شديداً - بالنسبة لى - فسمعت شخصاً ينادينى ويقول : يا مصرى فوقفت حتى جاءنى المنادى يهرول إلى وحيانى وهو مسرور ثم أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً معطراً ومر به على جبهتى وقال : أريد أن احتفظ بشىء من عرقك يا مصرى !! وإخواننا فى السودان يحبون الشعر كثيراً ففى يوم من الأيام دعانى أحد أصدقائى السودانيين لزيارة جزيرة (توتى) وكنت أعددت قصيدة وطنية لإلقائها فى (نادى الخريجين) فطلب منى صديقى ونحن بالباخرة فى طريقنا

النيلى إلى الجزيرة أن أسمعه إياها وكنا نجلس فى غرفة قائد الباخرة وأخذت أسمع صديقى القصيدة حتى فرغت من البيت الآتى وأنا اتحدث عن السودان :

إذا هب يوماً حره وهو لافح فأخلاق أهلية نسيم الحمائل!

فاضطربت الباخرة فى سيرها اضطراباً أزعجنى !! فالتفت لقائد الباخرة وقلت ماذا حدث؟! فقال : إعجابى بهذا البيت الذى قلته جعل عجلة القيادة تضطرب فى يدى !! فقلت أتفهم الشعر ؟ قال : عجبا! كيف لا أفهمه؟! ألست عربياً ؟!

ولما أنشدت هذه القصيدة فى حفل (نادى الخريجين) رأيت الجماهير تبكى وكانت تصغى لإنشادها إصغاء الفاهم لكل كلمة وقد أثر ذلك فى نفسى كل التأثير ؟!

ومن ظريف وغريب كرم إخواننا السودانيين أننى بعد أن فرغت من إنشاد القصيدة المذكورة صافحنى كثير من كبار المدعوين لهذا الحفل وقدموا لى وهم يصافحوننى أوراقاً مالية على أنها هدية فاعتذرت عن قبولها وكانت دهشتى لرفض قبول هذه الهدايا لا تقل عن دهشتى من تقديمها لى !! وقال لى أحد الأصدقاء السودانيين إن هذه عادتنا فقلت له :

وما رأيتموه منى فهو أيضاً عادتى وأرجو عدم المؤاخذة !! وقد أخبرنى هذا الصديق ، أن من عادات السودانيين فى إكرام ضيفهم – ولو كان فى يسار وغنى – أن يقدموا له هذه الأوراق المالية وكأنها (قهوة) قدمت للضيف ويتمسك بهذه العادة الشيوخ أكثر من الشبان وهم يقدمون بها مع (نظار القبائل) و(شيوخها) إذا جاءوا للإصلاح بين شخصين أو عائلتين وكذلك يقومون بها مع (رؤساء الطرق الصوفية) .

ومما سرني بالسودان أنني كنت أسير في سوق أم درمان فسمعت شخصاً يناديني باسي ويصيح (يا أستاذ يا أسمر يا أستاذ يا أسمر) فوقفت فجاءني هذا الشخص وقال : ألست الأستاذ الأسمر ؟ قلت : نعم ، فسلم على سلاماً حاراً وقال : عرفتك من صورة لك نشرتها (مجلة الإذاعة المصرية) ورأيته يحفظ الكثير من شعري وأسعدني أنه كان سعيداً بلقائي .

وزارني من شعراء السودان السيد (العباسي) والسيد (عبد الرحمن شوقي) والسيد (الكردي) .

أما العباسي : فهو شاعر جزل العبارة متمكن من صياغة الألفاظ تمكناً واضحاً وأما عبد الرحمن شوقي فهو شاعر ينسج قصائده نسج الغلائل وأما الكردي : فهو من أظرف الشخصيات التي قابلتها وهو يميل في شعره إلى محاكاة القدماء والصب في قوالبهم .. وقد لحظت أن الشاعر الكردي يكتب على بطاقته (فلان فلاني كبير شعراء السودان) !! فقلت له : ومن الذي جعلك كبير شعراء السودان ؟! فقال وهو يضحك : أنا جعلت نفسي كذلك !! فضحكت من إجابته وأخذت أحاوره في ذلك ولم أزل به حتى مزق هذه البطاقات .

وفي السودان طائفة تسمى (المداحين) يجتمعون في المنازل ويترنمون بالقصائد النبوية وعمدتهم في ذلك قصائد (مختارات النبهاني) وبعض قصائد الشعراء المحدثين وفي هؤلاء من ينظم الشعر وبعض الذين ينظمون الشعر منهم في حاجة إلى دراسة النحو والعروض وقد حضرت بعض اجتماعاتهم واقترحت عليهم أن يبدءوها بقراءة القرآن ويختموها به واعتقد أنهم سيعملون على ذلك .

ويغلب على ظنى أن الشعر فى السودان كان إلى وقت قريب محصوراً فى أبواب قليلة كمدح الرسول ﷺ أو التغنى بمجد المسلمين فيما مضى أو ما شاكل ذلك ولكنه الآن - فيما بد إلى - أخذ يتناول شتى شئون الحياة والعواطف وهذا هو الخليق بالشاعرية السودانية فهى شاعرية صالحة كل الصلاح لأن تؤدى رسالتها فى كل نواحى الشعر .

ومن الأمور التى كلما ذكرتها ضحكت ما يأتى :

ذهبت لزيارة صديقى (الشيخ حسن مأمون) قاضى القضاة بالسودان حين ذاك فوجدته جالساً بحديقة داره فجلست معه بها وكانت حديقة واسعة مملوءة بالأشجار ودخل الليل علينا ونحن بالحديقة وكانت الصورة التى فى ذهنى عن السودان كله شماله وجنوبه أنه مملوء بالأسود والنمور والفهود!! وبينما أنا وصديقى فى أحاديث شتى فوجئت بصوت مزعج - أو على الأقل خيل إلى أنه صوت مزعج . فظننته صوت نمر أو فهد تسلل لحديقة الشيخ ! وتكرر الصوت فزاد انزعاجى فوقفت مضطرباً ولحظ الشيخ على ذلك فقلت له أنا منزعج لهذا الصوت فقال لا تخف أنها (كديسة) ! فزاد انزعاجى لأنه قام فى ذهنى أن (الكديسة) هذه لا تقل عن النمر والفهد إن لم تكن أكثر توحشاً منهما فقلت له هيا بنا قبل أن تجىء (الكديسة) إلينا فقال وهل تخشى (الكديسة) كل هذه الخشية ؟! فقلت له : إننى لم أرها فى حياتى فقال وهو يضحك (الكديسة) هى (القطة) ! هكذا يسمونها هنا .

فقلت له قاتل الله سوء الظن إنه يهول الكثير من الأمور والله ما ظننتها إلا وحشاً من الوحوش . ودنا ميعاد عودتى إلى مصر فذهبت مع صديقى السيد (إدريس الإدريسى) لزيارة الزعيم السودانى الكبير السيد (على الميرغنى باشا) وسعدت بجلسة غير قصيرة مع هذه الشخصية الجليلة

وتكلمنا فى كل شىء ما عدا (السياسة) فقد كان السيد على الميرغنى باشا حريصاً على أن لا يقرب منها .

وفى صباح اليوم الثانى-أعددت حقيبتى للعودة إلى مصر ولما ذهبت إلى محطة الخرطوم لأخذ تذكرة السفر منها وجدت (وكيل السيد الميرغنى باشا) يحمل إلى تحيات الباشا وتمنياته الطيبة ووجدته قد أحضر تذكرة سفر لى من الخرطوم إلى القاهرة وقال إنها هدية من السيد لكم يسره أن تقبلوها فتقبلتها شاكراً وقلت له : هدية السيد بركة لا ترد .

ثم ركبت القطار إلى مصر ومن سافر من السودان إلى مصر فقد سافر من السودان إلى السودان ، ومن سافر من مصر إلى السودان فقد سافر من مصر إلى مصر .. دين واحد ولغة واحدة ووطن واحد ونيل يجمع البلدين كما تجمع الأبوة الأخوين التوأمين(١) .

عرض المنشىء فى هذا المقال الاجتماعى الوصفى الانطباعى الأدبى لمحات طيبة عن السودان ونيلها كما وصف بعض العادات والتقاليد المعهودة عند أهلها وأبرزها الكرم كما بين ما يتمتعون به من صفات نفسية عالية مثل الصفاء القلبى والطهر النفسى واشار إلى حبهم للأدب وإقبالهم على نظم المديح النبوى والتغنى بأمجاد الإسلام وأثنى على الاتجاه الجديد الذى تجلى فى انطلاق شاعريتهم لعالم الشعر الرحيب .

ومتذوق المقال يشعر بمهارة المنشىء فى عرض الفقرات حيث بدأ بتحديد خيوط الرحلة إلى السودان بقوله (ثم ركبت القطار من حلفا إلى الخرطوم) واستمر بحيوية فى تجميع الخيوط فتغنى بجمال مشاهدها فوصف

---

(١) مع المجتمع ص٨٣ : ٨٧ .

أرضها السندسية المنبسطة ونخيلها وأشجارها وربط بين هذا الجمال وبين جمال المناظر فى مصر فبين أن الجمال والسحر فى مصر والسودان ينبثق منبعهما من نهر النيل الذى جعلهما جنة الله فى أرضه .

وجميل من الكاتب تصويره لوحدة الرباط بين مصر والسودان بقوله (إن مصر والسودان أشبه ببيت من الشعر فمصر شطر والسودان شطر آخر) والصورة من وحى الفكر الأدبى للكاتب الشاعر وهى صورة بديعة أوحت بأن الجمال المطلق لا يحدث إلا بهما ولهذا وصفهما فقال (إنهما توأمان للنيل متشابهان كل التشابه فهما توأمان للجمال والسحر والسعادة والبشرى ولفظة توأم توحى بالتشابه فى الشكل والظروف الاجتماعية والوجدانية .

وقد بين الكاتب السمو العاطفى لشعب السودان وكشف عن عمق حبهم للشعب المصرى من خلال صياغة جياشة بالعواطف البنيلة (وإخواننا السودانيون عاطفيون .... يتحلون بأخلاق الفطرة السليمة ..... وهم يحبون إخوانهم المصريين كل الحب) وقد أحسن الكاتب فى قوله (كنت ماراً ببعض الأحياء الوطنية وكان الحر شديداً - بالنسبة لى - فسمعت شخصاً ينادينى ويقول يا مصرى ... يا مصرى فوقفت حتى جاءنى المنادى يهرول إلى وحيانى وهو مسرور ثم أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً معطراً ومر به على جبهتى وقال : أريد أن احتفظ بشىء من عرقك يا مصرى !!) حيث بين درجة الألفة والود بين الشعبين ولعل رغبة المواطن السودانى فى الاحتفاظ بالمنديل الذى جفف به عرق المصرى يرمى إلى عمق الذوبان النفسى بين المصريين والسودانيين وشدة التلاحم بينهما .

وقد اتسـم المقـــال بـالروح الأدبيـــة التى نبعت مـن ذكـر الأسمــر لبعض شعراء السودان وذكره لبعض خصائصهم الشعرية مثل (العباسى) ، و (عبد الرحمن شوقى) و (الكردى) .

والمقـال يفـوح بـروح الوحـدة بيـن مصـر والسـودان ويحمـل بيـن طياتـه دعـوة طيبـة تنـادى بتوثيـق الروابـط بيـن البلديـن لأنهمـا القلـب النـابض لجسد واحد ألا وهـو أرض النيـل الطيبـة . كمـا أن المقـال نـداء لتنشيط حركـة النـدوات الفكريـة والأدبيـة والاجتماعيـة بيـن البلديـن وقـد تمتـع المقـال بجـودة العـرض ووضـوح العبـارات وحسـن الربـط بيـن الفقـرات .

وتسير قافلـة (مـن وحـى النيـل) وتتجـول بيـن أرجـاء مصـر فيكتـب المنشىء المقال الوصفى النقدى (**مصر والاعتدال**) يصف فيه مناخ مصـر قائلاً:

(مرت علينا فى مصر موجة من القيظ فظننا أن باباً مـن أبـواب جهنم غفل عنه مالك فتركه مفتوحاً على مصراعيه .. ومن أيام خلت مـرت علينـا فى مصر موجة من البرد تركت الناس تقول متى يجىء الصيف) ؟

والذى أذكره أننا دائماً إذا جاء الصيف قلنـا متـى يجـىء الشـتاء ؟ وإذا جاء الشـتاء قلنا متى يجىء الصيف ؟ كما أننا دائماً ننسى فـى قيـظ الصـيف ما نلقاه من زمهرير الشتاء وفـى زمهريـر الشـتاء مـا نلقـاه مـن قيـظ الصيف ونحن فى كل عام نسمع بالربيع ولانعرفه فجو الربيع جو الاعتدال وقد مضت الأعوام وراء الأعوام وجو مصر لا يعرف الاعتدال فهو إما برد قارس وإمـا حر لافح إلا فى القليل من الأيام .

ولعل ما نكابده من طبيعة جونا هو السبب الأكبر فيما نعانيه من طبائع أخلاقنا فنحن أيضاً لا نعرف الاعتدال بل نحن مغالون فى كل شىء فحبنا الحب الأعمى الطائش وبغضنا البغض المتهور الثائر وجودنا الإسراف واقتصادنا التقتير وأفراحنا المجانة والخلاعة وأحزاننا الجزع والهلع ونحن كثيراً ما نخلط بين النصيحة والتأنيب والمجاملة والنفاق والمحاباة والحزم والظلم والحرية والفوضى والكياسة واللؤم والصراحة وسوء الأدب .

وإن من العقل أن لا نجمع على أنفسنا بين عدم اعتدال جونا وعدم اعتدال أمورنا فلنبتغ السبيل الوسط فى كل أحوالنا حتى تحيا نفوسنا فى ربيع دائم من اعتدال أخلاقنا(١) .

وصف محمد الأسمر مناخ مصر فى الصيف والشتاء وصفاً دقيقاً بين فيه ما تتعرض له بلادنا من طبيعة مناخية قاسية وقد ربط كاتبنا بين طبيعة مناخنا وبين طبائع أخلاقنا ربطاً جيداً ينقد فيه سلوكياتنا التى تنهج منهج المغالاة .

وقد أحسن الأسمر فى . وصفه لعواطفنا وسلوكياتنا حيث عبر بالألفاظ الموحية الدقيقة التى تصور بجلاء كيفية استقبالنا لأمور الحياة فحبنا الحب الأعمى الطائش ، وبغضنا البغض المتهور الثائر ، وجودنا الإسراف واقتصادنا التقتير وأفراحنا المجانة والخلاعة وأحزانا الجزع والهلع .

وهى أوصاف مطابقة تماماً لسلوكيات المجتمع المصرى الذى أصبح يخلط بين النصيحة والتأنيب والحزم والظلم ولعل كاتبنا يرمى إلى الاضطرابات الاجتماعية التى فجرت الاضطرابات الوجدانية ولهذا رأى كاتبنا

---

(١) مع المجتمع ص٨٨ .

ضرورة الاتزان فى أمورنا حتى نحصد ثمار الاستقرار وقد وضح ذلك فى مقولته (وإن من العقل أن لا نجمع على أنفسنا بين عدم اعتدال جونا وعدم اعتدال أمورنا فلنبتغ السبيل الوسط فى كل أحوالنا حتى تحيا نفوسنا فى ربيع دائم من اعتدال أخلاقنا) ودعوة كاتبنا دعوة واعية تهدف إلى تنقية نفوسنا وسلوكنا من المبالغة التى تهدر كيان المجتمع المصرى الذى يعد المثل الأعلى للعالم العربى والإسلامى ومن منطلق تفرد مصر بين الوطن العربى كتب الأسمر مقاله (مصر والعروبة) قال فيه (الناس يتنازعهم فى حياتهم أمران : العاطفة والعقل ومن اراد النجاح فى حياته وجب عليه أن لا يندفع اندفاعاً كلياً وراء عاطفته ونحن معشر الشرقيين عاطفيون أكثر ما ينبغى أليس منا من قال :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون آخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهاناً ؟

ولو تريث هذا الشاعر قليلاً لعلم أن العقل يأمر أن نطلب من الناس براهينهم على ما يقولون حتى يكون العمل الذى نقوم به قائماً على دعائم ثابتة من تدبير العقل لا على أمور هى من هواء العاطفة وما تنسجه العاطفة وحدها أوهى مما تنسج العنكبوت فهو غير مأمون العاقبة وإن كان يبدو فى أول أمره براقاً لماعاً يجذب إليه الجماهير حتى إذا جاءوه وجدوه سراباً ليس عنده إلا الخيبة والندم من أجل هذا نقول إن مصر أمة عاطفية شأنها فى ذلك شأن أمم الشرق وليس ذلك عيباً لها أو لسواها ما دامت هذه الأمم لا تخلو ممن يحكمون العقل فى هذه العواطف فتنقاد لهم كما ينقاد الجواد الكريم لعنانه فلا يهيم على وجهه هنا وهنالك خارجاً عن الصراط المستقيم .

وقد عم الناس أجمعون أننا حينما أبدى الشر ناجذيه بفلسطين (طرنا إليه زرافات ووجدانا) وهبت مصر الكريمة حكومة وشعباً للذود عن حياض العروبة هنالك كنا فى هبتنا هذه عربًا أحراراً لا نسأل آخانا حين يندبنا فى النائبات على ما قال برهاناً كما كنا أبناء الفراعين الأشاوس نقف فى نار الحرب ونحن يواقيتها فلا نزداد فى لفحها ولهبها إلا صلابة ولمعاناً .

ولقد مشينا مع العاطفة الكريمة فى حرب فلسطين إلى أبعد أشواطها ثم تكشفت لنا الأمور عن حقائق مرة مضغناها غير متجهمين لها ووقفنا فى الميدان وحدنا وكنا كما قال عمرو بن معدب يكرب :

ذهب الذين أحبهم　　　وبقيت مثل السيف فردا

دخلنا هذه الحرب ونحن كرام العمل كرام القول والخليق بمصر الزعيمة أن تقف كل يوم من أخواتها الشقيقات كما وقفت بالأمس كريمة العمل كريمة القول .

إن للزعامة أخلاقاً ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات فلتتحل مصر دائماً بأخلاق زعامتها وإن للزعامة ثمناً غالياً ولقد بذلت مصر هذا الثمن من مالها وفيراً ومن دمها غزيراً .

يقول العاطفيون ما أقساها محنة مرت بنا ويقول لعقلاء ما أنفعها تجربة لنا فالعاطفيون ينظرون من زاوية فيجدون ظلاماً والعقلاء ينظرن من زاوية فيجدون نوراً ومن أراد أن يأمن العثرات فليسلك سبيل النور فانهضى يا مصر على بركة الله ومعك مصباح العقل والتجارب انهضى على بركة الله غير خادعة وغير مخدوعة انهضى كريمة الأفعال كريمة الأقوال .

عقب نشر هذه الكلمة بجريدة الأهرام تلقينا كتاباً كريماً من المجاهد العربى الكبير السيد عبد الرحمن عزام أمين جامعة الدول العربية حينذاك جاء فيه ما يأتى :

.. (وبعد) فقد قرأت كلمتك القيمة بالأهرام عن مصر والعروبة وأشكرك على اهتمامك بتوجيه الرأى العام التوجيه الصالح فى وقت اضطربت فيه الأفكار بتأثير الدعايات الأجنبية وغيرها وفقك الله إلى خدمة العروبة وقضاياها العادلة وجعلك دائماً نصيراً للحق .. (عبد الرحمن عزام) ربيع أول ١٣٦٨هـ يناير سنة ١٩٤٩م(١) .

يناقش المقال قضايا الحياة بموضوعية وواقعية فينادى بالتريث فى إصدار الأحكام التى يترتب عليها مصير الأمة ويشير الكاتب إلى ضرورة تدبر العقل بحكمة واتزان حتى تكون العواقب محمودة الآثار .

ثم يبين الأسمر ما تتصف به مصر من فيض عاطفى قائلاً (إن مصر أمة عاطفية شأنها فى ذلك شأن أمم الشرق وليس ذلك عيباً لها أو لسواها ما دامت هذه الأمم لا تخلو ممن يحكمون العقل فى هذه العواطف فتنقاد لهم كما ينقاد الجواد الكريم لعنانه فلا يهيم على وجهه هنا وهنالك خارجاً على الصراط المستقيم) .

وفى الفقرة السابقة إشادة بمصر الرائدة مصر الأم مصر الحصن والسلام والقوة والأمان والشرف والكرامة درة الشرق وتاج العالم جعلها الله سبحانه الدرع الذى يذود عن جلال الإسلام وكيان العروبة ويعلن الكاتب أن مصرنا الغالية تتمتع بالعاطفة الجياشة الواعية وبالعقل الراجح السديد ومن

---

(١) مع المجتمع ٨٩ : ٩٠ .

منبعهما يكون قرارها الذى يكشف أنها أصل الشجاعة والإقدام ومصدر الترابط للوحدة الإسلامية وقلب الإسلام النابض الذى يرفرف بأجنحة الحب على الدنيا لتعلن أنها مصر الحكمة والاتزان مصر العاطفة والوجدان مصر العروبة والإسلام .

ويتناول كاتبنا موقف مصر الغالية من حرب فلسطين فيبين أنه موقف الكرم والعطاء والقوة والإقدام ويشير الكاتب إلى حرب فلسطين ودور مصر فيها قائلاً : (نقف فى نار الحرب ونحن يواقيتها فلا نزداد فى لفحها ولهبها إلا صلابة ولمعاناً) والصورة دلالة على شرف أبناء مصر وشجاعتهم وجميل تصويره للمصريين بالياقوت الذى يدل على التميز كما يدل التعبير على أننا أبناء الشدائد التى تبرز ما لنا من مهارة ومع تحقق هذه الصفات يرى كاتبنا المصرى الأصيل ضرورة التريث فى الأمور المصيرية بضبط النفس وتحكيم العقل ويحذر من الاندفاع حتى تتحقق النتائج المرجوة النابعة من الاتزان العاطفى الوعى الفكرى وقد أعجبتنى مقولته الآتية : (لقد مشينا مع العاطفة الكريمة فى حرب فلسطين إلى أبعد أشواطها ثم تكشفت لنا الأمور عن حقائق مرة مضغناها غير متجهمين لها ووقفنا فى الميدان وحدنا ..... دخلنا هذه الحرب ونحن كرام العمل كرام القول والخليق بمصر الزعيمة أن تقف كل يوم من أخواتها الشقيقات كما وقفت بالأمس كريمة العمل كريمة القول) .

والمقولة دعوة لدراسة المواقف دراسة واعية قبل اتخاذ القرار مع استمرار مصر على منهجها الذى جعله الله تعالى أمانة فى عنقها .

ويكرر كاتبنا ضرورة الالتزام بالعقل قائلاً :

(يقول العاطفيون ما أقساها محنة مرت بنا ويقول العقلاء ما أنفعها تجربة !! فالعاطفيون ينظرون من زاوية فيجدون ظلاماً والعقلاء ينظرون من

زاوية فيجدون نوراً ومن أراد أن يأمن العثرات فليسلك سبيل النور) وهى دعوة مخلصة رشيدة ترمى إلى الحفاظ على مكانة مصر فى الزعامة الإسلامية والعربية .

وقد أحسن الكاتب حين ختم المقال بدعاء طيب ورجاء غيور على شرف مصر ومنزلة زعامتها قائلاً :

(فانهضى يامصر على بركة الله ومعك مصباح العقل والتجارب انهضى على بركة الله غير خادعة وغير مخدوعة انهضى كريمة الأفعال كريمة الأقوال) .

وجميل ربطه بين نهضة مصر وبين بركة الله مما أوحى بأن النهضة لن تكون مباركة إلا إذا كانت خالصة لله وجميل أيضاً جمعه بين العقل والتجارب ما يوحى بضرورة دراسة المواقف والتعلم منها وجعلها النور الذى يضىء الظلمات وبديع جمعه بين خادعة وغير مخدوعة مما يدل على ضرورة اتخاذ القرارات بوعى وبصيرة حتى تظل الزعامة لمصرنا الحبيبة زعامة الشرف والقوة والوعى والبصيرة زعامة تعلن أن مصر راية الرشاد والأمان ومنار الوعى الحضارى .

والمتذوق للمقال يدرك أنه يحمل سمات المقال السياسى التاريخى الذى يتناول حقبة حية من تاريخ الأمة العربية عرضة الكاتب عرضاً جيداً يتمتع بالصدق والوضوح .

ويعرض الكاتب بعد ذلك المقال الانطباعى الجيد **(أنطون باشا الجميل)** وصف فيه شخصية أنطون باشا وصفاً دقيقاً فقال :

(فى صباح يوم من الأيام قرأت بجريدة (الأهرام) أن أسرة المغفور له (أنطون باشا الجميل) أقامت قداساً لمناسبة الذكرى السادسة لوفاته .

هذا خلاصة خبر نشرته الأهرام قرأته بها وسبحت أثناء قراءته فى خيالاتى ما شاء حبى لهذا الرجل أن أسبح ثم أقف كمن صحا من نوم .

لم يمت (أنطون الجميل) بالنسبة لى فهو فى قلبى وصورته معى فى دارى بغرفة مكتبى وهو مائل أمام عينى لا فى صورته وحدها بل مكانه وسكناته تمر أمامى كما يمر الشريط السينمائى أمام ناظره .

إنى أراه فى ابتسامته الحلوة أراه وهو يكظم غيظه أراه وهو ينظر النظرة المملوءة بالكلام ولا يزيد على ذلك أراه وهو فى ندوة الأهرام الكل من حوله يتناقشون وهو عاكف على الورق يكتب أو يراجع ثم هو فى آخر الجلسة يعلق التعليقات الخفيفة المليئة على ما كان يدور حوله من المناقشات!!

أذكره صحفياً نظيف اليد نظيف اللسان نظيف القلب أذكره يدخل عليه الأديب الناشىء بلا استئذان ويدخل عليه الوزير مستئذناً !!

أذكره محباً للشعر عارفاً قدر رجاله محباً لهم فرحاً بهم محبوباً منهم .

أذكره مجيدا لكل شىء يوكل به إليه مخلصاً له أميناً عليه متفانياً فيه .

أذكره لا يتحدث عن نفسه وأعماله تتحدث عنه فى كل مكان أذكره فاهماً لدقائق الأمور مترفعاً عن الصغائر مجرباً للزمن أذكره وهو يصغى للنصيحة ولو جاءت ممن هو أصغر منه وللرأى ولو جاء ممن ليس فى حصافته .

أذكره وقد ناولته قصيدة فى رثاء (أحمد حسنين باشا) لنشرها بالأهرام عدد أبياتها خمسة وخمسون بيتاً وضعت فيها كلمة أنفس بها عن نفسى لا يعرفها غيرى أكنى بها عن شخصية كان يمنع القانون ذكرها فإذا به بعدما يقرأ القصيدة يضع أصبعه على هذه الكلمة وينظر لى فأقول له متجاهلاً : ماذا ؟

فيقول مبتسماً ألا تدرى ؟! ثم يغلبنى الضحك فأضحك ويضحك ، وأقوم إليه مقبلاً جبينه إعجاباً بذكائه وفهمه لدقائق الشعر ثم أقول له نغيرها فيقول لى لماذا ؟ .. أبقها وهكذا يدور الحوار وكلانا لم ينطق باسم هذه الشخصية .. وفى اليوم الثانى تنشر الأهرام القصيدة وتضع لها مقدمة تختص بها .

وأذهب فى هذه الأيام إلى دار جريدة الأهرام فأجد بها أشبال أنطون وأجد بها أصدقاء أنطون وأجد أنطون نفسه فى أشباله وأصدقائه وأجد روحه فى كل غرفة أدخلها ويخيل إلى وأنا أجوس خلال هذه الغرف أن أنطون تأخر عن ميعاده وسيحضر وما كان أنطون بالذى يتأخر عن ميعاده وأكاد أستبطىء حضوره وأكاد أقول ليس له عادة أن يتغيب عن عمله كل هذا التغيب ثم أنصرف على أمل أننى سأجىء غدًا لألقاه ..

وتمر الأيام والليالى وتمر الشهور وتمر الأعوام وأنطون لا يجىء ولكنى أراه وإن كنت لا أراه !! وألقاه وإن كنت لا ألقاه وأتحدث إليه ويتحدث إلى وإن كان مات ! وانتظره وإن كان لا يعود .

إن أنطون بالنسبة لى : لم يمت فهو فى قلبى وهو أمام عينى لا زلت أحبه ولا زلت أراه ولا زلت كأننى أصغى إليه ويصغى إلى أعيش معه فى صورته وأعيش معه فى ذكراه وأعيش معه فى شعرى الذى نظمته فيه(١)

---

(١) مع المجتمع ٩١ : ٩٣

• أنطون باشا الجميل المارونى اللبنانى كاتب متأنق فى أسلوبه يجيد الفرنسية كأهلها ولد فى بيروت وتعلم وعلم عند اليسوعيين اشترك مع أهل تقى الدين فى إصدار (مجلة الزهو) وعمل فى وزارة المالية ثم فى جريدة (الأهرام) إلى أن تولى رئاسة تحريرها وكان من أعضاء مجلس الشيوخ المصرى مدة ومن أعضاء مجلس الشيوخ المصرى مدة ومن أعضاء مجلس المجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع اللغوى بمصر له كتب كلها رسائل منها (أبطال الحرية) (وشوقى الشاعر) و (خليل مطران) وغير ذلك .

الأعلام - الزركلى جـ ٢ ص ٢٧ - بيروت - دار إعلامى .

يضم المقال السابق بين طياته لمحات من سيرة أنطون باشا الجميل الذى كان عالماً من أعلام الأدب والصحافة ويتسم المقال بروح الود والألفة جمع الكاتب فيه سمات أنطون باشا الأخلاقية والوجدانية كما بين طبيعة علاقته بهذه الشخصية المتميزة .

ومن هذه السمات التى تميز سيرة أنطون باشا الشرف بعزة مع نقاء النفس بوعى والتواضع بكرامة والذكاء بطهر كما كان محباً للعطاء جواداً خلوقاً باسم الوجه ينشر الاطمئنان والأمل فى نفوس رواده ويضاف إلى ذلك ما يتمتع به من قدرة على طرح الأمور بصراحة وشجاعة تتجلى فى مناقشته للقضايا العامة والخاصة ويشير محمد الأسمر إلى تمتع أنطون باشا بحاسة أدبية مرهفة وذوق أدبى رفيع .

وقد أحسن كاتبنا فى تعبيره الوجدانى الذى يكشف النقاب عن طبيعة علاقته بأنطون الجميل :

(وتمر الأيام وتمر الشهور وتمر الأعوام وأنطون لا يجىء ولكنى أراه وإن كنت لا أراه !! وألقاه وإن كنت لا ألقاه وأتحدث إليه ويتحدث إلى وإن كان قد مات ! وانتظره وإن كان لا يعود .

إن أنطون بالنسبة لى : لم يمت فهو فى قلبى وهو أمام عينى لا زلت أحبه لا زلت أراه ولا زلت كأننى أصغى إليه ويصغى إلى أعيش معه فى صورته وأعيش معه فى ذكراه وأعيش معه فى شعرى الذى نظمته فيه) .

والكلمات السابقة نغمة حنين لصديق عزيز حبيب لنفس محمد الأسمر عبر فيها عن درجة الود التى يكنها لصديق عمره والكلمات لمحة وفاء كشف بها الكاتب عن حسن العلاقة بين المسلمين والمسيحين مما يدل على وحدة أبناء مصر وحدة وطنية واجتماعية ووجدانية .

ويتسم المقال بجمال العرض وجودة الصياغة مع الصدق التعبيرى الذى نبع من صدق عاطفة الكاتب ويعد هذا المقال من مقالات السيرة ومن الجدير بالذكر أن المقال ورد ضمن باب (من وحى النيل) ولعل الكاتب يرمى إلى وحدة أبناء النيل وأن اختلاف العقيدة لا يفسد الوحدة الوطنية .

ويتناول كاتبنا بعد ذلك الحديث عن شخصية (محمد توفيق وهبى)(١) تحت عنوان (الجندى المجهول) قال فيه : (فى الفترة السابقة لسنة (١٩٢٤) ميلادية بالسودان كان الإنجليز هناك يضيقون الخناق على الروح الوطنية وعلى المصريين الموظفين بالسودان وكان السودانيون وإخوانهم الموظفون المصريون لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً ينهض بالسودان فقد كان الاستعمار الإنجليزى يقبض على عنقهم جميعاً . وحدث أن الوطنى المخلص والكاتب الأديب الأستاذ (محمد توفيق وهبى) القاضى المصرى فى (أم درمان) دفعه شعوره الوطنى إلى أن يعمل ما استطاع لتهيئة الأذهان كى يتخلص السودانيون مما هم فيه فأخذ ينشط نشاطاً هادئاً فى بث الروح الوطنية بين السودانيين وكان يؤلف المسرحيات الوطنية ويمثلها بالنادى المصرى وكان السودانيون يقبلون عليها إقبالاً شديداً واستطاع النادى أن يجمع حوالى ثمانية آلاف من الجنيهات ذهبت كلها فى معاونة السودانيين .

---

(١) محمد توفيق بن عبد الله وهبى المتوفى ١٩٥٨م متأدب متفقة له اشتغال بتاريخ مصر والسودان ولد فى المنيا وعين مترجماً فى السودان سنة ١٩٠٦م وتشبع بروح الحزب الوطن وألمه صلف الإنجليز فى معاملة السودانين بالخرطوم واتفق مع صديقين له على تأليف جمعية سرية لتحريض السودانين على الثورة واستكثروا من الأنصار له كتاب فى (تاريخ مصر فى عهد محمد على إلى عهد فاروق) .
الأعلام – الزركلى – جـ٦ ص٦٧ طبعة بيروت دار الملايين .

كانت سياسة الإنجليز التقرب من الزعماء هناك أما سياسة المصريين فكانت التقرب من الشعب نفسه وكان هؤلاء الزعماء يظلمون الناس فيفر الشعب منهم ومن الإنجليز أصحاب هذه السياسة وفى يوم من الأيام عثر المصريون الموظفون بالسودان على منشور سرى من الحاكم العام لجميع الموظفين الإنجليز يحض على العمل للتفرقة بين المصريين والسودانين ولقد استطاع هؤلاء المصريون وعلى رأسهم (محمد توفيق وهبى) أن يأخذوا صورة من هذا المنشور وأرسلوه لمصر ونشرته جريدة (الأخبار) فجن جنون الإنجليز .

وفى سنة (١٩٢٤م) أعلن (سعد باشا زغلول) أنه سيتفاوض مع وزارة العمال بشأن مصر والسودان ففكر الإنجليز فى أخذ عرائض ثقة من السودانيين تفيد أنهم لا يريدون إلا الإنجليز وكان الإنجليز يجعلون السودانيين يختمون على بياض ثم يكتب ما يريدون فرأى المصريون بزعامة الأستاذ (محمد توفيق وهبى) أن يجمعوا عرائض ضد هذه العرائض فجمعوها وأرسلوها للمفاوض المصرى ورأى المصريون بالسودان أن هذه العرائض وحدها لا تفيد وفكروا أن يقوم السودانيون بثورة ضد الإنجليز لا يشترك فيها المصريون وكانوا يتحينون الفرصة المناسبة .

وقد أتاحت المقادير هذه الفرصة فقد انتقل إلى رحمة ربه حينذاك المغفور له الصاغ المصرى (عبد الخالق حسن) مأمور أم درمان واشترك فى تشييع جنازته جميع كبار الموظفين الإنجليز فراعهم ما رأه من أن المدينة جميعها تشيع الجنازة وكانت لا تمر على منزل من المنازل إلا سمعوا صراخ السيدات وكان المشيعون لا يقلون عن عشرين ألفا وبعد الدفن وقف القاضى محمد توفيق وهبى يؤبن الفقيد ويشكر المشيعين وكان فى كلامه حريصاً على

أن لا يؤاخذه الإنجليز بشيء ولكنه كان يعرف كيف يصل إلى قلوب سامعية وبلغت كلمته من النفوس الأثر المطلوب وبعد الانتهاء منها غادر المكان وانصرف وصاح أحد السودانيين فلتحى مصر وتبعه آخرون وهتفوا بسقوط الإنجليز وكانت هذه هى الشرارة الأولى التى اشعلت روح الوطنية فى جميع أنحاء السودان وكان ذلك أشبه بمعجزة فما كان يدور بظن أحد أن يجرو سودانى فيهتف بسقوط الإنجليز .

واستفحلت الثورة فى السودان وأمر الإنجليز القاضى (محمد توفيق وهبى) أن يقوم بأجازته إلى مصر فقام بها ثم أحس وهو فى مصر أن الإنجليز سيستدعونه للسودان باسم العودة إلى العمل ولكنهم سيحاكمونه بتهمة التحريض على الثورة وعقوبتها الإعدام وعلم وهو فى مصر من الحاكمين لها إن الحكومة المصرية لن تستطيع أن تحميه من الإنجليز ففر إلى فرنسا.. نعم فر المجاهد إلى فرنسا لأن مصر قد لا تستطيع حماية ابن من أبنائها كل ذنبه أنه قام مخلصاً بالواجب عليه نحوها ونحو السودانيين وفى باريس قابل الأستاذ وهبى سعد باشا زغلول فقال له سعد باشا ممازحاً : أهلاً بالهراب !! فقال له الأستاذ وهبى :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

ثم قتل (السيرلى ستاك) الإنجليزى وكان سردارا للجيش المصرى بالسودان فتعقدت الأمور واستحال على المجاهد أن يرجع لمصر وظل فى فرنسا خمس سنوات لاقى فيها الشدائد ثم قدر له أن يعود لمصر بعد جهادين شاقين : جهاده الوطنى فى السودان وجهاده ليستطيع أن يعيش بفرنسا عاد المجاهد لمصر يحمل الشيخوخة والأسقام فما الذى صنعته مصر لهذا المجاهد؟!!(وبعد) فقد جاء الجزء الثانى من كتاب اللورد لويد (مصر منذ

عهد كرومر) حينما تكلم عن ثورة (١٩٢٤م) بالسودان ما يأتى : " إن الزعيم المصرى الذى أقام الثورة بالسودان هو القاضى محمد توفيق وهبى " .

هذا ما كتبه المؤرخ الإنجليزى عن المجاهد المصرى فما الذى كتبه المؤرخون المصريون ؟! وما الذى صنعته الحكومات المصرية المتعاقبة لهذا المجاهد الوطنى الكبير(١)؟!

يكشف المقال السابق ملامح من الأحداث التاريخية التى جمعت بين الشعبين المصرى والسودانى وقد نسجت هذه الملامح ثوباً من الوطنية التى ساعدت على إثارة الشعور الوطنى والنهوض بالوعى القومى وقد تحدث محمد الأسمر عن الدور الإيجابى الذى قام به القاضى المصرى (محمد توفيق وهبى) فى يقظة الوعى الوطنى السودانى .

ويختم الكاتب مقاله التاريخى الوطنى بمقولته :

(فقد جاء فى الجزء الثانى من كتاب اللورد لويد [مصر منذ عهد كرومر] حينما تكلم عن ثورة ١٩٢٤ بالسودان ما يأتى : إن الزعيم المصرى الذى أقام الثورة بالسودان هو القاضى محمد توفيق وهبى هذا ما كتبه المؤرخ الإنجليزى عن المجاهد المصرى فما الذى كتبه المؤرخون ؟! المصريون ؟! وما الذى صنعته الحكومات المصرية المتعاقبة لهذا المجاهد الوطنى الكبير).

والمقولة لمحة وفاء تترجم ما لأبناء مصر من دور عظيم فى تحرير الوطن العربى ورفع راية الحرية كما تعلن أن لمصر ريادة العالم الإسلامى والعربى ولهذا يجب علينا تكريم روادنا الذين نقشوا فوق هام النجوم العزة والكرامة والحرية وجعلوا الدنيا تترنم بما لهم من سلطان وجلال حتى شهد لهم الأعداء بهذه الرفعة ويهمس الكاتب المصرى الأصيل لقد شهدت الدنيا

---

(١) مع المجتمع ٩٤ : ٩٦ .

للزعيم المصرى القاضى (محمد توفيق وهبى) شهد له بالمكانة الجليلة اللورد لويد .فمن شهد له من أبناء وطنه ؟ والكلمات نداء يحمل بين طياته دعوة طيبة لتكريم روادنا فى كل مجال ولمحمد الأسمر من المصريين جميعاً تحية تقدير لهذه الهمسة الطيبة التى تحمل أغصان الوفاء فقد أدرك كاتبنا الأصيل أن الوفاء والتقدير سمة أمته أمة الخير والعطاء والجود والوفاء والتقدير ينبعان من الأمة التى يتزين أهلها بالكرم الوجدانى والأخلاقى كما أن الوفاء والتقدير يدفع شباب الوطن لحسن العطاء وشرف التضحية .

والمقال تاريخى سياسى استمد الكاتب أفكاره من وحى المجتمع العربى ويمتاز المقال بجمال العرض ووضوح العبارات وحيوية الصور وسمو الرؤية.

وبعد انتهاء مقال (محمد توفيق وهبى) طالعنا كتاب مع المجتمع بمقال (محمد مصطفى حمام)(١) قال فيه الأسمر :

عرفت من ظرفاء مصر الشاعر (حافظ إبراهيم)(٢) والشاعر (كامل الشناوى)(٣) والشاعر (محمد مصطفى حمام) .

---

(١) محمد مصطفى حمام شاعر من ظرفاء الكتاب - مصرى أقام فى المملكة السعودية بجدة نحوعشر سنوات ورحل إلى الكويت وتوفى بها ١٩٦٣ وقيل ١٩٦٤م له ديوان شعر مطبوع .
الأعلام - الزركلى جـ ص١٠٣ بيروت .

(٢) سبق ترجمته .

(٣) محمد كامل الشناوى متأدب من كتاب الصحافة بمصر ولد فى نوسا البحر مركز أجا دخل الأزهر ولم يستمر فعمد إلى المطالعة ومجالسة الأدباء . وحفظ كثيراً من الشعر وعمل فى الصحافة ١٩٣٥م ونشر نظماً لا بأس به جمعه فى ديوان (لا تكذبى) وله (اعترافات ط أبى نواس ط) و (ساعات ط) وبقيت فى أوراقه قصص قصيرة وقصة طويلة بدأها عام ٥٠ وأبحاث عن المتنبى وسخرية أبى العلاء .
الأعلام - الزركلى - بيروت - جـ٧ ص١٤ .

أما حافظ إبراهيم فقد عرفته وأنا فى عنفوان شبابى وهو فى شيخوخته التقيت به فى مقهى من مقاهى الحلمية الجديدة بالقاهرة وكان هذا المقهى يلتقى به فى ذلك العصر بعض الشعراء والأدباء المصريين أذكر منهم (محمد الهراوى)(١) و (حسين شفيق كامل) و (أحمد الزين) و (محمد عبداللطيف فهمى) و (محمد مرتضى الخطاط) .

وفى ليلة من الليالى زارنا حافظ فى هذا المقهى وتشعب الحديث بين الأدب والسياسة والشئون العامة وظل حافظ يمتعنا بمعلوماته وخفة روحه حتى طلع الفجر ونحن لم نشعر وقد أوحت إلى هذه الجلسة أن أصف (حافظاً) بأبيات منها ما يأتى :

وعشية لاقيت فيها حافظاً　　فلقيت منه ما يسر الأعينا
بتنا كأن " الأصمعى " مشنغف　　آذاننا و " أبا نواس " بيننا
يلقى الجليس لديه كل لطيفة　　من ها هنا تأتى إليه وها هنا

---

(١) أحمد الزين شاعر مصرى كفيف البصر كان يقال له الراوية لكثرة ما يحفظ كف بصره فى صغره - تعلم فى الأزهر واشتغل محامياً شرعياً ثم عمل بدار الكتب موظفاً نحو عشرين سنة له مقالات نقدية وأدبية وديوان شعر مطبوع يضم الأراجيز الأخلاقية؟

الأعلام جـ١ ص١٢٩ طبعة بيروت ٠ دار الملايين .

وأما (كامل الشناوى) فقد عرفته وهو فتى ناشىء حينما كنت أذهب أنا وبعض إخوانى بالأزهر لنذاكر مع أخيه الشيخ (المعتز بالله الشناوى) دروس امتحان عالمية الأزهر وكنا نلقى فى منزلهم كل إكرام وحينما التقيت بكامل أعجبت به فقد كان يجمع على صغر سنه - فنوناً من الظرف حببته إلى نفسى وقلت فيه حينذاك أبياتاً منها :

تــراه وهــو فتــى ماطر شــاربه ملء الفؤاد وملء السمع والبصــر

إن كــان ذلك منـــه فى شـــبيبته فكيف وهو عظيم الشــأن فى الكبر؟

أما (محمد مصطفى حمام) الذى نتحدث عنه بشىء من التفصيل فى هذه الكلمة فهـو الصـديق والزميــل والمقــارب لـى فـى السن لقيتـه وألقــاه مرات كثيرة فى ليـلة من الليــالى زرت فيها الوزير الجليـل الشاعر الثائر (إبراهيم دسوقى أباظـة باشـــا)(١) فأنشـــدنا بعض روائعه فيـه وبعد أن فرغ من إنشـــاده قلت يـا باشا إن مدح حمام لكم سد الباب فى وجهى - اعتذر بذلك عن أننى لم أمدح البــاشا - فقـال لـى رحمـه الله أنـا لا أوافــق على ذلك وحمـــام لا يوافـق علـى ذلك!! وفـى هــذه اللحظـة وجدت نفسى تنبعث إلى نظـم قصـيدة لدسـوقى باشـــا.... وقد جاء فيهـا خاصـاً بالأستاذ حمام ما يأتى :

---

(١) إبراهيم دسوقى بن إبراهيم السيد باشا أباظة أديب مصرى من الكتاب كان من أعضاء مجلس النواب بمصر أكثر من مرة وولى الوزارة خمس مـرات واشتغل بالمحاماة لـه نظم جيد وألف فى صباه كتاب (حديقة الأدب) ونشر مقالات فى السياسية المصرية كان توقيعه فيها الغزالى أباظة مولده بكفر أباظة الشرقية توفى بالقاهرة ١٩٥٣م .
الأعلام - الزركلى - جـ - ص - بيروت ..

و(حمام) لديه ماليس عندى ... من أفانين رقـــة الظــــرفاء
عبقى التقليد للناس فى القو ... ل وفى صمثهم وفى الإيماء
فهـم نعم الســـجل للأدباء ... وهو نعم الســـجل للزعماء

هذا هو (محمد مصطفى جمام) جمـع إلـى إبداعـه فـى الشـعر والنثر عبقرية التقليد كما وصفناه فى آخر هـذه الأبيـات يقلد الزعمـاء والأدبـاء فـى أصواتهم وأسلوبهم الكلامى ولهجاتهم وحركاتهم وسكناتهم فكأنك معهم ويقلد المغنين والمقرئين فى ألحانهم وترتيلهم فكأنك تستمع إليهـم تعاونـه علـى ذلـك رخامة صوته وذاكرته القوية .

وهو يقلد أساليب الشعراء ومن طرائف ذلك أنـه نظـم قصيدة قلد فيهـا أسلوب الهراوى ولم يزل بالهراوى حتى أقنعـه بأنهـا لـه وأنهـا قصيدة قديمـة نسيها الهراوى !! وزور على صديقه الشاعر محمود حسـن إسـماعيل قصيـدة بعنوان (الطبيعة وأرسـلها إلـى جريـدة (الدسـتور) المصريـة وكـانت معنيـة بنشر شعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل فنشرتها على أنها من شعر الأسـتاذ محمود حسن إسماعيل !! ولطرافة نظم هذه القصيدة المزورة التى لامعنى لها نذكرها هنا :

الطبيعة !!

رقص البدر على لحن الصخور ... يا سـماء فى جبـال من يجـور
ونحــورا فى ثغــور من زهور ... قد حبسـنا الجـو فيهـا فانطلق
....

وواضح أن القصيدة المزوررة كلام لا معنى له ومع ذلك . فقد نشرتها جريدة الدستور على أنها شعر للأستاذ محمود حسن إسماعيل(١).

وقريب من هذا إن إحدى المجلات نشرت للأستاذ حمام كلمة أتهم فيها شعراء العصر أنهم لصوص قال فيها إن بيت العقاد الذى يقول :

وماذا أقول لهذى اليمين ... وإنى بها قد صنعت الصنم

مسروق من قول التلعفرى(٢) :

لا لوم إلا على كفى وما صنعت ... إنى صنعت بكفى ذلك الصنما

وهكذا وصل فى كلمته ذلك إلى اتهام خمسة وعشرين شاعراً من الشعراء المعاصرين له بالسرقة وصدق القراء هذه التهمة كما أن هؤلاء الشعراء اتهموا أنفسهم وراجعوا الدواوين التى ذكرها الأستاذ حمام فلم يجدوا بها شيئاً مما ذكره وتبين بعد ذلك أن ما قاله حمام إنما هو إحدى دعاباته .

---

(١) محمود حسن إسماعيل (١٩١٠ - ١٩٧٧م) شاعرمصرى هزج بألحان الريف وغنى للقرية والطبيعة كما غرد للحرية والثورة شارك بشعره فى ثورة الشباب ١٩٣٥ وفى ثورة الشعب ١٩٥٢م ونظم قصائده فى كل أحداث مصر القومية والوطنية ومن دواوينه (هكذا أغنى) ، و (أين المفر) و (نار وأصفار) و (قاب قوسين) و (هدير البرزخ) و (موسيقى من السر) الأدب العربى الحديث أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى - جـ٢ ص١٦٨ وما بعدها طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) محمد بن يوسف بن مسعود الشيبانى شهاب الدين أبو عبد الله التلعفرى شاعر نسبته إلى (تل أعفر) بين سنجاروالموصل سافر إلى دمشق فكان من شعراء صاحبها الملك الأشرف (موسى) الأيوبى له ديوان شعر مطبوع توفى ٦٧٥هـ .
الأعلام - الزركلى - جـ٧ ص١٥١ - بيروت .

وقد بلغ من إجادة تقليد حمام للمقرئين وأمثالهم إننا كنا فى جلسة بدار صديقنا الأستاذ (عطية زايد) وكان بين الحاضرين المقرىء المصرى الشيخ (مصطفى إسماعيل) واستمع إلى الأستاذ حمام وهو يقلد بعض المقرئين القدامى فكان الشيخ مصطفى إسماعيل يتابع الإصغاء لجواب النغم وقرارة متابعة الحريص على أن لا يفوته شىء من ذلك كما كان يصفق بيديه إعجاباً واستغراباً . وقد بلغ من إجادة تقليد حمام للشعراء أن شاعراً كبيراً من الشعراء المعاصرين له أسمعه حمام قصيدة وضعها على لسان ذلك الشاعر وقلد أسلوبة فيها فنسبها ذلك الشاعر إلى نفسه وقال نحن أولى بها وكان ذلك أمام طائفة من الأدباء .

ليس تقليد حمام لمن يقلدهم ناحية من نواحى التهريج والهزل كما يسبق فهمه لبعض الأذهان بل هو ناحية من النواحى الفنية وموهبة مستقلة بذاتها كموهبة الشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل وهى فى نظرى تجمع بين موهبتى الأدب والتمثيل فهى شىء ممزوج منها .

وإن حماماً فى هذه الموهبة يمتاز : بأنه إذا حكى لك نادرة من النوادر أو قلد شخصاً من الأشخاص فإنك لا تمل هذه النادرة ولا هذا التقليد ولو كرر حمام ذلك فى الجلسة الواحدة أكثر من مرة .

وإن حماماً ليذكرنى بواحد من الظرفاء الأقدمين وهو (أشعب) ولكن اشعب كان طماعاً وحمام بعيد عن ذلك أما الخلال الحميدة التى يجتمع فيها الظريفان أشعب وحمام فهى أن أشعب كان من أطيب أهل زمانه عشرة وحمام كذلك وأنه كان من أكثرهم نادرة وحمام كذلك وأنه كان حسن الصوت بالقراءة وحمام كذلك وأنه كان يغنى أصواتاً فيجيدها وحمام كذلك !! .

ونستطرد فنقول إن الظرفاء أنواع فمنهم الظريف فـى حديثه وحضـور بديهته ومنهم من يضم إلى فن التقليد لغيره ومنهم من يضم .إلـى ذلـك رخامـة الصوت ومعرفة الألحان والأنغام ومنهم من يضـم إلـى ذلـك التمثيـل كمـا فـى قصة أشعب - إذا صحت - وهم فى ذلك كله ألوان ودرجـات وكلهـا ظريـف ويختلف الظرف باختلاف الثقافات والآداب فما يراه جماعة ظرفاً يراه غيرهم سخفاً والميزان فى ذلك مرجعه إلى أرباب المعرفة والذوق السليم .

ومن أخلاق الظرفاء أنهم يحرصون كل الحرص على أن لا يسيئوا إلى أحد فى المجلس بعبارة أو إشارة .... ونعود إلى (حمام) فنقول أنه حفظ القرآن فى صغره ونظم الشعر وهـو بالمدرسـة الابتدائيـة وكـان لثـورة مصـر علـى الإنجليز سنة (١٩١٩م) دخـل فـى عـدم تمكنـه مـن إتمـام دراسـته بالمدارس وكان فـى هذه الثـورة وهـو ناشـىء أحد الخطبـاء الوطنييـن الذيـن عرفهم منبر الأزهر وكان الأزهر معقـل الثـورة حيـن ذاك ..... ومـر الزمـن فأصبح موظفاً بالحكومة المصرية ثم استقال من وظيفته واشتغل بالصحافة .

ولحمام آفاق فى الأدب متعددة فسيحة فهو شـاعر نـاثر زجـال صـاحب ذاكرة قوية وقريحة فياضة وقلم سيال بما يحفظه أو ينشئه أو يزعمه .

ولحمام أدبه الجاد وأدبه الضاحك وهو الموهوب مـن النـاحيتين البـارع فى الصناعتين .

وهو محب لإخوانه محبوب منهم أعبـاؤه فـى الحيـاة كثيرة وقد يصنـع لنفسه بيديه هذه الأعباء .

و (حمام) فيه طباع الطير فهو لا يستقر علـى حـال مـن روضـة إلـى روضة ومن فنن إلى فنن .

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق ويوماً بالخليصاء وهو فى كل انتقالاته هذه:

كريشة فى مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

(وبعد) فحمام نسمة من النسمات ولكنها تعيش بين الأعاصير تعيش بينها شاقة طريقها إلى حيث تريد وهى هادئة مطمئنة ساخرة من هذه الأعاصير باسمة لها ، لا تباليها ولا تتلاشى فيها(١) ...

يعرض المقال السابق لمحات من شخصية الشاعر (محمد مصطفى حمام) وقد استهل كاتبنا مقالة بحديث لطيف جذاب عن شخصية الشاعر حافظ إبراهيم موضحاً ما يتصف به من ظرف ولطف وحاسة فنية مرهفة كما أشار إلى بعض الشخصيات الأدبية المصرية مثل الهراوى وأحمد الزين ومحمد عبد اللطيف فهمى وكامل الشناوى ثم تناول الحديث شاعر المقال (محمد مصطفى حمام) بتفصيل ممتع يلقى الضوء جلياً على طبيعة علاقة محمد الأسمر كاتبنا الأصيل بالشاعر مصطفى حمام حيث قال :

(فهو الصديق والزميل والمقارب لى فى السن ...) .

كما بين للمتلقى خصائص مصطفى حمام الإبداعية التى يدركها الدارس فى شعره ونثره إلى جانب عبقرية التقليد الفنى للزعماء والأدباء فى أصواتهم وأسلوبهم الكلامى ولهجاتهم وحركاتهم وسكناتهم ويقلد المغنين والمقرئين فى ألحانهم وترتيلهم كما يقلد أساليب الشعراء محاولاً إقناعهم بأن هذه الأعمال التى ينشدها لهم كما فعل مع الشاعرين محمد الهراوى ومحمود حسن إسماعيل ويبين الأسمر تمتع حمام بظرف اجتماعى ووجدانى يذكره بأشعب أحد ظرفاء العرب القدماء إلى جانب تمييزه الفنى وقد تجلى ذلك فى وصفه

(١) مع المجتمع ٩٧ : ١٠٤

لشخصية المقـال (ولحمـام آفـاق فـى الأدب متعـددة فسيحة فهـو شـاعر نـاثر زجال صاحب ذاكرة قوية وقريحة فياضة وقلم سيال بمـا يحفظـه أو ينشـئه أو يزعمه ولحمام أدبه الجاد وأدبه الضاحك وهو الموهوب فى النـاحيتين البـارع فى الصناعتين) .

والمتلقى الكريم للمقال يدرك أنه ينتمى إلى مقال السيرة استطاع كاتبنـا فيه تصوير شخصية مصطفى حمام تصويراً جيد التشكيل مـن خـلال التناسـق التعبيرى مع دقة الربط بين الفقرات .

ومن الجدير بالذكر أن مصطفـى حمـام ابـن النيـل حيـث جسـد بسـلوكه الطيب وطبعه العذب طبيعة أبناء النيل أبنـاء مصـر ولهـذا ورد المقـال ضمـن باب (من وحى النيل) .

ويسدل الستار على باب (من وحى النيل) ليفتح على باب (من وحـى الأغانى) .

من وحى الأغانى

يضم هذا البـاب مقـالات اجتماعيـة تكشـف النقـاب عـن عوامـل تشـكيل الذوق الإنسـانى الرفيـع الـذى يـدل علـى درجـة رقـى الأمـة وقـد وجـد كاتبنـا المصرى الأصيل والأزهرى الراقـى أن الأغـانى مـن عوامـل تشـكيل الـذوق فسجل مقالاته التى تـبرز فـى المقـام الأول كيفيـة الحفـاظ علـى هيبـة الإسـلام وتنمية النشء تنمية صحيحـة واعيـة شـريفة تمثـل البنـاء الإسـلامى المصـرى الحضارى المتميز ويضم هذا الباب المقالات الآتية :

- حول الأغانى .
- الإذاعة والأصوات .
- الأغانى قديماً وحديثاً .
- الحب والأغانى الشعبية .
- أغانى الشرق ونزهة بغداد .
- سمعة مصر فى الخارج .
- الأفلام وأغانى الأفلام .
- سقوط القاهرة .
- الأغانى المسجلة .
- تحركوا يا جبال .
- كارثة الراديو .
- الراديو وجار السوء .
- الراديو وحنفية الماء .
- مراقب عموم برامج الإذاعة !!
- راديو الجيران .
- واجب الإذاعة وواجب أئمة المساجد وواجب وزارة الداخلية .
- قانون استعمال الراديو ومواعيد الإذاعة .
- طلائع الإرشاد والحزم .

بدأ باب (من وحى الأغانى) بمقال عنوانه (حول الأغـانى) قـال فيـه محمد الأسمر ما يلى :

(إن من الأمور التى لا يختلف فيها عاقلان أمـر الأغـانى وبـالغ أثرهـا فى الجماهير فهى من العناوين التى تدل على جوهر الأمة ومعدنهـا فالأغـانى من بعض نواحيها لهـا قـوة تكييـف الأمـة وصـوغهـا وتوجيههـا كمـا أنهـا مـن بعض نواحيها علامـات ودلالات يعـرف بهـا الأمـة مـن يجهلهـا ويستدل بهـا عليها من لم يفحصها ويسبر غورها .

وليس بسر من الأسرار أن عقلاء الأمة المصرية والمخلصين لها نبهوا الأذهان المرة بعد المرة إلى أن كثيراً من الأغانى المصرية خصوصـاً أغـانى الحب لا تليق بمكانه مصريين العالم العربى .

مصر التى تحمل لواء الثقافة فى الشرق مصر التـى عليهـا أعبـاء ثقـال لإعادة مجدها .

إن مصر الجادة فى أعمالها يجب أن تكون جادة فى أقوالها ليعضد هـذا ذاك ولكيلا يكون هناك تناقض بين الأقـوال والأفعـال فليس مـن المعقـول ولا من المستساغ أن تدرب مصر أبناءها على الجنديـة والبسـالة وروح التضحيـة وهم يسمعون من أغانيها أمثال هذا المحب الذى يتمنى أن يكون (شبشباً) فى قدم حبيبه (يا شبشب الهنا ياريب كنت أنا) وأمثال (يا عـوازل فلفلوا) إلـى آخر ما هنالك من هذه الأغانى التى تموج بالذلة والخنوثة أو تموج بالمهاترات والوقاحة والتعبيرات المنحطة الخالية من العاطفة ومن روح الفن .

ومثـل هـذه الأغـانى تنسـاب كمـا تنسـاب الأفـاعى إلـى أسـماع الفتيـان والفتيات عن طريق الأفلام السينمائية أو غيرها فتقضى علـى الجيـل الناشـىء وتنبته نباتاً سيئاً غارقاً فى الذلة والتخنث والانحطـاط العاطفى والكلامى .

لو أن دولة معادية لمصر أشـد المعـاداة مـا اسـتطاعت أن تسـىء إليهـا إساءة هذه الأغانى القاتلة فلحساب من تصاغ هذه الأغانى تُلحن وتُغنى !؟

لا نريد أن نناقش كل هذه الأغانى أغنية أغنية ولكننا نريد أن تستأنف مصر نهضة غنائية جديدة تتمشى مع نهضتها الحاضرة لتحلق مصر بجناحين قويين من القول والعمل ولن يطير طائر بجناح قوى وجناح ضعيف بل لابد من قوة الجناحين للطائر الذى يريد أن يحلق .

ونحن فيما يلى نلقت النظر فى إيجاز إلى ما نعتقد أنه من الأمور التى تنهض بالأغانى .

إن الأغنية تتكون من ثلاثة عناصر : التأليف والتلحين والغناء .

التأليف :

من الحدود التى أراها ناهضة بتأليف الأغنية ما يأتى :

١ - الابتعاد عما يثير الخلافات الدينية وغيرها .

٢ - الابتعاد عن الخرافات مثل (فتح الفنجان) وما شابه ذلك من الأغانى التى تشيع فى الشعر الجهالة والتأخر .

٣ - الابتعاد عن الأغانى المتخاذلة المخنثة التى يظن مؤلفوها أنها تعبر عن الحب ثم الحرص كل الحرص على السمو بهذه الأغانى سمواً يتفق مع كرامة الشرق وكرامة الرجولة حتى لا يخجل الرجل المهذب من أن تستمع إلى هذه الأغانى أسرته .

٤ - الابتعاد عما يسىء إلى بعض الأفراد مثل (العمدة) و(شيخ البلد) ومراعاة شعور كل طائفة مراعاة دقيقة .

٥ - أن لا تكون الأغنية من النظم الذى يحتاج فهم ألفاظه إلى عناء ولا من النوع الغامض المعانى المعقد الخيال المملوء بالاستعارات غير الواضحة

فإنه لا يكون مفهوماً لجماهير المستمعين ومن العبث مخاطبة الناس بما يجدون عناء فى فهمه أو بما لا يفهمونه ... وليس معنى ذلك أن يكون النظم مسفاً خالياً من الفن فى لفظه ومعناه بل يجب أن يكون قوياً واضحاً فىعمومه للجماهير أو من النوع الذى يعبر عنه الأدباء بالسهل الممتنع .

٦ - يجب ذوقاً وديناً أن تخلو قصائد مدح الرسول من المقدمات الغزلية ويجب أن لا يمدح الرسول بما تمدح به الغانيات الفاتنات حين وصف محاسن أجسامهن كما يجب عدم إقحام اسم النبى ﷺ فى أغانى الحب مثل (سايقة عليك النبى) ومثل (لا والنبى يا عبده) ففى ذلك ما فيه من الاستهتار بهذا المقام العظيم والخروج الواضح على تعاليم الإسلام وآدابه .

اللحن :

من الحدود التى أراها ناهضة باللحن ما يأتى :

١ - أن يكون اللحن مناسباً للشعر فلا يكون الشعر حماسياً ولحنه لحن شعر الحب أو العكس .

٢ - أن لا يكون اللحن منقولاً أو على الأقل لا يكون منقولاً نقلاً واضحاً من غير تصرف يعطيه لوناً غير لونه الأول المنقول عنه .

٣ - أن لا ينقل الملحن لحنا من أغنية له إلى بقية الأغنيات التى يطلب منه تلحينها لكيلا تكون ألحانه لحناً واحداً أو لحناً متشابهاً كل التشابه .

٤ - أن يبتعد الملحن عن الميوعة التى تحمل فى ثناياها الكثير من الانحراف عما يجب على الملحن نحو فنه ونحو أمته .

٥ – من الواجب أن يقرأ الملحن النص مع المؤلف قبل التلحين ليبتعد بذلك عن الخطأ فى غناء القطعة قبل تلحينها كما حدث لبعض كبار الملحنين وغير الكبار منهم !

٦ – أن لا يطغى الملحن بموسيقاه على صوت المغنى فإنه بذلك يطمس شعر الأغنية وصوت المغنى .

الأداء :

من الحدود التى أراها ناهضة بأداء الأغنية ما يأتى :

١ – أن يدرس صوت المغنى ويختار له ما يناسبه من التأليف واللحن وهذا لا ينافى أن هناك أصواتاً منحها الله القدرة على أداء التنوع من التأليف والمتنوع من الألحان .

٢ – أن يبتعد المغنى عن التكلف فى الأداء وعن الميوعة فيه .

٣ – أن يحفظ المغنى القطعة قبل غنائها فذلك أوعى إلى التفرغ لأدائها خصوصاً حين تسجيلها .

٤ – أن لا يسجل المغنى قطعة إلا بحضور المؤلف – فكثير من المغنين يخطئون فى الأداء أخطاء واضحة تغير المعنى وتشوه التأليف كما حدث لبعض كبار المغنين وغير الكبار منهم !

وأرى أن تطبق هذه الحدود على الإسطوانات والأشرطة القديمة فيستبقى الصالح ويستبعد غير الصالح .

الإذاعة والممثلون الفكاهيون :

وهناك مسألة جديرة بالعناية وهى أن هنالك بعض ممثلين سينمائيين فكاهيين ليست أصواتهم حسنة والناحية المهمة فى أدوارهم التى يقومون بها فى قطعهم التى ينشدونها هى حركاتهم وإشاراتهم ومثل هؤلاء لا يرى الناس فنهم إلا بمشاهدتهم وهم يمثلون أما سماع ما يقولونه من غير مشاهدتهم فلا يتجلى فيه فنهم المضحك القائم على حركاتهم أو إشاراتهم وهؤلاء أرى أنهم يشاهدون على الشاشة أو على المسرح أما سماع ما يقولونه من غير مشاهدتهم فهو من وضع الأمور فى غير موضعها .

الإذاعة وأغانى الأفلام :

وهذا الذى نقوله عن هؤلاء الممثلين الفكاهيين نقوله عما تذيعه (الإذاعة) من بعض أغانى الأفلام السينمائية التى يرتبط سماعها برؤية منظرها الذى وضعت له الأغنية فهذه الأغانى مما يسمع فى السينما مع مشاهدة منظره لا مما يذاع وحده على أنه أغنية مستقلة وإن هذه الأغانى تكون مقبولة وهى فى موضعها من الفيلم السينمائى لظروفها وملابساتها من العرض الكلى للفيلم ولكنها حينما تنفصل من ذلك وتقدمها الإذاعة للسامعين على إنها أغنيات مستقلة تصبح وهى شىء يجب أن لا يسمعه السامعون .

إن الإذاعة غنية بإمكانياتها فلماذا لا يكون لديها الأغانى الصالحة الكافية التى تتفق مع رسالتها الخاصة بها نحو الأمة بدلاً من بعض أغانى الأفلام التى صنعت لشىء خاص بقصة هذه الأفلام وللإذاعة رسالتها الخاصة بها وللسينما رسالتها الخاصة بها .

الإذاعة والموسيقى :

وتحسن الإذاعة كثيراً إذا عملت على الإكثار من إذاعة القطع الموسيقية المستقلة التى لا يصاحبها الغناء ... فالموسيقى وحدها فن جميل ولها عشاقها الكثيرون وفى ذلك نهضة بالموسيقى والموسيقيين .

والحقيقة بعد ذلك كله : هى أن (الأغانى) و (الألحان) و (الأفلام السينمائية) التى تحمل الذلة والخنوثة والتهريج لا نتيجة لها إلا خلق جيل ذليل مخنث مهرج وعاقبة كل ذلك الوصول بمصر وبالبلاد العربية إلى الانحلال الدينى والأدبى والاجتماعى .

إن الرضا عن مثل هذه الأغانى والألحان والأفلام التى ذكرناها هو فى نظرنا قتل للوطن ونستبعد كل الاستبعاد أن يكون فى البلاد العربية من يريد قتل وطنه(١) .

يشتمل المقال السابق على الأفكار الآتية :

١ – الحديث عن أصول التأليف .

٢ – الكشف عن حدود اللحن .

٣ – سبل الأداء الصحيحة للأغنية المصرية .

٤ – القواعد اللازمة للممثل الفكاهى .

٥ – شروط الأغنية الإذاعية .

٦ – العناية بالموسيقى .

---

(١) مع المجتمع ص١٠٧ : ١١١

والمتذوق لأفكار المقال يجد أن الأسمر عالجها بموضوعية واعية حيث حدد جوانب الموضوع بذكاء وحيوية استمدها من طبيعة البيئة المصرية وواقعها المحسوس وقد أحسن كاتبنا فى تحليل الأفكار كما أحسن فى تحديد الأصول الاجتماعية والأخلاقية والوجدانية التى يجب الالتزام بها فى إعداد الأعمال الفنية الخاصة بأغانى الإذاعة والسينما ويبين الأسمر أن هذه الأغانى يجب أن تتصف بالطابع الأخلاقى وتتمتع بالأنغام الراقية السامية لأن ذلك دلالة على درجة حضارة الأمة ويبين الأسمر أن مصر الغالية راية الإسلام وقلب العروبة النابض حيث تنطلق منها أنوار الحضارة الإسلامية والعربية ويربط بين منزلة مصر وبين الأغانى معترضاً على ما فيها من ابتذال يعرض كرامة مصر للمهانة ويشير كاتبنا أن للأغانى رسالة سامية حيث تبرز شخصية وطنها وأهله ويعلن الأسمر هذا فى مقولته الواعية (فالأغانى من بعض نواحيها علامات ودلالات يعرف بها الأمة من يجهلها ويستدل بها عليها من لم يفحصها ويسبر غورها ..... إن كثيراً من الأغانى المصرية خصوصاً أغانى الحب لا تليق بمكانة مصر بين العالم العربى مصر التى تحمل لواء الثقافة فى الشرق مصر التى عليها أعباء ثقال لإعادة مجدها .... إن مصر الجادة فى أعمالها يجب أن تكون جادة فى أقوالها ..... فليس من المعقول ولا من المستساغ أن تدرب مصر أبناءها على الجندية والبسالة وروح التضحية وهم يسمعون أمثال هذا المحب .... إلى آخر ما هنالك من هذه الأغانى التى تموج بالذلة ..... الخالية من العاطفة ومن روح الفن) .

وتتجلى من الفقرة السابقة روح الأصالة المصرية والغيرة الوطنية التى تمتع بهما كاتبنا والمتذوق لأبعاد كلماته يرى أنها تتفق مع ما نحاول علاجه اليوم وخاصة أن مصرنا الحبيبة بلد الأزهر الشريف مستهدفة من التيارات

المعادية التى تحاول جاهدة تحطيم ريادته للعالم الإسلامى والعربى عن طريق توريد الأفكار السامة وبثها بين شباب الجيل وتشجيعهم على قبول معانى الذلة والخنوثة التى تبعدهم عن العزة والكرامة .

وقد أعجبنى قول الكاتب (لو أن دولة معادية لمصر أشد المعاداة ما استطاعت أن تسىء إليها إساءة هذه الأغانى القاتلة فلحساب من تصاغ هذه الأغانى وتلحن وتغنى) والكلمات دعوة تحذيرية لكل مصرى من الانغماس فى اللهو الذى يدفع إلى الهلاك وهذا ما يسعد الأعداء .

وكاتبنا لا يهاجم الفن ولا يعترض على الأغانى إنما يرى ضرورة الرقى بالذوق الغنائى حتى يتناسب مع كيان مصر التى تحمل أمانة النهوض بالعالم الإسلامى والعربى .

وقد نظر كاتبنا إلى كيفية النهوض بالأغنية من حيث التأليف والتلحين والغناء والأداء فبين ضرورة الالتزام بالأصول الأخلاقية المنبثقة من وحى التشريع الإسلامى مع الالتزام الواعى بما يتفق مع الإذاعة وبما يتفق عرضه على الشاشة ويدل هذا على تفتح كاتبنا وبعد رؤيته .

والمتلقى للمقال يدرك أن كاتبنا يعيش معنا الآن داخل ديارنا ويغوص فى أعماقنا فيرفض ما نرفضه حرصاً على أفلاذ أكبادنا الذين يحملون لواء الإسلام فوق أرضنا الحبيبة بلد الأزهر الشريف وقد أجاد كاتبنا فى قوله عن شروط التأليف : يجب (الابتعاد عن الأغانى المتخاذلة المتخنثة التى يظن مؤلفوها أنها تعبر عن الحب ثم الحرص كل الحرص على السمو بهذه الأغانى سمواً يتفق مع كرامة الشرق وكرامة الرجولة حتى لا يخجل الرجل المهذب من أن تستمع إلى هذه الأغانى أسرته) كما يجب (الابتعاد عما

يسيء إلى بعض الأفراد مثل (العمدة) و(شيخ البلد) ومراعاة شعور كل طائفة مراعاة دقيقة . لقد تمتع مقال كاتبنا (حول الأغاني) بالموضوعية الواعية التي تعمل على النهوض بمصرنا حتى تظل راية خفاقة جديرة بحمل الأمانة .

وقد تناول محمد الأسمر عقب ذلك الحديث عن رسالة الإذاعة في مقال بعنوان (الإذاعة والأصوات) قال فيه (من رسالة الإذاعة أن تقدم للسامعين الصوت الحسن وأن تتجنب تقديم الأصوات غير الحسنة وقد عثرنا على مذكرة لبعض أساتذة الغناء يصف فيها بعض الأصوات رأينا أن نثبتها هنا. حتى لا تقع الإذاعة في تقديم ما يشابه هذه الأصوات قال صاحب المذكرة :

(فلان) لا حلاوة في صوته - لا يرتكز على المقامات السليمة - أقل من المستوى المقبول .

و (فلان) صوته رجراج - لا يستقر على المقامات - وفي أدائه صلابة .

و (فلان) صوته زئبقي لاتزان فيه ليست عنده فكرة عن الفن الموسيقي .

و (فلان) لا ترتيب في أدائه من الناحية الفنية نقلاته الفنية غير صحيحة .

و (فلان) صوته فيه رعدة غير مستقر ولا حلاوة فيه .

و (فلان) صورة تزال لا يستقر على المقامات السليمة وهو صوت غير مصقول .

و (فلان) أنفي الصوت صوته يخرج من أنفه مخارج ألفاظه غير سليمة وصوته غير جذاب وغير مستقر على الأنغام السليمة .

و (فلان) صوته باك غير مصقول به ذبذبة . نشاز لا يعرف شيئاً عن الفن الموسيقى والنقلات السليمة .

و (فلان) صوته متزمت،ومخارج ألفاظه غير واضحة وتنقلاته نشاز.

و (فلان) صوته أجش غير سليم النبرات .

و (فلان) متسلخ الصوت أجشه فاقد للعذوبة .

و (فلانة) صوتها ردىء ضعيف (نونوى) كأنه نونوة القطط !!

نسأل الله السلامة للإذاعة والسامعين من هذ الأصوات .... فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين(١) !!

والمقال وصفى دقيق يعرض فيه الكاتب طبيعة الأصوات ويبين الأسمر أن رسالة الإذاعة انتقاء الأصوات الحسنة التى تحمل بين نبراتها جمال المشاعر ورقة الأحاسيس ونبل العواطف فالصوت الحسن توحى نغماته بسحر المعانى كما يوحى رنينه بعمقها والمقال نداء لاختيار الأصوات التى تغنى فى الإذاعة لأنها تعكس بنبراتها درجة رقى الأمة ويكشف المقال الساق ما لمحمد الأسمر من حس مرهف ومشاعر راقية وذوق رفيع وغيره وطنية تغرد بجلال مصر وشرف مجدها بين العالم .

ويعقب المنشىء بعد ذلك بمقال (الأغانى قديماً وحديثاً) جاء فيه (الشعر والغناء قديمان عرفتهما كل الأمم وقد تلون الشعر والغناء فى كل أمة بلون تقدمها فى الحياة أو بلون تأخرها .. وقد تتعاقب على الأمة عصور مختلفة من رقى وانحطاط فتختلف ألوان هذين الفنين فيها تبعاً لكل لون عصر

(١) مع المجتمع ص١١٢ .

من عصورها ... والحق أن الأغنية هى إحدى العناوين الواضحة للأمة وإحدى نوافذها التى يطل منها من لا يعرفها ليرى رقيها أو انحطاطها .

ولست أرمى فى هذه الكلمة إلى التعرض لتاريخ الأغنية فى شتى الأمم ولكن الذى أرمى إليه هو التنبيه إلى أن من الأغانى القديمة فى كل العصور ما هو صالح وفاسد وإلى أن من الأغانى الحديثة ما هو صالح وفاسد ... وقد كان فى كل عصر قوم حاربوا الأغانى الفاسدة التى تهدد الأمة فى أخلاقها حرباً لا هوادة فيها فهذا (بشار بن برد) الشاعر العباسى الكبير تمادى به غزله (لى ضروب من الصراحة يأباها) الذوق السليم حتى أفحش وتهتك وقد كانت تتغنى بشعره القيان فجزع لذلك الوعاظ ورجال الدين مثل (الحسن البصرى) و (واصل بن عطاء) جزعاً شديداً وحاولوا أن يردوا (بشاراً) عن هذا الطريق فلم يفلحوا وزاد فحشه وتهتكه فرفع الناس أمره إلى الخليفة المهدى فاستدعاه وقال له أتحض الناس على الفجور ؟! والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً فى نسيب لآتين على روحك .

وتنحدر من العصر العباسى إلى العصر المصرى الذى أدركناه فى شبابنا لقد كنا نسمع فى هذا العصر أغانى فاحشة متهتكة ...

....

ولم يخل هذا الزمن من أغان حسنة شعراً وزجلاً فمن الشعر الحسن الذى غنى به المغنون فى ذلك العهد القصيدة الآتية :

وحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب

ولى فيك يا هاجرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب

أبيت أسامر نجم السماء ... إذا لاح لى فى الدجى أو غرب

أمــــولاى بالله رفقـــاً بمـــن   إليك بـــذل الغـــرام انتســـب

....

وهذه القصيدة الرقيقة من نظم فضيلة الأستاذ الأكبر (الشيخ عبد الله الشبراوى) شيخ الجامع الأزهر المولود سنة (١٦٨٠) ميلادية والمتوفى سنة (١٧٥٨م) وقد تحدث عنه المؤلف الكبير الأستاذ (محمد عبد المنعم خفاجى) فى كتابه (الأزهر فى ألف عام) .

أما الزجل الحسن فى ذلك العهد ونقصد بالحسن هنا أنه كريم المعانى وإن كان فى بعض صياغته شىء من الضعف فمثل (الأدوار) الآتية :

العشـــــق كـــــل حكـــــم   والصـــب يصـــبر لو عـــرف

أمــــر المحبـــــة محتـــــرم   إجـــار حبيبـــى أو عطـــف

قـــدم حياتـــك لـــه فـــدا   واصـــبر على كيـــد العـــدا

أســـمع لحكمـــه لو ظـــلم   مـــا دام تحبـــه بالشـــرف

هذا بعض ما سمعنا فى شبابنا من فاسد الأغانى المصرية وصالحها ونحن فى زماننا هذا لانزال نسمع الفاسد والصالح من الأغانى الحديثة مع تغير عام فى أسلوب صياغة الأغنية فقد صار إلى السلاسة أقرب سواء فى ذلك الأغنية الفاسدة أو الأغنية الصالحة وهذه السلاسة التى ذكرناها لا تشفع للأغنية الفاسدة أن تعيش فإنها إن عاشت أماتت الأمة أو أسقمتها .

ولو أردنا أن نتناول الأغانى الفاسدة بالتعليق والنقد لا حتجنا إلى كتاب ضخم خصوصاً إذا انضم إلى نقد كلام الأغنية نقد ألحانها ونقد أدائها ونحن لا نوافق الذين يقولون : إن الأغانى المصرية الفاسدة قليلة العدد وإذا سلمنا أنها قليلة العدد فما سر الإبقاء عليها ؟! .

إن حفنة من السوس إذا أهملت اتلفت (جرنـاً) مـن القمـح فكيـف بهـذا السوس الغنائى الذى يفتت أخلاق الناشئة فى القرى والمدن ؟! .

هذا السوس الغنائى الذى يزين للناشئين الفساد ويطبعهـم علـى الميوعـة والتحلل وينحرف بهم عن الصلاح والرجولة ؟!

ولنضرب مثلاً واحـداً علـى مبلـغ سـخف الأغـانى الفاسـدة المفسـدة فـى العصر الحاضر .

هل هناك عاطفة أسمى من الحب ؟! إن هـذه العاطفـة السـامية وصلـت فى بعض الأغانى إلى أنها التسـول فـى أحـط صـوره لمـا اشـتملت عليـه مـن اللجاج والإلحاف مع ما اشتملت عليه من المجانة والخلاعة .

فاستمع إلـى هـذا الحـوار بيـن مغنـى ومغنيـة فـى قطعـة غنائيـة تذيعهـا الإذاعة كل آن على سمع الفتيان والفتيات . هو :

شـحات ومـد إيديه   وكسر خاطره حـرام

حـدفوا الهـوهنا ليه   طالب تحنوا عليـه !

يا محسنين الغرام

....

هـذه هـى لغـة الحـب التـى ينشـأ عليهـا فتياننـا وفتياتنـا تسـول وذلـة واسـتحلاف باسـم النبـى صلـوات اللـه وسـلامه عليـه وإلحـاح كإلحـاح الذبـاب وإقحام ليوم القيامة . كل ذلك فى جو من السخر والتماجن مع ترديد اسم اللـه جـل جلالـه فـى جـو مـن الميوعـة والرقاعـة والاسـتهتار ليـس هـذه الأغنيـة ومثيلاتها مما يبنى الأمم ولكنها مما يسرع بها إلى الانحلال والانهيار .

وقد يستسيغ بعض الناس سماع هذه الأغنية فى فيلمها السينمائى الخاص بها إما أن تذيعها الإذاعة كأنها أغنية مستقلة فهذا لايستسيغه أحد من الناس(١) .

يعالج المقال السابق قضية اجتماعية تمس كيان المجتمع حيث تعكس درجة تقدمه وتطوره .كما تبين طبيعة ذوقه وقضية كاتبنا قضية حيوية وذلك لأن الفن علامة من علامات تقدم الأمة يبرز بجلاء درجة تفاعلها مع موكب الحياة وقد أعلن كاتبنا أن الفن للأمة (إحدى نوافذها التى يطل منها من لا يعرفها ليرى رقيها أوانحطاطها) والأسمر بهذا يدرك دور الفن عامة والشعر والغناء خاصة فيشير إلى أنهما نافذة للعالم ينظر منها ليرى درجة تقدم الأمة المصرية وقد وفق فى هذا التعبير لأن الناظر من النافذة يرى بوضوح ملامح الصورة ويبين كاتبنا أن الغناء يرتبط فى كل عصر بتكوين أهله الاجتماعى والثقافى والوجدانى ويشير إلى أن اسباب انتشار الفسق والفجور يرجع إلى فراغ طبقة تنحدر بذوقها إلى الابتذال الأخلاقى وهذه الطبقة تحاول بث سمومها فى المجتمع ولكن رحمة الله تسخر من يدافع عن كيان الإنسانية الشريف كما حدث فى العصر العباسى الذى تفشى فيه المجون على يد بشار وغيره فنهض رجال الفضيلة أمثال الحسن البصرى وواصل بن عطاء(٢) وهكذا سنة الله فى خلقه يحمى الصالحين من عباده فى كل زمان ومكان

---

(١) مع المجتمع ص١١٣ : ١١٩ .

(٢) واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة (٧٠٠ - ٧٤٨م) رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين سمى أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصرى نشر الاعتزال فى الآفاق .
الأعلام - الزركلى - جـ٨ ص١٠٨ بيرو دار الملايين .

ويتحدث الأسمر عن قضية المجون الغنائى فى المجتمع المصرى رافضاً التهتك والابتذال حرصاً على منزلة مصر وسمعة الشعب المصرى بين العالم فمصر بلد الأزهر الشريف راية الإسلام ومنار الأمجاد يجب أن تتزين بكل ما يناسب كيانها لهذا يجب اقتلاع الشوائب التى تمس كرامتها . ويرى الكاتب أن المجون الغنائى يعمل على التدهور الأخلاقى والانحلال السلوكى فى القرى والمدن المصرية مما يعمل على أفول نجم مصر الحضارى بين العالم ومصرنا الحبيبة الغالية فى حاجة إلى البناء الاجتماعى الصحيح الذى يساعد على التكوين الوجدانى الرفيع حتى تنهض الأمة المصرية وتجدد مجدها التليد الذى يحتاج إلى القوة والتحدى والإرادة والرقى النفسى وهذا لا يتفق مع ما تشيعه الأغانى الماجنة التى تزين للناشئين الفساد وتطبعهم على الميوعة والتحلل وتنحرف بهم عن مقومات الرجولة الصالحة .

والآن فى مجتمعنا المصرى يدرك المتلقى الكريم أن الله سبحانه جعل الأزهر الشريف نور الهداية للأمة المصرية والإسلامية ولهذا فعليه تقويم أى إعوجاج يعوق المسيرة الحضارية أو يمس سمعة مصر الإسلامية ثم يتناول الكاتب أغانى الحب والغرام التى تذاع فى الإذاعة المصرية وتحمل بين نغماتها المجانة والخلاعة والسخر ويتردد فيها اسم الحق تبارك وتعالى واسم الحبيب ﷺ ويناشد الرقابة الإذاعية بالحفاظ على جلال اسم الله ومنزلة الحبيب ﷺ ووضعهما فيما يليق بهما من قدسية وجلال .

وقد عرض محمد الأسمر المقال بموضوعية وذكاء حيث وضح أن رسالة الفن عامة والشعر والغناءيجب أن تتزين بالسمو والرقى والنبل الإسلامى كما بين أن للإذاعة دوراً يختلف عن دور السينما وأعلن كاتبنا أن مصر فى دور البناء الحضارى والمدنى ولهذا يجب الحفاظ على النشء

بحمايتهم من سماع نغمات المجون وأساليب التهتك حتى تصبح أمتنا الإسلامية العربية شمساً ساطعة تنير الطريق للأمم جميعها .

والمقال جيد العرض واضح الأفكار متناسق الفقرات استطاع الكاتب عرض أفكاره بدقة وحيوية لشدة إيمانه بقضية البناء الاجتماعى وعوامل النهوض به .

ويعرض كاتبنا بعد ذلك قضية هامة تتحدث عن طبيعة الأغانى الشعبية فى مصر عبر مقال (الحب والأغانى الشعبية) جاء فيه :

(جاءتنا الكلمة الآتية من الأديب (على حسن خليل) يعلم الجميع : أنه قديماً وحُديثاً كانت الأغانى ولا زالت لها أثر كبير فى تربية الأذواق وتهذيب النفوس وتغذية الروح والسمو بها إلى أرقى درجات الكمال – سواء فى وقت السلم أم فى وقت الحرب . والأغانى هى المرآة التى تنعكس عليها آمال الشعب وأمانيه وأفكاره ومدى تقدمه فى الحياة من حضارة وغيرها – فإذا كان هذا حكم الأغانى فبماذا تحكم على شعب قد انحطت فيه الأغانى حتى أصبحت وباء لا يطاق بماذا تحكم على ذوقه على نفسيته عل درجة كماله وأخيراً على درجة تذوقه للفن جمهور يسمع أغنية (يا شبشب الهنا .. يا ريت كنت أنا) (وهى إحدى أغانى بعض الأفلام المصرية) فيطرب لها ويعجب به فيحفظها قبل أن يغادر دار السينما ويترنم بها فى روحاته وغدواته بين أصدقائه وأهله .

فهل هذا غناء ؟ وهل هذا فن ! إنه والله بعيد عن روح الذوق واللياقة –سواء فى معناه أو فى ألفاظه– أينزل الغزل إلىالدرجة التىيتمنى فيها الناس أن يكونوا (شباشب) حتى ينالوا رضاء محبيهم إن هذه الأغنية وأمثالها سموم ويجب علىالحكومة أن تحول بين الجماهير وبين تعاطىهذه السموم.

هذه هى الكلمة التى جاءتنا من الأديب (على حسن خليل) وإننا لنلمس بين سطورها - وكاتبها شاب - روح الاشمئزاز من هذه الأغانى التى لا ندرى بأى شىء نسميها وقد اجتمعت آراء الشبان وآراء الصفوة من رجالات مصر على وجوب التخلص من الأغانى المبتذلة التى لا تتفق مع مكانة مصر الأدبية فى العالم العربى ولا مع نهضتها السياسية والاجتماعية إن الذى يبينه الوعاظ وائمة المساجد والمحاضرون وغيرهم من دعاة الفضيلة والثقافة والأخذ بالسمو العاطفى ومكارم الأخلاق تهدمه هذه الأغانى هدماً تاماً وتأتى عليه من أساسه .

إن الحب هو أسمى عاطفة إنسانية مسختة هذه الأغانى فبدلاً من أن تردده الجماهير على أنه شرف وإخلاص ووفاء رددته الجماهير على أنه رذيلة وانتهاز للفرص وغدر وخيانة ولم تفهمه على وجهه الحقيقى بل فهمته على أنه ميوعة ورقاعة وصفاقة وتخنث وانصراف عن الجد من الأمور .

أكاد أظن أن هنالك يداً خفية لا تريد بهذه الأمة الخير فهى تدس فى الألحان هذه الأغانى كمن يدس السم فى اللبن وكلما تجرع الشباب جرعة من هذه الأغانى المسمومة مات موتاً لا حياة له بعده إلا إذا أراد الله أن يبعثه فصحاً المهيمنون على الأغانى من نومتهم وقدموا لهذه الأمة الغناء الصالح بدلاً من هذه السموم التى جعلت المحبين يتمنون أن يكونوا (شباشب) فى أقدام من يحبون!! أرأيت كيف انحط الحب فى مصر بسبب هذه الأغانى ؟! ثم أرأيت كيف انحط المحبون؟! ليس هذا هو الحب وليس هؤلاء بالمحبين ولكنها الميوعة والانحلال الخلقى الذى ينذر بأسوأ العواقب فإلى متى نغضى عن تدارك الأمور ؟!

لقد قرأنا أن النيابة اتجهت إلى اعتبار معاكسة الشبان للفتيات جنحة لا مخالفة وذلك لإيقاف تيار العبث بالأخلاق والآداب العامة .... وأنا أرى أنه يجب أن نقضى على ينابيع هذا التيار من أغواره العميقة لا من مصابه التى يصب فيها .... ومن شر هذه الينابيع تلك الأغانى التى ضج منها الشيب والشبان(١) .

يبين المقال السابق أن الهدف من الأغانى تربية الذوق وتهذيب النفوس وتغذية الروح والسمو بها إلى أرفع درجات الكمال كما يبين أن هذا الدور الإيجابى أمانة الرقابة الإذاعية فى السلم والحرب لأن الأغانى فى كل الأحوال تترجم آمال الشعب وأمانيه وتعكس درجة تطوره الثقافى وتجاوبه مع التقدم الحضارى ويضم محمد الأسمر صوته لصوت الأديب (على حسن خليل) فيرى ضرورة الرقى بكلمات الأغانى والسمو بالنغمة الموسيقية والارتفاع بالأداء والتخلص من الأغانى المبتذلة حتى تحافظ على منزلة مصر الأدبية والحضارية بين العالم وقد وفق الأسمر فى صرخته الآتية :

(إن الذى يبينه الوعاظ وأئمة المساجد والمحاضرون وغيرهم من دعاة الفضيلة والثقافة والأخذ بالسمو العاطفى ومكارم الأخلاق تهدمه هذه الأغانى هدماً تاماً وتأتى عليه من أساسه) .

والتحذير السابق واقع فى مجتمعنا الآن حيث يعد الأزهر الشريف حملة التوعية الدينية والفكرية ويعمل على نشر المثل بين النشء فى المعاهد الأزهرية ولكن ما يقوم به الإعلام الأزهرى الإسلامى تعصف به تيارات الأغانى الماجنة التى يسمعها النشء تنطلق من كل مكان حتى أصبحت

---

(١) مع المجتمع ١٢٠ : ١٢١ .

طبيعية فى حياتهم يرددونها بفخر مما يشير إلى أن الأمة المصرية الإسلامية مستهدفة وقد أجاد المنشىء فى مقولته : (أكاد أظن أن هنالك يداً خفية لا تريد بهذه الأمة الخير فهى تدس فى الألحان هذه الأغانى كمن يدس السم فى اللبن وكلما تجرع الشباب جرعة من هذه الأغانى المسمومة مات موتاً لا حياة له بعده) . والكلمات نداء تحذيرى يحث على اليقظة لحماية شباب مصر من التيارات المعادية لأن شبابنا يتسم بطبيعته بالجدية والشهامة والعطاء فهم صناع المجد مما يثير ضدهم أحقاد الأعداء الذين ينظرون لشباب مصر على أنهم الدرع الواقى للأمة الإسلامية ولهذا صورهم المنشىء باللبن ليبين فطرتهم الطيبة التى تتزين بمكارم الأخلاق وصور حسد الأعداء بالسموم التى تسرى فى هذا اللبن النقى وما هذه السموم إلا الأغانى التى يشجع عليها أعداء مصر .

وقول كاتبنا (مات موتًا لا حياة له بعده) يوحى بأثر هذه الأغانى على اقتلاع الأخلاقيات من جذورها فإنما الموت موت القيم .

ويتعجب كاتبنا من انتشار معاكسة الشبان للفتيات وإهمال الدولة فى ذلك الوقت لهذا الفساد ويوحى الأسمر أن هذه الظاهرة الفاسدة ترجع إلى أغانى الخلاعة والمجانة وهذا ما يريده عدو الإسلام .

والمقال يتمتع بالصدق والموضوعية والحيوية وكأنه موضوع الساعة .

ويسير ركب القافلة فيطالعنا الكاتب بمقال :

(أغانى الشرق ونزهة بغداد !!) قال فيه :

(طالما شكا الشاكون وكتب الكاتبون ونصح الناصحون بمناسبة الأغانى الشرقية الخليعة المتخاذلة الباكية تأليفًا وتلحينًا وأداء . ومما يبشر

بالخير أن كثيرًا من الذين نظموا . هذه الأغانى ينادون اليوم مع المنادين بمحاربة الأغانى الذليلة حتى ولو كانت هذه الأغانى من نظمهم فيما مضى .. وليت أصحاب الألحان الماضية المخنثة تكون عندهم الشجاعة الأدبية التى وجدناها عند بعض المؤلفين فيعترفوا بأن هذه الألحان المخنثة لا تليق بكرامة الشرق ولا بكرامة الفن فيه ولا بكرامة نهضته الحديثة .

قال أبو جعفر دخلت يوماً على (المأمون) ببلدة (قارًا) وهو يريد الغزو والجهاد فأنشدت له شعرًا أمدحه فيه بقصيدة جاء فى أولها :

يا قصر ذى النخلات من (بارًا) إنى حننت إليك من (قارًا)

أبصرت أشجار على نهر فذكرت أنهارًا وأشجارًا

هذا هو الشعر الذى بدأ به الشاعر قصيدته يمدح بها خليفة على وشك الغزو فيذكر قرى الشرب واللهو ؟

أتدرى ماذا كان من (المأمون) حينما سمع هذا الكلام لقد غضب المأمون غضبًا شديدًا وقال للشاعر أنا فى وجه عدو أحض الناس على الغزو وأنت تذكرهم نزهة بغداد .

وكلنا نعلم أن جميع الشعوب العربية فى هذه الأيام ليست فى نزهة بغداد(١) .

يوضح المقال السابق أن للشرق كرامة وعزة وأن للفن كرامة وشرفًا وأن للنهضة الإسلامية جلالا ولهذا يجب أن يتفق التأليف والتلحين والأداء مع شرف الشرق وكرامة الفن وجلال الإسلام ويضرب كاتبنا مثلا يبين فيه

---

(١) مع المجتمع ص ١٢٢

مسلك الخليفة عندما أنشد له الشاعر شعرًا لا يناسب قدسية موقف الجهاد حيث قال (أنا فيوجه عدو أحض الناس علىالغزو وأنت تذكرهم نزهة بغداد) ومقولة الخليفة تدل على ضرورة الصحوة وتحديد خطوات الأمة نحو الصلاح.

وكاتبنا المصرى الغيور يحذر من الغفلة والانغماس فى اللهو ونحن فى مراحل البناء الإنسانى والاجتماعى والثقافى والوجدانى ومن الجدير بالذكر أن سبب غروب شمس حضارة الدولة العباسية يرجع إلى التفكك والإنقسام والفتن والانغماس فى اللهو ولهذا يجب على أمة الإسلام النهوض على دعائم الشموخ والقوة والعزة والكرامة والشرف ولعل مقولة الكاتب (وكلنا نعلم أن جميع الشعوب العربية فى هذه الأيام ليست فى نزهة بغداد) تذكرة بالجهاد وبما يجب على الشعوب العربية والإسلامية الالتزام به فى مراحل البناء الحضارى ونحن أمة الإسلام فى بناء مستمر متجدد حتى لا يتمكن منا تتار اليوم فنكون فريسة سهلة الالتهام يقضى عليها فتصبح فى طى النسيان .

ثم يبين كاتبنا دور الدعاية والإعلام فى البناء الحضارى فى مقال بعنوان (سمعة مصر فى الخارج الأفلام وأغانى الأفلام) بين فيه أهمية دور الدعاية قائلاً :

(جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ - ٦ - ١٩٥٥م فى باب ما قل ودل الذى يحرره الأستاذ أحمد الصاوى ما يأتى :

مظهران من مظاهر الدعاية لبلادنا .. أحدهما : كان حسنا كأقصى ما يكون الحسن . وأما الثانى : فكان قبيحًا كأبشع ما يكون القبح !

هكذا يحدثنا عنهما الأستاذ حسن رشاد مدير إدارة المكتبات بوزارة التربية والتعليم وهو منتدب الأن للإشراف على إنشاء المكتبات المصرية العامة بليبيا .

لقد شهد هذين المظهرين المختلفين في ليبيا فأما المظهر الحسن فقد كان في النادى المصرى بمدينة بنغازى حيث عقد نفر من شبابنا المشتغلين بالتدريس في برقة ندوة أدبية ممتازة أمام جمع غفير من الأهلين جاءوا للاستماع من كل صوب – ثم خرجوا وقد تملكهم العجب والإعجاب من فصاحة المحاضرة وأدب المستقبلين ...

وأما المظهر القبيح : فقد كان في دار من دور السينما في طرابلس حيث عرض على جمهور كبير فيلم مصرى شائن استطاع مخرجه وممثلوه في ساعتين اثنين أن يلحقوا بسمعة مصر من الضرر ما لا تستطيعه اشنع دعاية يقوم بها الإعداء في سنين .

كان الفيلم – رغم الدعاية العريضة التى سبقته – فيلمًا تافها سخيفًا مسرفًا في الإسفاف والبذاءة كل شىء فيه أعد لإثارة الغرائز أما موضوعه فصوره طبق الأصل من تلك الموضوعات السقيمة التى تقدم عادة لرواد الكباريهات والتى تدور حولها مع الأسف معظم قصصنا السنيمائية .

لقد دخل الجمهور الليبى إلى قاعة السنيما وهو يظن أنه سيشهد قصة إنسانية ممتازة على غرار القصص الإيطالية التى تعرض عليهم في طرابلس في كل مكان ثم خرج بعد مشاهدة الفيلم وهو يضرب كفا بكف من غرابة ما (رأى) وغرابة ما (سمع) هذا ما جاء في جريدة الأهرام ونحن نلفت نظر المسئولين إلى كلمتين جاءتا في هذا المقال وهما (غرابة ما رأى) في الأفلام السنيمائية المصرية و (غرابة ما سمع) من أغانى هذه الأفلام .. أفلام مصر بلد الجامع الأزهر وبلد الجامعة المصرية وبلد كبار الكتاب والشعراء!) .
يترجم المقال السابق حقًا من حقوق مصر الغالية يكمن في سبل الإعلام وأجهزته ويبين أن تمكن المصرى وتميزه في كل مجال يشرف مصر بين

دول العالم ويعز قدرها وقد تجلى ذلك فــى النـدوة الأدبيـة التى عقدهـا بعـض شبابنا فى ليبيا وكاتبنا يشير إلى هذه الندوة بتقدير وإعجاب لما برز فيهـا مـن رفعة وشرف لمصر فـى ليبيـا مـن بعـض شـبابنا المشـتغلين بـالتدريس ولعلـه ينادى بضرورة اختيار مثل هؤلاء الشرفاء لتمثيل مصر فـى بـلاد العـالم فهـم النـافذة التى يطـل علينـا العـالم منهـا ومصرنـا الأن فــى دور البنـاء الشـامل وسمعتها بين العالم من أعظم دعائم نهضتها التى يجب أن تستمد أصولها مـن القيم الإسلامية وبتأمل مقولة محمد الأسمر الآتية يتبين ضـرورة تزيـن العلـم بالخلق :

(ثـم خرجـوا وقـد تملكهـم العجـب والإعجـاب مـن فصاحـة المحـاضرة وأدب المستقبلين) والصورة تعكس عمـق ثقافـة المحـاضر المصـرى وفيـض أدب المستقبل لضيوف الندوة المصرية .

مما جعل مصر الحبيبة الوسام الذى يتوج جبيـن الدنيـا فقد تزيـن أبنـاء النيل بالعلم والأخلاق .

ويبين الكاتب أن ما سبق من عوامل الدعايـة الإعلاميـة الطيبـة لمصـر الحبيبة .

ويحذر كاتبنا من أى مظهـر قبيـح يعـرض كرامـة مصـر للضـرر مثـل عرض الأفلام الإباحية ففيها السموم القاتلة لسمعة مصر ويصرح كاتبنـا بهـذا قائلاً :

(أما المظهر القبيح : فقد كـان فـى دار مـن دور السـنيما فـى طرابلـس حيث عرض على جمهور كبير فيلم مصرى شائن اسـتطاع مخرجـه وممثلـوه فى ساعتين أن يلحقوا بسمعة مصر من الضـرر مـا لا تسـتطيعه أشـنع دعايـة

يقوم بها الأعداء فى سنين) ومحمد الأسمر فى كلماته السابقة يحذر من أمثال هذه المظاهر التى تحطم مصر وتعصف ببذور نهضتها وتعلن غروب مجدها وهذا أمنية عدوها ومقولة كاتبنا تدل على أن شموخ الأمة وشروقها يرتكز على الفضيلة والعلم .

والواقع أن الدعاية الإعلامية ترتبط بجميع ما يتصل بالأمة من سلوكيات وانطباع فكرى وعادات وتقاليد ولهذه يجب علينا حماية بلادنا بالحرص على تحصيل العلوم مع التمسك بقيم الشريعة الإسلامية .

وقد أعجبنى نداء الكاتب :

(ونحن نلفت نظر المسئولين إلى كلمتين جاءتا فى هذا المقال وهما (غرابة ما رأى) فى الأفلام السينمائية المصرية و (غرابة ما سمع) من أغانى هذه الأفلام .. أفلام مصر بلد الجامع الأزهر وبلد الجامعة المصرية وبلد كبار الكتاب والشعراء) .

ونداء الأسمر يستحق الاهتمام حرصاً على سمعة مصر بين العالم بلد الأزهر الشريف ومهد الحضارات والعلوم .

وبعد : فإذا كان هذا نداء الأسمر من أربعين عامًا فأننى الأن أضم صوت الحاضر لصوت الماضى القريب معلنة أن للأزهر دوراً إعلاميًا ومن ملامحه الوقوف أمام تيار الفساد الذى يبرز فى أفلام الإسفاف والبذاءة التى تعتمد على إثارة الغرائز مما يصرف شباب الأمة عن البناء ويهدد كيان مصر ويمس كرامة الإسلام وخاصة أن أمر هذه الأفلام قد استحفل وأندلعت ألسنة نيرانه مما يهدد شرف مصر ويهين كرامة الفن ويمس جلال الإسلام فى بلادنا .

ويدرك المتذوق حرص الكاتب على كيان الإسلام وشرف مصرنا الغالية مما جعله يسطر مقاله (سقوط القاهرة) وكأنه يصرخ فى وجه كل مسئول الصحوة ، الصحوة وقد ورد فى هذا المقال مما يلى :

(من المناسب هنا أن نقتبس شيئًا من كتاب (**سقوط القاهرة**) للأستاذ (عبد المنعم شميس) وقد تناول فى هذا الكتاب بالتعليق والنقد شئونا كثيرة من شئون المجتمع المصرى كالأغانى والموسيقى والإذاعة والسينما والمسرح والصور العارية والرقص الخليع و (الكباديهات) .

قال الأستاذ فى كلمة عما أسماه (الغناء الرخيص) ما يأتى :

" سألت أحد أصدقائى مرة عن رأية فى أغنية مشهورة تذيعها محطة القاهرة دائمًا فقال فى هدوء هذه الأغنية تعجبنى وأنا سكران لأنها تثير فى دمى كوامن الشهوات ولكننى إذا سمعتها صاحيًا ثرت وخيل إلى أننى سوف أحطم المذياع وهكذا يقدر للشعب أن يسمع أغنيات تعجب السكارى والمخدرين وفاقدى الحس والشعور) .

وقال فى موضوع أخر من الكتاب ما يأتى :

(وإذا ما نظرنا إلى السينما و أغنياتها وجدنا الطامة الكبرى والداهية الدهياء إن الأفلام السينمائية فى جملتها تهدف إلى شىء واحد هو إبراز الأنوثة العارمة الطاغية وإظهار المفاتن الجسدية عند النساء بكافة الطرق وغناء هذه الأفلام ليس إلا تهافتا مانعاً وتخاذ لا منسجمًا مع رقص الأفلام ومع الإيماءات واللفتات التى تنبض كلها بالإغراء وهذا الغناء الذى يخرج مع هذه الأفلام تتلقفه الإذاعة سريعًا لتملأ به جو البلاد ميوعة وخنوثة ، وتدهورًا وانحلالاً " .

وهاتان قطرتان من بحر كتاب (سقوط القاهرة) كتبه الأستاذ عبد المنعم شميس كتابه المحب لوطنه المشفق عليه والكتاب المذكور جدير بالإطلاع عليه وتدبر ما فيه وهو – وإن قلّت صفحاته – فيه خير كثير(١) .

يعلن الأسمر فى الكلمات القليلة السابقة اقتناعه بما ورد فى كتاب سقوط القاهرة تأليف الأستاذ (عبد المنعم شميس) ويبين أن صيحة المؤلف نابعة من إيمانه العميق بدور مصر الإيجابى على المستوى العربى والعالمى وأن خوفه من انتشار الأغانى الماجنة والأفلام المسفة إنما ينطلق من فيض الغيرة الوطنية على مصرنا التى يهددها الإسفاف والبذاءة وما يتعرض له سمع شبابنا من دعاة الفن .

ونحن أبناء الأزهر الشريف نضم أصواتنا لهما فى ضرورة تجنب كل ما يثير الغرائز عن طريق الإذاعة أو الشاشة وخاصة أن اليوم تيسر دخول الشاشة الصغيرة لكل بيت فى مصر حتى يشب النشء قادراً على البناء .

ويعرض الأسمر بعد سقوط القاهرة لقضية (الأغانى المسجلة) وهو عنوان مقالة الذى تناول فيه عناصر جودة الغنية الإذاعية فقال :

(أغانى الأمة عنوانها ما فى ذلك شك وللأغنية ثلاثة عناصر – كما ذكرنا من قبل – التأليف والتلحين وصوت المغنى ولكل عنصر من هذه العناصر أهمية فى بناء الأغنية ودلالته الخاصة على نهضة من نهضات الأمة فالأغنية الكاملة هى التى تتبنى على الجيد من هذه العناصر والأغنية التى تتاح لها الجودة فى كل العناصر المذكورة هى التى تكون عنوانًا صالحًا للأمة وبرهانًا على رقى أدبها وموسيقاها وأنها لم تخل من نغمة الصوت

---

(١) مع المجتمع ص ١٢٥

الحسن وإذا كان هذا شأن الأغنية وأنها عنوان الأمة فمن العقل ومن الواجب الوطنى أن لا نسجل من الأغانى إلا الأغنية التى تتم لها جودة عناصرها جميعًا من التأليف والتلحين والصوت الحسن وإذا ظفرنا بهذه الأغنية وأردنا تسجيلها وجب علينا أن يكون تسجيلها فى الجو اللائق بها وهو جو أدب السماع فنحن إذا سجلناها فى غير هذا الجو جنيناعليها وأسأنا إلى أنفسنا فى نظر الأمم المتحضرة وفى نظر الأجيال المقبلة .

لهذا نحن نلفت النظر إلى أن هذه الأغانى التى تسجلها الإذاعة اللاسلكية فى الحفلات العامة التى يدخلها كل من يستطيع أن يملك القروش التى تمكنه من الدخول فيصيح صيحًا منكرًا قد يكون مبعثه الملق أو أنه متعاط ما يخرجه عن الحكم الصحيح على ما يسمع أو ما يخرجه عن أدب السماع نقول إن هذه الحفلات بما تحويه من أصوات الإعجاب التى هى فى الحقيقة أدنى إلى التهريج ، والتى هى فى الحقيقة (أصوات غير مسؤولة) ليس من العدل ولا من اللائق أن ننقلها مسجلة إلى آذان الذين لا يريدون إلا أن يستمعوا إلى الأغنية وحدها فليس هذا الصياح ولا هذه الأصوات المنكرة شيئًا يتصل بالأغنية من قريب أو بعيد بل كل ذلك يملأ جوها بالغيوم ويذهب بصفائها وبهجتها .

ولنضرب لذلك مثلاً ببلبل يصدح فى روضة من الرياض أتحب أن تسمع إلى تغريده وحده أم تحب أن تستمع إليه وقد التف به مئات الغربان فكلما غرد تغريدة صاحت الغربان (غاق ، غاق) !! أرحمونا يرحمكم الله[1] يدرك المتذوق لمقال (الأغانى المسجلة) ما يتمتع به محمد الأسمر من رقى يفيض باحساس الجمال فقد تناول فى مقاله عناصر نجاح الأغنية

---

(١) مع المجتمع ص ١٢٦ : ١٢٧

الإذاعية فذكر أنها تتكون من التأليف والتلحين وصوت المغنى وبين أن للمعانى دورًا عظيمًا لأنها ترتبط بنهضة الأمة وتدل على آيات حضارتها وملامح رقيها فهناك الأغنية التى تناسب المجال التربوى أو التقدم التعليمى أو النهضة الصناعية والزراعية والإعلامية وهناك ما يناسب الصحوة الدينية والوطنية ... إلخ وبهذا فالغناء يترجم مجالات النهضة الحضارية ويساعد على التوعية وإثارة الحمية والحماسة وترقية الحس والعواطف والسمو بالذوق وهذا ما يحاول رواد الفن الغنائى الأن الاهتمام به حيث نجد فى كل مناسبة ما يتفق معها من مضمون ولحن إلى جانب الاهتمام باختيار المغنى الذى يناسب طبيعة الأغنية ويشير محمد الأسمر لظاهرة تتصل بأدب السماع فينكر الضبحات التى تصدر من بعض المعجبين موضحًا أن هذه الأصوات والصرخات لا تتم إلا عن ذوق رفيع أو إحساس مرهف إنما تدل على الهمجية والتخلف وتعلن إننا أمة تغفل أبسط قواعد الذوق .

وبهذا بين المنشىء دور الفن وكرامته ودور المتلقى للأغنية وما يجب عليه من أصول السماع حتى لا ينطبع فى أذهان الأمم ما يمس كرامة مصر التى تمثل كرامة الإسلام والشرق .

والمقال اجتماعى موضوعى جيد ينادى بالرقى فى السلوكيات ويعلن ريادة مصر للشرق فى كل مجال وقد تمتع ببساطة العرض ووضوح الأفكار وتناسق المعانى ووضوح الصور .

ويتحرك ركب من وحى الأغانى فيسطر كاتبنا المقال الآتى :

(تحركوا ياجبال) عالج فيه أدب السماع وآداب حضور الحفلات قائلاً:

(دعيت فى يوم من الأيام أنا وصديق لى إلى حفل خيرى أقامه (الاتحاد النسائى بمصر) فذهبت مع الصديق إلى هذا الحفل وغنت فيه مغنية رخيمة الصوت وكانت (صالة) دار الاتحاد مملوءة بكرام المدعوين والمدعوات وأخذت المغنية تغنى فى هذا الوسط المختار ولكن شاء الله أن يجىء مكانى ومكان صديقى أمام رجل عملاق لا أدرى كيف تسرب إلى هذا الحفل الكريم .

كان هذا الرجل يبدى إعجابه بصوت الأنسة المغنية لمناسبة ولغير مناسبة وكان ينطلق صوت الإعجاب بل صريح الإعجاب من حنجرته كما تنطلق قذيفة المدفع من المدفع حتى ظننت أننى في ميدان من الميادين لا فى صالة من الصالات!! وحمدت الله على طول قامة هذا الرجل فقد كانت قذائف الإعجاب التى تنطلق من حنجرته تمر من فوقى ولو كان قصيرًا لحطمت هذه القذائف رأسى ولا أطيل على القارئ ففى هذه الحفلة سمعنا من المغنية نغمة من النغمات أبديت أنا وصديقى إعجابنا بها بقولنا – الله – فإذا بصاحبنا الذى وراءنا يصيح ويقول بصوت عال (أيوه كده تحركوا يا جبال) وتحركت بعد ذلك الجبال فغادرنا هذا الحفل الكريم وذلك الصوت الرخيم ليصول ويجول فيه بقذائف إعجابه ذلك المدفع العظيم !!([1]) ، يبين المقال السابق الأخلاقيات التى يجب الالتزام بها فى الحفلات وأبرز أن أهمها يكمن فى حسن التعبير عن الإعجاب ويتجلى ذلك من خلال ابتسامة رضا أو إشارة تحمل آيات التقدير وهدوء يترجم عمق الانسجام وهذه المظاهر الهامسة الحبة تعكس درجة رقى الحضور أما ما يحدث فى حفلاتنا من صريخ وضجيج بقصد إبراز شدة الإعجاب ما هو إلى صورة صادقة لهمجية الحضور ودلالة

---

(١) مع المجتمع ص ١٢٨

على تخلف الذوق وهذا ما ظهر فى الحفل الذى حضره الأسمر مع صديقه فقد كان طلقات مع الصياح وقذائف من الصراخ مما يجعل الحفل أرضا تعكس ملامح المعركة الصوتية الصاخبة ويشير كاتبنا بسخرية لاذعة فيقول (ففى هذه الحفلة سمعنا من المغنية نغمة من النغمات أبديت أنا وصديقى إعجابنا بها بقولنا – الله – فإذا بصاحبنا الذى وراءنا يصيح ويقول بصوت عال [أيوه كده] تركوا يا جبال) .

ويعلن المنشيء أن المعهود فى إبراز ملامح الإعجاب الصياح والصراخ ولهذا عندما نطق الأسمر إعجابًا بصوت المغنية بقوله – الله – نظر له أحد الذين يصرخون ويصيحون قائلاً (تحركوا يا جبال) لأن مقياس التجاوب عنده يتجلى فى الأصوات العالية والحركات العشوائية وما ذلك إلا دلالة على تخلف الذوق وتدهور مقياس التقدير للجمال والمقال اجتماعى يهدف إلى تهذيب الذوق وترقية الإحساس صاغة الكاتب بأسلوب جيد موضوعى يتسم بالوضوح .

ويستمر الأسمر فى دعوته الهادفة التى ظهرت ملامحها فى مقالة (كارثة الراديو) قال فيه :

(من يصدق أن هذا الاختراع اللطيف أصبح فى مصر)

(خصوصًا الأحياء المتوسطة والأحياء الشعبية)

كارثة من الكوارث وانقلب إلى إداة إزعاج وتصديع فاشتراه من لا يعرف أدب الاستماع ومن لا يعرف حقوق الجار يفتحه كل هؤلاء ليلاً ونهارًا يفتحونه وهم يتحوثون أو يتجادلون وأحيانًا كثيرة وهم نائمون !! نعم وهم نائمون .. فإنى أعرف بعض الناس يجلسون بجانب الراديو ويفتحونه على

أخره ثم ينامون نومًا عميقًا حتى إذا ما انتهى ميعاد الإذاعة وصمت الراديو استيقظوا من نومهعم العميق .

إن هؤلاء السادة المواطنين الذين هذا شأنهم لا يبالون إنهم بإزعاجهم يرغمون جيرانهم على السهر وعلى سماع ما لا يودون سماعه وهم يحطمون أعصاب ذوى الإحساس المرهف ويقتحمون عليهم دورهم بهذا الصوت المزعج فيعطلونهم عن أعمالهم العقلية ، ويحرمونهم من الهدوء الذى ينشدونه فى ديارهم .

إن الأديان كلها والقوانين كلها تحمى الناس من المزعجات والمقلقات وتحميهم من كل يضرهم ، فما بال هذه الآلة الجهنمية التى تسمى الراديو تزعج الناس وتضرهم الضرر البالغ ويكتوى بنارها الأبرياء ورجال الأمن عنها ساكتون ؟

يا صاحب الراديو إذا فتحت الراديو فيكفيك من صوته ما تسمعه أنت وحدك أما أن تجعله أداه إزعاج وتعذيب لجيرانك فإنك تكون فى هذه الحالة آثما ولا أرضى لك أن تكون من الآثمين .

أليس من واجب القانون أن يحمينا من رجل مشاغب يدق علينا أبوابنا دقا عنيفًا فيسلبنا راحتنا ونومنا وصحتنا ويحول بين المريض وما هو فى حاجة إليه من الهدوء وبين التلميذ ومذاكرته وبين الرجل وعمله العقلى ؟! إذا كان هذا هو واجب القانون نحو ذلك الرجل المشاغب فكيف يكون واجبه نحو راديو المقهى وراديو الجار وكلاهما يفعل بالناس أضعاف ما يفعله ذلك الرجل المشاغب ؟! وتحرك أيها القانون !! تحركوا أيها المنفذون للقانون !

ولسنا وحدنا الذى نشكو من سوء استعمال الراديو ففى سنة ١٩٣٢م سمعت المغفور له الشيخ (مصطفى عبد الرازق) يقول : (أريد أن استريح فى مكان ليس فيه راديو ولا من يتكلم فى السياسة وهذه جريدة (أخبار اليوم) بالعدد (٥٤٦) تقول فى تعريف الإذاعة إنها (هم بالليل وذل بالنهار !) .

وهذا صديقنا الزجال الكبير محمود بيرم يشكو فيقول فى زجل له نشرته جريدة الجمهورية :

مين كان يظن الكمنجة والقانون والعود
يبيتوا الشرق كله فى ليالى سود
كانت آلات الطرب يعزف عليها داوود
صبحت آلات ينضرب بها قفا الموعود
لو كان على راديو بيتنا كنا برشمناه
بالشمع لحمر وعشنا فى أمان الله
لكن دا عند الحانوتى والجاراج تلقاه
وف كل مسمط ومقلى ومدبغة موجود
ابن الجيران يحتضر ما بين حياة وممات
والقهوجى تحتهم راديوه عشر لمبات
يذيع زفاف العروسة والزفاف بصاجات
كأنها لطم ندابة على المفقود
مش كل ساعة الغنا يستظرفه الإنسان
دا لما يبقى البعيد تعبان أو قرفان
عبده الحامولى إذا غنى يكون سرطان

ويبقى زى الغــراب الشــيخ على محمــود

....

....

يناقش المقال السابق بموضوعية أصول آداب استخدام المذياع أهمها المحافظة على مشاعر الجيران حتى تنتشر عطور الألفة فيحقق كل فرد من أفراد الجماعة غايته ويحصل مراده برضاه .

ويبين محمد الأسمر أن المحافظة على مشاعر الناس من الأصول الأساسية التى حث عليها الدين حيث حذر من أحداث أى ضرر يمس الغير ويعلن كاتبنا أن المذياع وسيلة طيبة للمنفعة والترفية إذا استخدمت الاستخدام الواعى الجيد أما استخدامها بالصورة التى تثير القلق والاضطراب فما هى إلا من مظاهر الهمجية التى تقضى على بذور الاستقرار الاجتماعى والوجدانى والثقافى ولهذا يناشد المنشىء من يرغب فى الاستماع بلزوم أصول الذوق الإنسانى المتحضر ويبين أن للشرطة دورًا فى تحقيق الهدوء النسبى للمواطنين ينبثق من التشريع الإسلامى الحنيف ومن القانون المدنى ويسخر المنشىء من صوت المذياع فيتغنى بما قاله الزجال الكبير محمود بيرم الذى تهكم فى كلماته بمن يجهل أبسط قواعد العلاقات الإنسانية الطيبة .

والمقال اجتماعى انطباعى استطاع المنشىء فيه أن يبين عبر الأفكار الحية أسس العلاقة بين أفراد المنزل الواحد وأفراد الحى كما وضح دور رجال الأمن فى الحفاظ على البناء الاجتماعى الصحيح ولهذا الهدف كتب محمد الأسمر مقاله (الراديو وجار السوء) بين فيه ضرورة رعاية الجار والحفاظ على مشاعره قائلاً :

(الأديان كلها تدعو إلى حسن معاشرة الجار وقد أفاض الدين الإسلامى فى ذلك قال الله تعالى ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ﴾ ففى هذه الآية الكريمة أوصى الله تعالى فيما أوصى به بالجار ذى القربة أى الذى بينك وبينه قرابة وبالجار الجنب أى الذى ليست بينك وبينه قرابة وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الجار ذى القربى الجار المسلم وإلى أن معنى الجار الجنب الجار النصرانى أو اليهودى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ! " وقال : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ") أى شره وأذاه وقال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره " .

هذا قليل من كثير مما جاء فى الإسلام عن حسن معاشرة الجار " وصاحب الراديو " الذى يعلى صوته جار سوء لأنه يسىء إلى جيرانهم ويؤذيهم فيحول بينهم وبين أن يناموا .. ويحول بين المريض وراحته ويحول بين التلميذ ومذاكرته – وهو يصدع روءس جيرانه ويشوش عليهم ويحول بين صاحب العمل العقلى وعمله .. إن صاحب الراديو الذى هذه حالة مع جيرانه مخالف لما أمر الله به ومخالف لما دعا إليه رسول الله .. ومن خالف الله ورسوله ساء حاله فى الدنيا والآخرة .. وهو إذا نجا من إهمال القانون له أو من إهمال المنفذين للقانون فإنه لا ينجو من عقاب الله .. وعقاب الله أليم شديد(١) .

---

(١) مع المجتمع ١٣٢

والمقال ينبض بنبض المقال السابق له (كارثة الراديو) في دعوته السامية بضرورة المحافظة على الجار ويمعن مقال (الراديو وجار السوء) في إبراز الضرر الذى ينزل بالجار من صوت المذياع المرتفع فيصرح بأن صاحب المذياع المزعج إذا نجا من عقاب رجال القانون فإنه لا ينجو من عقاب الله .

ويدرك المتلقى الكريم درجة سخط الكاتب على سوء استخدام المذياع من مقاله (**الراديو وحنفية الماء**) الذى قال فيه :

(أصحاب الذوق السليم لا يفتحون (الراديو) طول النهار وطول الليل بل يقرءون البرنامج في الصحف أو مجلة الإذاعة ويتخيرون بعض ما يذاع مما يتفق مع ثقافتهم وأمزجتهم فيفتحون (الراديو) في حين إذاعة ما يتخيرونه ثم يقفلونه بعد ذلك ليتفرغوا إلى أعمالهم الأخرى من قراءة أو غيرها.

إن (الراديو) مثل (حنفية) الماء و (حنفية) الماء لا يفتحها الفاتحون إلا عند الحاجة إليها أما أن تظل مفتوحة تصب الماء طول النهار وطول الليل فهذا هو عبث الأطفال .

وما نحب لمواطن أن يكون شأنه مع (الراديو) كشأن الأطفال العابثين بحنفية الماء أو العابثين بنور المنزل يتركون (الحنفية) مفتوحة ولو كانوا في غير حاجة إلى الماء ويتركون النور مفتوحًا ولو كانوا في غير حاجة إلى النور ولكنه العبث ولا شيء غير العبث.. وكم يجنى على الناس عبث العابثين ؟!(٢).

أعلن الكاتب في هذا المقال أن سماع المذياع يرتبط بالقدرة على الاختيار الصحيح الدقيق المرتبط بالفكر الناضج والذوق الرفيع أما الاسترسال

---

(٢) مع المجتمع ص ١٣٣

فى سماعه فدلالة على همجية الذوق وطفولة الفكر مما يجسد العبث وعدم تقدير الأمور .

والمقال همسة رقيقة ترمى إلى تهذيب الخلق وغرس الإحساس صاغه الكاتب من خلال أسلوب سهل العبارات واضح الأفكار .

لقد ناقش كاتبنا قضية الأغانى المسجلة وبين آداب السماع الذى يجب أن يتزين بها الحضور كما ناقش كارثة الراديو ، والراديو وجار السوء ، والراديو وحنفية الماء فبين الأصول التى يجب الالتزام بها حتى لا يقع الضرر على الجيران أما فى مقال (مراقب عموم برامج الإذاعة) فقد بين فيه ضرورة انتقاء البرامج الإذاعية قال فيه :

(قلت يومًا لصديقى الملحن الكبير الأستاذ (زكريا أحمد) ما رأيك فيمن يفتح (الراديو) طول النهار وطول الليل يسمع ما يفهم وما لا يفهم بل هو يظل فاتحًا له حتى ولو كان مشغولاً عنه بمناقشة من المناقشات ؟! فقال :

(هذا لازم يكون مراقب عموم برامج الإذاعة !!) ثم قال ألم تسمع بحكاية الشيخ عبد العزيز البشرى رحمة الله فقلت وما هى ؟! .

فقال كان ماراً بالطريق مع صديق له فاعترضهما شاب وقال للشيخ عبد عبد العزيز الساعة كام من فضلك فأخرج الشيخ عبد العزيز ساعته ونظر إليها ثم قال له (خمسة ونص) ولم يكتف الشاب بذلك بل سأل صديق الشيخ عبد العزيز عن الساعة أيضًا فأخرج صديق الشيخ عبد العزيز ساعته ونظر إليها ثم قال للشاب (خمسة ونص) فتركهما الشاب واعترض شخصًا آخر وقال له الساعة كام من فضلك فأخرج ساعته ونظر إليها ثم قال له (خمسة ونص) .

وبعد ذلك قال صديق الشيخ عبد العزيز للشيخ عبد العزيز(٣) إيه الشاب ده ؟!) فقال له الشيخ عبد العزيز " دا لازم مفتش عموم الساعات !! "

ثم قال الأستاذ زكريا إذا كان فى الجمهور من يتطوع ليكون (مفتش عموم الساعات) فلماذا لا يكون فى الجمهور من يتطوع ليكون " مراقب عموم برامج الإذاعة ؟! " ....ولله فى خلقه شئون(٤) .

ينادى محمد الأسمر فى مقالة الراقبة الإذاعية بضرورة القيام بدورها الذى يتبلور فى نضج الاختيار ووعى التصنيف إلى جانب حسن التوزيع الذى يتصل بطبيعة البرامج المقدمة التى ترتبط بالمراحل العمرية المختلفة للجمهور ويشير الموقف الذى عرضه الأسمر يقص فيه ما حدث للشيخ عبد العزيز البشرى وصديقه إلى رغبة كاتبنا فى التنسيق الواعى لما يقدم لجمهور الشعب المصرى بحيث تتزين الفقرات الإذاعية بالموضوعية النابعة من المجتمع المصرى إلى جانب الانفتاح المتزن على البرامج العالمية والمتلقى يجد أن دعوة الأسمر تحققت ملامحها الآن فى تنسيق الفقرات الإذاعية ويرجع ذلك إلى تعاون الأجهزة الإعلامية التى تعمل على ترقية الذوق المصرى لما فى هذا من صحوة دينية واجتماعية وسياسية وفكرية .

ويستطرد كاتبنا بعد مقال (مراقب عموم برامج الإذاعة) ليناقش فكرة (راديو الجيران) التى طرحها قبل ذلك فسطر مقالة (**راديو الجيران**) كرر فيه النداء بحسن استخدام المذياع قائلاً :

---

(٣) عبد العزيز سليم البشرى (١٨٨٦ - ١٩٤٣) أديب مصرى من الكتاب المترسلين مولده ووفاته بالقاهرة تعلم بالأزهر وولى القضاء الشرعى فى بعض الإقاليم المصرية المصرية له كتاب سماه فى (المرآه) و(المختار) والتربية الوطنية .
الأعلام - الزركلى جـ٤ ص١٨ - بيروت - دار الملايين .

(٤) مع المجتمع ص ١٣٥

(نعود ونكرر ما قلناه وهو أن الشكوى من إساءة استعمال الراديو ليست شكوى خاصة بنا ولكنها شكوى الكثير من الناس حتى مجلة " الإذاعة المصرية " نفسها شكت من ذلك فقد كتب صديقنا الأستاذ " عبد الرحمن سامى مقالاً فى مجلة الإذاعة المصرية بعددها (١٠١٧) ١١ سبتمبر ١٩٥٤م عنوانه " راديو الجيران " وفى هذا المقال يصف الأستاذ بعض ما تعانيه الأمة من إساءة استعمال الراديو وقد رأينا أن نسجل هذا المقال فى الكتاب .. قال الأستاذ :

فى أسفل كل بيت بالقاهرة من دكان إلى عشرة وأحيانا أكثر إن اختلفت فى تجارتها فهى تتفق فى " مهنة " عقدت شركة فيها وهى إطلاق صوت الراديو على المارة والسكان الآمنين أو الذين من حقهم أن يكونوا آمنين فى بيوتهم وفى مخادعهم .

تقرأ أوراقًا هى أساس عملك فلا تفهم ما بين يديك من راديو الجيران وتحاول أن تحدث من معك فيقا طعكما راديو الجيران ويجاهد أبناؤك ليستوعبوا دروسهم فيستقطون فى الامتحان بفضل راديو الجيران ويأمر الطبيب لمريضك بالراحة فيقض على راحته ونومه - وقد يقض عليه - راديو الجيران وترهف السمع لتفهم حديث التليفون فيصم أذنيك راديو الجيران وتقفل جهازك لتقطع إذاعة تمنعك شواغلك عن سماعها فيكرهك على سماعها إكراها راديو الجيران وغير راديو الجيران فالقهوجى المتنقل والحلوانى المتجول بعربة اليد يسألان الناس توصيله كهرباء (لله) بدعوى أكل العيش فيديران الراديو على عربة اليد - قبل إنارة البضاعة ومثلهما فى ذلك صاحب كشك بيع الصحف وبائع الكشرى وغيرهما وغيرهما .

وأخيرًا هل لا حظت بدعة الذكاء وتحفة الابتكار وآية حسن الذوق التى اختص بها الله بعضهم فى مصر ؟

هل لا حظت الدكان الذىيأبى عليك صاحبه إلا أن يغرقك فيما يذاع من مطلع الفجر حتى منتصف الليل فيخفى وسط لأفته محله (مكبر الصوت) كأن هذا المكبر وهو داخل المحل لم يكف لتحطيم أعصابك وإرهاقك فى عيشتك ؟

لقد حمدت الله عندما قرأت نبأ الاجتماع الذى عقده السيد محمد الديب محافظ الإسكندرية مع رؤساء فريق بوليس الثغر لمكافحة وباء استعمال أجهزة الراديو .

إننى لا أسكن الإسكندرية ولكن هذا الخبر يرد اعتبار إنسانيتى كمواطن مصرى فلقد كان يزعجنى أننا من هذه الناحية نعتبر - بصراحة - من الشعوب المتخلفة (ذوقياً وأدبيًا) إننى بلسان أكثر من مليونى أدمى يسكنون العاصمة المصرية أغبط أهل الإسكندرية وأشكر السيد محافظ الإسكندرية ثم أسأل محافظ القاهرة ألم يئن بعد الأوان لنلقى راحتنا على يديك ؟(٥) .

يتناول المقال السابق قضية إساءة استعمال المذياع فيبين أضرارها على المار والسكان الآمنين والمرضى والتلاميذ وأصحاب الأعمال العقلية الهامة وقد عالج المنشىء هذه الفكرة فى مقالاته السابقة (كارثة الراديو) و (الراديو وجار السوء) و (الراديو وحنفية الماء) ثم شعر برغبة ملحة فى التنديد بسوء استخدام المذياع فسطر مقالة الذى بين أيدينا (راديو الجيران) ليمعن فى تصوير درجة إساءة استخدام المذياع التى برزت بوضوح على يد الباعة جميعًا ويسخر كاتبنا قائلاً :

---

(٥) مع المجتمع ١٣٥ : ١٣٦

(فالقهوجى المتنقل والحلوانى المتجول بعربة اليد يسألان الناس توصيله كهرباء (لله) بدعوى أكل العيش فيديران الراديو -على عربة اليد- قبل إنارة البضاعة ومثلهما فى ذلك صاحب كشك بيع الصحف وبائع الكشرى وغيرهما .

وقد تجلى نفور كاتبنا من ضجيج صوت المذياع فى تهكمه اللاذع (فى أسفل كل بيت بالقاهرة من دكان إلى عشرة وأحيانا اكثر إن اختلفت فى تجارتها فهى تتفق فى (مهنة) عقدت شركة فيها وهى إطلاق صوت الراديو على المارة والسكان الآمنين أو الذين من حقهم أن يكونوا آمنين فى بيوتهم وفى مخادعهم) ويتعجب كاتبنا من تدهور الذوق الإنسانى قائلاً :

(هل لا حظت بدعة الذكاء وتحفة الابتكار وآية حسن الذوق التى اختص بها الله بعضهم فى مصر ...

فيخفى وسط لافتة محله (مكبر الصوت) كأن هذا المكبر وهو داخل المحل لم يكف لتحطيم أعصابك وإرهاقك فى عيشتك) .

ولما يسببه سوء استعمال المذياع من قلق واضطراب وفزع هب محافظ الإسكندرية للحد من كوارثة الاجتماعية والوجدانية بالتعاون مع شرطة المدينة مما جعل كاتبنا يثنى على هذه المحاولة النبيلة التى تترجم الاهتمام بكرامة الإنسان الذى كرمة الله وفضله على كثير ممن خلق .

ويختم الأسمر مقالة بأمنية تعبر عن رغبته فى خطوة إيجابية من محافظ القاهرة لضبط قواعد استخدام المذياع حتى تشرق أنوار الرقى فى مصر وتصبح آية فى الذوق الإنسانى وراية فى السمو الأخلاقى .

والمقال اجتماعي ساخر استطاع محمد الأسمر من خلاله طرح قضية هامة ترمى إلى المحافظة على كيان أبناء الشعب المصرى وقد تميزت فقرات المقال بحسن الربط وجمال العرض وتناسق الأفكار ووضوحها .

لقد ناقش المنشىء فى المقال السابق واجب المحافظ وواجب أجهزة الأمن فى تحقيق الأمن والأمان لأبناء الشعب المصرى أما المقال التالى فقد تناول فيه واجب الإذاعة وأئمة المساجد ووزارة الداخلية فى الدعوة إلى حسن استخدام المذياع من خلال كلمات مقاله التى ترمى إلى التوعية (واجب الإذاعة وواجب أئمة المساجد وواجب وزارة الداخلية) حيث ذكر ما يلى :

(إن من أوجب الواجبات على الإذاعة أن تذيع كل يوم مرات عديدة ما يتضمن أن رفع صوت الراديو يؤذى الجيران وأن رفع صوت الراديو يخالف ما تدعو إليه الأديان وأنه أيضًا يتنافى مع الذوق السليم وأنه أيضًا يخالف القانون وإن من أوجب الواجبات على أئمة المساجد أن يعطوا هذه المسألة الاجتماعية بعض عنايتهم فى خطبهم وفى دروسهم وهم يعلمون أن الله تعالى يقول فى كتابه الكريم : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها واتبعَ بين ذلك سبيلاً ﴾ ونحن نعلم كما يعلم إخواننا أئمة المساجد أن الكلام عن هذه الآية الكريمة كثير من كتب المفسرين ولكن لم يذهب أحد منهم إلى أن تكون الصلاة صياحا وزعيقًا وصخبًا وضجيجًا فإذا كان هذا هو الشأن مع الصلاة وهى قرآن كريم وتسبيح وتعظيم لله فكيف يكون الشأن مع أغانى العشق والهيام والبكاء من شعاليل نار الغرام وشكوى المحبين من الهجر والدلال وإلحاحهم فى طلب الاستمتاع بالوصال ؟!)(٦) .

---

(٦) مع المجتمع ص ١٣٧

يوضح المقال واجب الإذاعة ورجال الدين الإسلامي الحنيف ورجال وزارة الداخلية في الحفاظ على استقرار أبناء مصر وقد عرض الكاتب فكرته عرضًا جيدًا بين فيها أن رفع الصوت ينافي المثل الدينية ويخالف الذوق السليم ويتعارض مع القانون وقد ركز محمد الأسمر الأضواء على دور أئمة المساجد في الإرشاد الذي يستمد نوره من وحي القرآن الكريم والسنة الشريفة وقد استدل المنشيء على تجنب الجهر بالآية الكريمة ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ مبيناً أن الصلاة التي تعبر عن تقديس الإنسان لربه المستحق للعبادة تقتضي توسط النبرة الصوتية بين الجهر والخفت فكيف بما يذاع من أغاني الغرام والدلال والهجر ؟ ولعل كاتبنا يعلن أن من الواجب الإسلامي خفت صوت هذه الأغاني التي تثير الفتنة وتحرك رياح الغواية الشيطانية .

ويذكرني نداء محمد الأسمر بما يحدث من بعض أئمة المساجد الآن من استخدامهم لمكبرات الصوت وقد يوجد في المنطقة أكثر من مسجد يستخدم المكبر فيشوش بعضها علىبعض مما يقضي علىالهدف الأساسي من الخطبة ويجعل رواد المسجد فياضطراب لعدم قدرتهم على استقبال مضمون الخطبة بسبب تداخل أصوات المكبرات ولهذا يجب على كل مسجد تجنب المكبرات بتوظيف السبل السماعية الحديثة التي تحتفظ بالصوت داخل إطار المسجد فقط حتى يستقبل رواد المسجد الخطبة بقبول وجداني وفكري طيب .

والمقال دعوة واعية ترمي إلى تنمية الأخلاقيات الفاضلة حتى تصبح مصرنا بلد الحضارة والرقي بلد الرفعة الإسلامية ولغيرة الأسمر على الإسلام ومصرنا التي تعد راية لجلاله كتب مقالاً بعنوان (قانون استعمال الراديو ومواعيد الإذاعة) قال فيه (أمام هذه الفوضى العامة لاستعمال

(الراديو) يجب أن يكون استعمال الراديو واضح المواد لا ثغرات فيه ومن رأينا أن يكون فى مواده ما يأتى :

١ - لا يتجاوز صوت (الراديو) الغرفة التى يدار بها فى المنزل ولا الدكان أو المقهى اللذين يدار بهما .

٢ - ينذر صاحب الراديو فى أول مخالفة له .

٣ - يغرم فى المخالفة الثانية تغريمه رادعة .

٤ - يصادر (الراديو) وتسحب رخصته فى المخالفة الثالثة كما يجب أيضاً وضع قانون يريح الناس من استعمال مكبرات الصوت .

وإلى أن يصلح الله الأحوال نرى أن تكون مواعيد الإذاعة كما يأتى :

١ - من الساعة السابعة والنصف صباحاً إلى الساعة الثانية .

٢ - من الساعة الخامسة بعد الظهر إلى الساعة العاشرة والنصف والراحمون يرحمهم الرحمن(٧) .

والجديد فى هذا المقال تحديد الأسمر لمواعيد الإذاعة ويدرك المتلقى الكريم أن كاتبنا استمد تحديد مواعيده المقترحة من الأدب الإسلامى الرفيع فقد بين القرآن الكريم زمن الراحة وزمن اليقظة فى قول الحق جل علاه : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن...﴾(٨) .

---

(٧) مع المجتمع ص١٣٨ .

(٨) سورة النور : جزء من آية ٥٨

لقد استقى الأسمر من وحى العورات الثلاث زمن مواعيد الإذاعة بصورة تقريبية وهى مواعيد طيبة حتى ينصرف الإنسان لعمله بجدية ونشاط ويدرك الصغير والكبير أن النظام هو أساس الحياة وأن العمل منبع الكرامة والحضارة والمدنية الواعية كما يدرك الجميع أن المذياع وسيلة للمنفعة والترفيه فيجب استعماله بوعى مستمد من الخلق وبأسلوب يتفق مع تحقيق الخير لسامعه لقد تناول الأسمر قضية صوت المذياع المرتفع ومكبرات الصوت بإيجابية مما دفع كل مسئول فى موقعه إلى الاهتمام بوضع القواعد والقوانين التى تنظم الأساليب الاجتماعية الأخلاقية حرصاً على كيان أبناء مصر.

ولهذا سطر المنشىء مقاله (طلائع الإرشاد والحزم) ليبين درجة استجابة الأجهزة المعنية بالأمر مما يدل على صحوة الشعور الدينى الوطنى الاجتماعى الذى يرغب أبناء مصر فى بناء مصر الإسلامية قال فيه :

بعد أن انتهت المطبعة من طبع الكلمة السابقة علمت أن (الإذاعة المصرية) تذيع فى كل يوم إذاعات تتضمن أنه يجب على من يفتح الراديو أن لا يجعل صوته مرتفعاً وأن يراعى راحة الجيران وأن صوت الراديو يجب أن لا يتجاوز الغرفة التى بها الراديو .

كما علمت أن (محافظة القاهرة) أخذت تنشط نشاطاً ملحوظاً فى محاربة ضوضاء الراديو فقد مررت على دكان كان صاحبه يفتح الراديو على آخر قوته وكأن الساكنون بهذا الحى يقول عنه إنه لا يفتح الراديو ليسمعه هو ولكنه يفتحه ليسمعه سكان السماء السابعة !!

أقول مررت على هذا الدكان فلم أسمع صوت الراديو وهو يجلجل كالعادة فلفت ذلك نظرى فقلت لصاحبه ... (لا بأس على صحة الراديو إيه

اللى جرى ؟!) فقال والله يا أستاذ (خدونا مخالفة لهم حق الحكومة طولت بالها علينا قوى وإحنا ما كانش عندنا ذوق !!) .

إذا لقد بدأت تتحرك لأداء واجبها طلائع الإرشاد من الإذاعة وطلائع الحزم من محافظة القاهرة ونحن نرجو الإذاعة أن تواصل إرشادها كما نرجو محافظة القاهرة أن تواصل حزمها حتى يقضيا على هذه الفوضى التى لا تزال على أشدها فى مصر كلها ومن لا يصلحه الإرشاد أصلحته (المخالفات)... والله ولى التوفيق) والمقال برقية تهنئة رقيقة وتحية طيبة يقدمها الأسمر للأجهزة التى انطلقت من وحى شعورها بالمسئولية إلى ضبط كل ما يمس الصورة الراقية للإسلام ولحضارة مصر ويناشدها بالاستمرار الجاد فى هذا النشاط لما فى ذلك من دلالة على حيوية الأجهزة الإعلامية والاجتماعية والثقافية والسياسية المصرية .

وقد أعجبنى من الأسمر تصريحه بمقولة صاحب الراديو :

(خدونا مخالفة .... لهم حق الحكومة طولت بالها علينا قوى وإحنا ما كانش عندنا ذوق !!) فقد دلت هذه المقولة على قبول ابن الشعب المصرى لأمر المسئول واقتناعه بما ارتكبه من أخطاء .

والمقال اجتماعى عرض فيه الكاتب فكرته بوضوح وسلاسة وبعد : فقد ناقش الأسمر فى باب (من وحى الأغانى) الأصول الفنية والأخلاقية التى يجب أن تكون عليها الأغنية المصرية كما ناقش ضوضاء المذياع وسبل التغلب عليها وبين أن الالتزام بالذوق الفن والأدبى دلالة على رقى مصر الإسلامية .

ويتحرك ركب القافلة بعد ذلك إلى الباب الأخير وهو (من وحى الدعاية).

من وحى الدعابة

تناول المنشىء فى هذا الباب مقالات اجتماعية انطباعية تلقى الضوء على طبيعة الشعب المصرى الذى يميل إلى الدعابة التى ترسم البسمة على وجه المصرى الطيب الذى أنعم الله عليه بقلب يخفق بالأمل فيشرق وجهه بالبسمة التى تسعد من يداعبه مما ينم عن وداعة أبناء النيل ويضم هذا الباب المقالات الآتية :

– ساعة مع لص .	– الثقلاء .
– ثلاثون جنيهاً .	– قصة دجاجة .
– ساعة الهراوى .	– مع الفيران .
– الشيخ عبد العظيم !!	– غرفة الأمير !!
– بن الإمام يحيى	– المدالية الذهبية
– مع الشيخ عوض .	– لجنة يوم الخميس .

ويبدأ باب من (وحى الدعابة) بمقال عنوانه (ساعة مع لص) قال فيه :

وبعد ، فقد سرق بعض لصوص القاهر حافظة نقودى ورد إلى بعد سرقتها الأوراق الخاصة بى عن طريق البريد فحاولت بعد ذلك أن اتصل بلص من اللصوص المختصين بسرقة محافظ النقود وبعد سعى متواصل وتعب مضن وإرسال الشفعاء والوسطاء حظيت بمقابلة لص من هؤلاء اللصوص فقد كنت أجلس فى مكان لا أريد أن أذكره فدخل على رجل يرتدى جلباباً وطاقية تعمم عليها بشال نظيف واتجه الرجل إلى ومال على أذنى فى

أسرع من البرق وقال : أنا موفد من عنـد فلان . وفـلان هـذا كنت رجوتـه فى أننى أريد أن أجلس مع لص من لصوص (المحافظ) فعلمت أننى فى حضرة هؤلاء الأفاضل !! وقلت له تفضـل فجلس وكان الرجل قلقاً ينظر إلى من عينين كأنهما عيناً صقر خشـية أن يكون وقـع فى أحبولـة نصبت لـه . وكان نحيـل الجسـم أصفر الوجـه ممشـوق القامـة كأنـه رمـح من الرمـاح يبلـغ الستين من عمره قدمت له سيجارة فأخذها فى رشاقة وأدب وأشعلها فى لطف وما زلت ! أضاحكه بالكلام الرقيق حتى ابتسم وعرفت أنه هدأوا طمأن فقلت له :

متى زاولت العملية ؟!

فقال : زاولتها مـن أربعين عامـاً وابتدأتهـا من غير تعليم معلم وكل دراستى لها هو نظرى لغيرى من الزملاء السابقين وهم يقومون بهذه العملية ثم اشتركت مع بعض الزملاء مساعداً هـو يسرق وأنـا أستره وكـل لص لـه غالباً مساعد أو أكثر وطالما ضبط المساعد ولم يضبط السارق .

وسرقة (المحافظ) تحتاج إلى جـرأة لأن اللص إذا كـان غير جـرىء يظن أن الناس ينظرون إليه فيتردد ويزاول عمله مرتبكاً أمـا اللص الجرىء فإنه يقدم ولا يبالى مع الاحتراس والحيطة .. وربما فطن اللص إلى أن بعض الناس نظره وهو يسرق وفى هذه الحالة يتفاهم اللص بالنظر مع من نظر إليـه ليكون له نصيبه من السرقة .. وأمـا إذا أدرك اللص أن المجنى عليـه أحس بريبة فلابد من التشاغل وإظهار أن المزاحمة هى التى سببت ذلك .

وللص نظرته فى المجنى عليه فليس كل إنسان يصالح أن يكون فريسـة للسارق ونظرتنا مع طول التجارب لا تكاد تخطىء مكان المحفظة .

فقلت له وكيف ذلك ؟! قال : سأضرب لك مثلاً فأنت - ولا مؤاخذة - تضع محفظتك فى الجيب الشمال للقفطان !! فعجبت لحكمه السريع الصادق وقلت له ولماذا حكمت بذلك ؟ فقال إن استعمال (الجيب اليمين) أسهل من استعمال (الجيب الشمال) فأنت تضع فى الجيب اليمين ما تحتاج إليه كثيراً كالمنديل والمنظار وعلبة السجاير والسبحة وعلبة النشوق !! ولكن المحفظة لا تستعمل مثل استعمال هذه الأشياء فمن المعقول أن يكون مقرها (الجيب الشمال) : قلت : ولماذا لا أضعها فى جيب الصديرى ؟ فقال : هذا أيضاً بعيد لأنه تبدو عليك الأناقة فى لبسك وإدخال اليد فى جيب الصديرى وإخراجها منه يذهب بكثير من أناقة القفطان !!

ثم استطرد حديثه فقال وسرقة الجيوب الداخلية أصعب من سرقة الجيوب الخارجية ولابد من اصطناع الزحام أو المشرط : والمساعد الذى يزاحم تسميه (البلطجى) ونصيبه من السرقة الثلث أو الربع .. ويوجد كثير من الناس يتتبعون اللصوص حتى إذا سرقوا قاسموهم ومن كانت هذه صفته فنحن نسميه (الحدق) وأحياناً يخفى اللص المحفظة المسروقة ويبدى للحدق محفظته !! ومن أغرب الأشياء التى مرت بى مع بعض الحدقين أنه كان بمحفظتى سبعة وخمسون جنيهاً وبميدان باب الحديد نشلت (نوتة) وكان بعض (الحدقين) يراقبنى وأصر على أن يأخذ منى نصيبه فأفهمته أننى لم أسرق سوى (النوتة) وليس بها شىء وأن المحفظة التى معى محفظتى والمال الذى بها مالى ولكنه أبى أن يصدق وألح وألحف وخشيت العاقبة فلحقت المجنى عليه بالترام واستوقفته ومعى (الحدق) وأخبرته أن أحد اللصوص نشل من جيبه (النوتة) وأظهرتها له فشكرنى !! فقلت له هل كان بها (ورق بنكنوت) ؟ فقال لا . وبهذا انصرف (الحدق) وقال هذا اللص

فيما قاله إن من يسرق بالمشرط لا يعرف أن يسرق بغيره وكل إنسان وما تعود وسرقة المشايخ أسهل من سرقة غيرهم بالنسبة لملابسهم .. وسرقة المحفظة المربوطة لابد قبل سرقتها من قطع رباطها كالساعة ذات السلسلة وإلا (هرشنى الزبون) قلت وما معنى هرش الزبون لك ؟! قال يشعر بى ثم قال : والمحفظة ذات الحبل أو السلسلة نسميها (المحفظة الملجمة) !! .

قلت له وما شعورك بعد السرقة ؟! فقال أحياناً كثيرة يتنبه ضميرى وأندم على عملى وأعرف أنى أخطأت ولكن هذا قليل فى اللصوص وبعضنا هو الذى يهتم بإرسال الأوراق الخاصة إلى أصحابها وأحياناً نرسلها بعد مدة طويلة إذا بلغ المجنى عليه القسم وذلك لأسباب فنية !! قلت وما هو أكبر مبلغ سرقته ؟! قال ثمانمائة جنيه !! قلت ! وما أقل مبلغ سرقته ؟! قال حدث لى أننى سرقت محفظة فوجدتها فارغة !!

قلت كيف حالكم مع رجال البوليس فقال - والعهدة عليه فيما يقول - أحياناً يكو بيننا وبين بعض رجال القسم اتفاق ومساعدتهم لنا تتلخص فى أنه إذا قدم لهم بلاغ عن سرقة وعرفوا أوصاف المجنى عليه شخصيتنا جاءوا إلينا وأخذوا ما فيه القسمة وتركونا وربما ألبسوا التهمة غيرنا ممن تكون لهم سوابق .

قلت له ألم تضبط فى سرقة من السرقات ؟! فقال سبع مرات ومجموع الأحكام التى حكم بها على (١٨) سنة قلت له:ألم تدخر شيئاً؟ فقال بنيت منزلاً ولكن لحرفتى كتبته باسم خالتى فلما ماتت خالتى أصبح المنزل لورثتها وهكذا لا يدوم الحرام والذى يجىء سهلاً يذهب سهلاً ونحن عرضة لطلبات النقود من الأهل والأقربين ولا تنسى (أتعاب المحامين) عند اللزوم !! قلت وما الذى تنصح به الناس ؟ فقال عدم إخراج المحفظة بالطريق وبحسن توزيع

النقود فى جيوب متعددة ويجب تجنب الزحام والانتباه جيداً إلى الزحام المصطنع .

قلت ما دمت لم تحصل على شيء من هذه العملية فلم لا تتوب ؟! فقال لى نحن مثل الحدأة قالوا لها لأى شيء تخطفين ؟! قالت من جوعى ، فقالوا لها ولماذا أنت جائعة ؟! قالت من خطفى !! ثم هم بالانصراف وأخرجت محفظتى من (الجيب الشمال) ونفحته ما قسم الله له فتناوله فى خجل واضح!! ثم قال لى وهو ينصرف ألم أقل لك لا تخرج محفظتك فى الطريق؟! فقلت له لست فى الطريق ومر كما يمر النسيم(١) .

جلس محمد الأسمر مع لص ساعة زمنية سطر فيها حواراً اجتماعياً ووجدانياً صور فيه الأسلوب الفكرى لشرذمة من الناس انحرفت عن النور وعاشت فى ظلمات بعضها فوق بعض .

وقد بين الأسمر أثناء الحوار الجرىء ما تتمتع به هذه الشرذمة من صفات وجدانية وفكرية كما كشف عن بعض مصطلحات عملهم .

والمقال لا يرمى إلى قص حادثة السرقة التى وقعت لكاتبنا ولا يهدف إلى تسجيل الحوار بينه وبين اللص فالمنشيء محمد الأسمر يتمتع ببعد النظر والقدرة على إصابة الهدف كما يتمتع بالخلق الإسلامى الذى يشدو لبناء مجتمع إسلامى مثالى يشرف الإسلام وبالأصالة المصرية التى غرست فى روحه الولاء لوطنه مما يجعله يصبو دائماً لخير الإسلام وخير مصر ولهذا كتب محمد الأسمر مقاله (ساعة مع لص) ليبين للأجهزة المعينة بسلامة الوطن أسباب انحراف هذه الشرذمة وسبل علاجها كما يكشف بلسان السارق

---

(١) مع المجتمع ١٤٣ : ١٤٧ .

نفسه بغضه للحرام وأن اتباع منهج الله هو سبيل السعادة الاجتماعية والوجدانية كما أنه أعظم سبل النهوض بالأمة الإسلامية والقارىء الكريم لهذا المقال يدرك صرخة محمد الأسمر فى وجه الحرام الذى تنشره شرذمة من الناس كما يشعر بصيحة مدوية تعلن ضرورة تطهير الأجهزة الحكومية من الشرذمة التى تمس كرامة مصر وتغرس الشك فى نفوس أبناء الأمة بغروب القيم الأخلاقية لقد بينت المقونة الآتية الهدف من مقال الأسمر (قلت وكيف حالكم مع رجال البوليس فقال - والعهدة عليه فيما يقول - أحياناً يكون بيننا وبين بعض رجال القسم اتفاق ومساعدتهم لنا تتلخص فى أنه إذا قدم لهم بلاغ عن سرقة وعرفوا من أوصاف المجنى عليه شخصيتنا جاءوا إلينا وأخذوا ما فيه القسمة وتركونا وربما ألبسوا التهمة غيرنا ممن تكون لهم سوابق ...) .

(قلت له ما دمت لم تحصل على شىء من هذه العملية فلم لا تتوب فقال لى نحن مثل الحدأة قالوا لها لأى شىء تخطفين ؟! قالت من جوعى ولماذ أنت جائعة قالت من خطفى ....) .

مما سبق يتبين ضرورة التصحيح الواعى لجميع أجهزة الدولة فى الفترة التى سطر فيهاالمقال كما يكشف عن ضرورة إعداد ندوات توعية دينية واجتماعية وسياسية ووجدانية لبناء أبناء المجتمع المصرى حتى تظل مصر الإسلامية علماً خفاقاً فى سماء الشرف والرفعة .

والمقال اجتماعى جيد يرمى إلى الرقى الإسلامى وقد اتسمت الصياغة الأدبية بالتناسق بين الفقرات مع عمق الترابط المعنوى والفكرى بين الصور.

ويتجول الباحث فى روضة باب (من وحـى الدعابـة) فيطالعـه المقـال الاجتماعى الوصفى (الثقلاء) الذى بين فيه الأسمر الخصـائص الاجتماعيـة والسمات النفسية للثقلاء قال فيه :

(هل يستطيع الإنسان أن لا يكون ثقيلا ؟! أكبر الظن أنه يستطيع إذا كـان ثقله غير مستمد من طبيعة نفسه أما الثقيل الغريزى فهذا ما لا حيلة لأحد فيه.

وإن الرجل ليتلطف لك ويبالغ فى مجاملتك ويطريك ويتملقك ومـع كـل هذا فأنت منقبض الصدر منه غير مستأنس به تحمل تلطفه ومجاملته وإطراءه كأنما تحمل أكياساً من الرصاص .

وإن الرجل لينال من وقتك ومالك ويقطع عليك الغدوة والروحـة ومـع هذا فهو حبيب نفسك وقرة عينك .

ولو أن المسألة خاضعة للعقل لانعكست حال الرجلين لديك وكان أوهما بحبك هذا الذى تستثقله وأولاهمـا يبغضـك هـذا الـذى تستظرفه ولكنـا حينمـا نستثقل أو نستظرف لا نصدر فى ذلك عن عقولنا وإنما نصـدر عـن عواطفنـا والعواطف كثيراً مـا تجتـاح العقـول وتعطـل قوانينهـا ومراسيمها وإن هـؤلاء الثقلاء العزيزيين معذورون مع الناس والناس معذورون معهم فهم ما ينفكـون يتظرفـون والنـاس مـا ينفكـون يستثقلونهم ويستثقلون تظرفهـم والثقـلاء غـير ملومين فى ذلك والناس أيضاً غير ملومين فى استثقالهم إياهم فـالأولون هكـذا خلقهم الله والآخرون هكذا خلق الله عواطفهم وسوّى أمزجتهم .

ويخيـل إلـىّ أن هـؤلاء الثقـلاء العزيزييـن كثـيراً مـا يبتلـى بهـم الرجـل الطيب لأن الرجل الطيب صابر متحمل والثقـلاء العزيزيـون لا يفهمـون وهـم حينما يفهمون لا يرحمون ... أمـا الثقـلاء غـير العزيزييـن فهـؤلاء قـوم غـير

ميئوس من صلاحهم والتخلص من الثقلاء ليس بالأمر الصعب لأن الرجل منهم إما أن يكون متقلاً عليك فى منزلك أو محل عملك .

فإذا زارك فى منزلك فمن السهل عليكم أن لا تقابله وإذا قابلته فأفهمه بلباقة أنك من الذين يكرهون زيارة الناس لهم فإذا أثقل عليك وزارك بعد ذلك فقابله وأنت متأهب للخروج فإن لم يستأذن فاعتذر له بأن لديك ميعاداً فى الخارج حان وقته ثم أخرج به متأبطاً ذراعه وغادره بعد ذلك مهرولاً .

وإذا ما زارك فى مكان عملك فاشك له من الوظائف وابن له كيف أن الموظف عبدعمله وكيف أنه خاضع لرئيسه وأشرح له - فى أذنه - أن الرئيس يعاقب كل موظف يجيئه زائر وأذكر له أنك غير قادر على طلب قهوة أو شاى له لأن الرئيس نبه ولفت إلى أن مكتب الموظف ليس مقهى من المقاهى ثم قف بعد ذلك منتصباً ماداً إليه يدك شاكراً الشكر كله آسفاً الأسف كله وودعه إلى باب الغرفة ثم قف به خارجها قليلاً مكرراً له غضب الرئيس من مجيء الزائرين ! .

ومن الناس من يكون عريض القفا أو مفرطح الوجه أو مفرطاً فى الطول أو مفرطاً فى الغلظ فتستثقله العين وينقبض له الصدر ولكن هذا الصنف من الناس قد تجد فيه إذا جالسته وعاشرته شخصاً خفيف الروح ظريف الكلام سريع البديهة حاضر النكتة فستظرفه بعد ذلك عينك وتأنس به نفسك ويزول عنك ما كنت تشعر به نحوه من الاستثقال الكاذب .

ومن الناس من يعجبك شكله ويملأ عينيك حسنه حتى إذا ما جالسته وعاشرته وجدته تمثالاً جميلاً لا روح فيه وهذا هو الاستظراف الكاذب الذى لا يلبث حتى ينقلب استثقالاً .

وبعض الناس يرى فلاناً يقول قولاً أو يفعل فعلاً ، فيظن أنه لو حاكاه فى ذلك القول أو ذلك العقل لكان ظريفاً مثله ولكنه إذا قاله أو فعله بدأ ثقيلاً وما ذاك إلا لأنه يتكلف ما ليس فى طبعه وفى التكلف ثقل .

ونوع آخر من الثقلاء سليط اللسان بذىء الخطاب يقع فى أعراض الناس ينقل لك وينقل عنك يحسب نفسه ظريفاً لأن دائرته التى يدور فيها من الناس توهمه ذلك اتقاء شره فهو يتصنع النكتة وينم ويكذب وهو لا يبالى أن يضع من شأن عظيم أو يرفع من شأن حقير يذمك اليوم ويمدحك غداً ، لا يستقر له قرار ولا يثبت على حال وهذا النوع من الثقلاء لا ينبت إلا فى البيئة الضعيفة نفوسها ولا يشجعه إلا الأراذل من الناس .

ومن الثقلاء من إذا سلم عليك كاد يخلع ذراعك وإذا حدثك سمع ضجيجه البعيد عنك وهدر كما يهدر البعير وهو فى ذلك يضرب بيده على كتفك إن كنت قائماً وعلى فخذك إن كنت قاعداً وقد تكون ملتفتاً لمن بجوارك فيدير صدغك لتستمع إلى حديثه الذى لا تريد أن تستمع إليه .

هذا وللتخلص من الثقلاء أساليب كثيرة منها ما ذكرت لك ومنها أسلوب رأيته بعينى وكانت نتيجته مدهشة فقد كنت أسير أنا وصديق من الأصدقاء فهبط علينا أحد هؤلاء الثقلاء قائلاً إلى أين تذهبان ؟ فقلنا إلى ميدان الأوبرا فقال وأنا معكما . وبعد أن مشينا خطوات قلت لصديقى - لأتخلص من هذا الثقيل - ألا يجمل بنا أن نزور فلاناً بسيدنا الحسين قبل أن نذهب إلى ميدان الأوبرا ؟ فقال لا مانع ومددت يدى استأذن هذاالهابط فقال لا مانع لدى أيضاً من أن أجيء معكما !! .. ونظرت إلى صديقى ونظر إلىّ ومشينا جميعاً لهذه الزيادة الموهومة وبعد ذلك رأيت صديقى يميل على أذن هذا الثقيل ويسر إليه بعض الشيء وما هى إلا دقيقة حتى رأيت الثقيل يعتذر للصديق بقوله والله أسف ثم استأذن بعدها وفر لا يلوى على شيء !!

فسألت صديقى ما الذى حصل قال أردت أن أتخلص منه نهائياً فطلبت منه جنيهاً قرضة يأخذه آخر الشهر... وقال لى صديقى لقد جربت هذا العلاج فى أحوال كثيرة وهو مضمون النجاح ولكن لا تتقيد بطلب جنيه واحد فإن الموقف أحياناً يتطلب أن تكون السلفة جنيهين أو أكثر من ذلك وقد طلبت من أحدهم مرة خمسة جنيهات وهذا هو العام الخامس بعد ذلك الطلب وأنا لا أراه .

جاء فى كتب الأدب أن عبد الملك بن مروان(١) كان منقوشٌ على خاتمه " اللهم أكفنا السؤ " وكان إذا حضر مجلسه أحد فرآه ثقيلاً ناوله الخاتم وقال له اقرأ عليه فإن فهم الثقيل المقصود من ذلك انصرف وإن لم يفهمْ أعاد عليه الكرة وقال له اقرأ ما عليه وأجد قراءته وهكذا حتى يفهم الثقيل(٢) . يصف المقال الثقلاء فيبين كيفية التعامل معهم حتى يتخلص الإنسان منهم ويصرح كاتبنا أن حكم الإنسان على الثقلاء يصدر من وحى العواطف ويعلن الأسمر أن الثقلاء ينقسمون إلى قسمين أولهما الثقلاء بالعزيزة وثانيها الثقلاء بالسلوكيات والنوع الأول له عذره أما الثانى فيجب الحد من سلوكه البغيض الذى يبرز فى زيارته المستمرة لضحيته فى المنزل أو العمل ويحذر الكاتب من محاولة التقليد أو المحاكاة كما يحذر من الثناء المبنى على الخداع لأنه يدفع إلى الكذب والنميمة والنفاق والرياء مما يشعل نيران الضغينة بين أفراد المجتمع والمقال اجتماعى وصفى يرمى إلى البناء الأخلاقى الصحيح من

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى القرشى أبو الوليد من أعاظم الخلفاء ودهاتهم نشأ فى المدينة فقيهاً واسع العلم متعبداً ناسكاً انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (٦٥هـ) فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة فكان جباراً على معانديه قوى الهيبة وكان يقال معاوية للحلم وعبد الملك للحزم . الزركلى - الأعلام - جـ٤ ص١٦٥ - بيروت .

(٢) مع المجتمع ص١٤٨ - ١٥١ .

خلال عرض مواقف لفئة من الثقلاء وليس المقصود منها سردها لذاتها إنما المراد تنمية الذوق الاجتماعي وترقية السلوك الإنساني .

وقد تمتع المقال بالوضوح والسلاسة وحسن العرض مع دقة الربط بين الفقرات وعمق الإيحاء الاجتماعي والوجداني من خلال مداعبة الكاتب لفكر المتلقي .

ويستمر كاتبنا في مداعباته الاجتماعية التي ترمي إلى البناء الأخلاقي الصحيح فيكتب مقالاً بعنوان (ثلاثون جنيهاً) قال فيه :

(لي صديق من الظرفاء يحمل شهادة عالية ولكنه نشأ وشب واكتهل في الصعلكة كان يلقاني دائماً ساخطاً على الزمن ساخراً منه وكثيراً ما رأيته وهو أشبه الأشياء بإيوان كسرى حين يقول فيه البحتري :

فهو يبدي تجلداً وعليه ككل من كلا كل الدهر مرسى

قابلت هذا الصديق وقد شمله إنصاف الموظفين وناله منه خير ليس بالقليل وقد أحببت أن أهنئه بما نال ، فلما فطن لذلك قال لي فيما قال : قاتل الله المال فقلت له ويك أمجنون أنت ؟ صدق الله العظيم حينما يقول : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فقال لا شكور ولا كفور المسألة غير ذلك فقلت وما هي؟ فقال نلت ببركة الإنصاف ثلاثين جنيهاً عن سبعة أشهر فقبضتها ، ووضعت المبلغ في حافظة نقودي ووضعت الحافظة في جيبي وغادرت مكتبي وأنا في نشوة الثمل وأخذت طريقي إلى الترام فلما استقر به مقامي في آخر المقعد على الشمال تذكرت النشالين وأفعالهم حينما يقعدون على هامش الراكبين ويستلون بمشارطهم ما في الجيوب في خفة الساحرين فرأيت من الأحوط أن أجلس وسط المقعد وقد كان فبعد خمس دقائق انتقلت إلى مقعد آخر كان

لحسن حظى خالياً ولكنه سرعان ما امتلأ بالراكبين : وقد أثارت فى نفسى هذه السرعة التى امتلأ بها المقعد شكوكاً كثيرة وقام فى ذهنى أن هؤلاء الذين اكتنفونى لصوص وليس هذا ببعيد فللصوص حاسة غريبة يشمون بها النقود من فراسخ كما تشم الذئاب رائحة فرائسها ومما أكد عندى ذلك أننى مكثت أجيل النظر فيهم وقد لحظ أحدهم ذلك على وابتسم ابتسامة هادئة لمن يجواره ثم نظر إلى نظرة خفيفة فما شككت بعد ذلك فى أن فى المسألة أمراً وإن لم يكن فى هذا الأمر هو التآخر على الثلاثين جنيهاً فما يكون التآمر ؟! ولقد رأيت من الأسلم أن أغادر الترام وأخذ (تاكسى) إلى منزلى فنزلت منه متظاهراً بالتؤدة والاتزان ومر (تاكسى) أمامى فأشرت إلى سائقه فوقف وأخذت مكانى من العربة منجعصاً حامداً الله على نجاتى من الترام وراكبى الترام وقلت للسائق.... مصر القديمة يا أسطى وبعد أربع دقائق جال بخاطرى أن بعض السواقين مجرمون وأن ما صنعته قد يكون غير مأمون العاقبة فماذا تكون الحال إذا كان هذا السائق بعض هؤلاء الذين يسلبون من يركبون معهم بعد أن يذهبوا بهم فى أماكن سحيقة وكلما أسرع السائق تصبب العرق البارد من جبينى وظللت فى حيرة ما بعدها حيرة وكنت فى أثناء ذلك ألوم نفسى وأقول ما هذه الأفكار السوداء وتشجعت وقلت للسائق يا أسطى .

(وحدة وحدة ليه مستعجل) فقال لى بعدما ظن إننى أهزأ به (يا بيه ما أقدرش أمشى أسرع من كدة الكاوتش تعبان) .. إذن فالسائق ليس بمسرع وإذن فما يجول برأسى ما هو إلا أوهام ولكن هيهات هيهات أن أقنع نفسى أن هذا السائق ليس بلص أو أنه رجل يؤمن جانبه .

وبعد تعب نفسى شديد وصلت إلى منزلى فى حفظ الله ورعايته وتبسمت لى زوجتى وقالت : هل تسلمت المبلغ فقلت لها نعم فقالت لى :

ومالك مكفهر الوجه ؟! قلت لا شىء . قالت هل أصابك شىء فى الطريق ؟ قلت لا . قالت فما الذى يبدو عليك ؟! قلت لها الخوف من اللصوص !!

وبعد أن تكلمنا كثيراً عن اللصوص وجرأتهم وحيلهم ابتدأت زوجتى تشرح لى ما هى محتاجة إليه من ملابس للعيد وما يحتاج إليه الأولاد من ملابس للعيد وأخذت تضع ميزانية الجنيهات الثلاين وضعاً ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ وانعقد البرلمان المنزلى منها ومن أولادها ومنى كانت هى وأولادها فى ناحية وأنا وحدى فى ناحية واستحوذوا على المبلغ ! وانهزمت المعارضة الممثلة فى شخصى الضعيف وخرجت من المنزل غاضباً .

ولكنى حينما ركبت الترام ركبته وأنا مطمئن للناس لا أراهم نشالين ولا أراهم مجرمين وشعرت براحة كبيرة كنت فقدتها وأنا أحمل الثلاثين جنيهاً وعادت إلى نفسى سعادتها واستقرارها.. سعادة الإفلاس المفلسين ، واستقرار الإفلاس والمفلسين !(١)) يكشف المقال عن ملامح بعض المظاهر الاجتماعية فى البيئة المصرية مثل المعاناة الاقتصادية التى يعانى منها بعض الموظفين الذين يشتغلون فى الجهات الحكومية كما يبين المقال انتشار السرقة مما يدل على تفشى الفساد الأخلاقى وانتشار الاضطرابات الاجتماعية بين أفراد الأسرة .

والمقال دعوة للإصلاح الاجتماعى الذى يثمر بدوره الاستقرار الوجدانى كما أنه همسة للجهات الحكومية بقصد إعادة النظر فى الراتب الحكومى للموظفين .

---

(١) مع المجتمع ص١٥٣ : ١٥٤ .

والمتلقى للمقـال يدرك أنه صورة حيــة لمجتمع فى حاجة شـديدة إلى تدعيم أركانه كما يتمتع المقـال بـروح الدعاية الوجدانية التى تجلت فـى المقولة الآتية :

(ولكنى حينما ركبت الترام ركبته وأنا مطمئن للنـاس لا أراهم نشـالين ولا أراهم مجرمين وشعرت براحة كبيرة كنت فقدتها وأنا أحمل الثلاثين جنيهاً وعـادت إلى نفسى سعادتها واستقرارها سعادة الإفـلاس والمفلسـين واستقرار الإفلاس والمفلسين) .

فقد بين كاتبنا من خلال هذا الحوار الوجدانـى الاسـتقرار النفسـى للمفلسين مما أوحى بأن المال من أسباب الاضطرابات النفسية والاجتماعية إذا فقد صاحبه الاتزان الناتج من الوعى الإيمانى الذى يثمر الرضا برزق الله سبحانه وتعالى .

وقد بين كاتبنا فى مقال (قصة دجاجة) أثر المال فى القلق الاجتمـاعى فقال :

(قال لى صديق - وكنا فى رمضان - لقد مضى شهر كامل و (أم متولـى) بائعة الدجاج لم تخطر بالحى الذى أسكنه وقد اشـتقت لمنظرها وهى تتهادى بالقفص على رأسها صائحة : (الفراخ الفيومى) (الفراخ العال) (الفراخ اللـى زى الوز) وفى صباح يوم من الأيام بعد هذه الغيبة الطويلـة سمعنا صيـاح أم متولى على دجاجها فسرت البشرى فى الحـارة مسير البرق وهرعت إلينـا الخادمة تنبئنا فى غبطة ظاهرة أن أم متولى بباب المنزل فهل يلزم شىء ؟!

وصعدت أم متولـى وبيدها ثلاث دجاجات كما عودناها فقلت لها - مراعاة للظروف والملابسات - كفى دجاجة واحدة يا أم متولى .

وبعد أخذ ورد واستفسار عن السبب الذى من أجله تغيرت عادتنا أفهمناها أن السبب على كل حال ليس من ناحيتها !! فاطمأنت أم متولى إلى أن ثقتنا بها لم تتغير وسألناها بكم هذه الدجاجة ؟ فقالت زنوها على حساب الرطل اثنا عشر قرشا وبلغت الدجاجة ثلاثة أرطال بستة وثلاثين قرشاً تدفع أول الشهر كما هى العادة !!

وطبخت الدجاجة المحترمة ووضعت على مائدتنا وبجانبها طبق من الفول المدمس وضرب مدفع الإفطار وجلس ثمانية صائمون حول الدجاجة وحول طبق الفول نظر الصائمون السبعة إلى لأعطى كل واحد منهم نصيبه من الدجاجة وتناولت الدجاجة فقسمتها أرباعاً ثم قسمت كل ربع قسمين وناولت هذا وذاك ثم خيل إلى أن بعض الأنصبة كانت تزيد على غيرها فعدلت الميل بنصيبى الخاص بى . وأفهمت من حولى أننى أصبحت بعد طول العهد بالدجاج لا أحب الدجاج ومصمصت أصابعى بعد عملية التقسيم وتناولت لقماً من طبق المدمس وشربت ثلاثة أكواب من الماء ونفخت بطنى ثم انجعصت وحمدت الله !

ثم سرحت بعد ذلك وشرد خاطرى فظن الذين معى أن عفريت الشعر حضر وظنوا أننى أعالج نظم قصيدة من القصائد فقلت لهم : ليس الأمر كما ظننتم ولكنى فكرت فيما قمت به من تقسيم الدجاجة على جهلى التام بشئون الاقتصاد فسرت فى نفسى نشوة العبقرية والاقتدار !!

أيها الناس لقد قيل : قديماً (من أكل بيضة فكأنما أكل دجاجة) وعلى هذا يطرد القياس فأقول من طبخ دجاجة فكأنما طبخ خروفاً وطبخ خروف فى هذه الأيام إسراف فاللهم تبنا وأتبنا ولن نكون بعد ذلك من المسرفين(١) .

---

(١) مع المجتمع ص١٥٥ - ١٥٦ .

والمقال لمحة اجتماعية صاغها الكاتب فى إطار قصصى حى عكس تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية كما بين ما يقوم به رب الأسرة من تضحيته لأهل داره ولعل كاتبنا يهمس فى أذن راعى مصر بضرورة التضحية وتقديم العطاء لأبناء مصر ويتجلى من المقال بعض عادات المجتمع فى شهر رمضان .

وقد ظهرت دعابة كاتبنا بروح مصرية خفيفة فى قوله :(من أكل بيضة فكأنما أكل دجاجة) وعلى هذا يطرد القياس فأقول من طبخ دجاجة فكأنما طبخ خروفاً وطبخ خروف فى هذه الأيام من إسراف .

وبهذا فالمقال اجتماعى هادف يحمل سمات الدعابة المصرية فى إطار قصصى لطيف .

ويداعب قلم محمد الأسمر الشاعر محمد الهراوى من خلال مقال (ساعة الهراوى) الذى سرد فيه قصة هدية الهراوى له قال فيه :

(بينى وبين الساعات خلاف قديم وعداوة مستحكمة وكان آخر عهدى بمتاعبها ساعة انفقت على إصلاحها أضعاف ثمنها وفى أحد الأيام قابلنى رجل وسألنى (من فضلك الساعة كم ؟) فكان جوابى له أن قدمت إليه الساعة وقررت لا ألوى على شىء .

ثم أبى سوء الطالع إلا العودة إلى حمل الساعات حينما أزمعت السفر لدمياط فلا يليق بى وأنا بها أن أغدو وأروح ولا ساعة معى لأنى هناك عرضة دائماً لمثل (فاضل عن الظهر كام ؟!) (فاضل عن العصر كام) فقلت لصديقى الشاعر الكبير الأستاذ الهراوى قم معى لاشترى عدواً ما من صداقته بد ؟ فأخبرنى أنه سيكفينى مؤونة هذا الشر وأنه سيتفضل بإهدائى

ساعة تتسينى الساعات التى لقيتها من متاعب (الساعات) السابقة وجاء الأستاذ الهراوى فى اليوم التالى وهو يحمل ساعة لطيفة الشكل فتقبلتها شاكراً بعد يومين صحبتها إلى دمياط ثم إلى رأس البر وظلت هذه الساعة تؤدى عملها فى المصيف على الأتم وكنت أباهى بها وأفاخر وأتحدى أرباب المعاش الذين لهم اعتزاز كثير بساعاتهم وتدقيق بالغ فى تقديم الساعة أو تأخيرها دقيقة أو دقيقتين ثم انتهت أيام المصطاف وعدت إلى القاهرة وعادت معى الساعة بسلامة الله .

وقد كنت أنا بالمصطاف لا يجيئنى خطاب من الأستاذ الهراوى إلا وفيه ما يأتى :

(شوف الساعة كام من فضلك) فأبعث إليه أطمئنه على صحتها الغالية.

وتلاقينا بعد العودة فقال لى (شوف الساعة كام من فضلك) فضحكت وقلت له إنها من أدق الساعات وأصدقها ثم أخرجتها وكنا وقت الأصيل فإذا بها التاسعة والنصف ؟! فبلعت ريقى ، وفتحت عينى جيداً فى السماء ثم قلت للأستاذ الهراوى هل نحن بعد العشاء ؟!

فقال لى نحن لا نزال قبل المغرب فقلت له ذلك غير ممكن نحن بعد العشاء لأن ساعتى التى هى ساعتك لا تكذب وهى الآن التاسعة والنصف .

وبعد أخذ ورد اقتنعت أننا قبل المغرب ، وأن الشمس لم يختل نظامها ولكن ساعتى أصابها من الخلل ما هو جار على رقاب الساعات من لدن ساعة بغداد التى أهديت لشارلمان إلى أن تقوم الساعة فملأتها وضبطت عقربيها وعدت إلى المنزل .

ثم قابلت فى اليوم التالى أحد أصدقائى وقال إنه سيزورنى بالمنزل فى الساعة الخامسة وأنا رجل أحب صدق المواعيد فانتظرت صديقى بالمنزل والساعة أمامى فلما رأيتها الخامسة غادرت المنزل وقابلت الأستاذ الهراوى بمقهى من المقاهى وبعد مدة إذا بصديقى يهبط علينا ويلومنى فى خلف ميعاده وأنا أضحك منه وأقول له (رمتنى بدائها وانسلّت) فيقسم لى أن (خمسة إلا خمسة) كان يقرع بابى وأقسم له أننى (خمسة تمام) كنت أغادر منزلى وبعد هذا الحوار قال لى الأستاذ الهراوى على طريقته (شوف من فضلك الساعة كام) فأخرجتها فإذا بها السابعة فقال صديقى غير معقول أن تكون السابعة وأخرج ساعته فإذا بها السادسة وإذا بساعة الأستاذ الهراوى السادسة أيضاً وبعد ذلك ابتدأت هذه الساعة تكون متعبة حقاً فتارة تمشى (عربى) وتارة تمشى (أفرنجى) وتارة لا عربى ولا أفرنجى كل ذلك من تلقاء نفسها وبمحض إرادتها واختيارها وقد بدا لى أن أجعلها (أول مبذول لأول مجتد) لا على أنى من الذين يجعلون لله ما يكرهون بل لأنفع بها بعض هؤلاء الذين ارتكبوا الكثير من السيئات ليخفف الله عنهم بحملها بعض سيئاتهم أو سيئاتهم كلها وليثيبهم الله سبحانه وتعالى ثواب الصابرين .. وحملها فوق ذلك رياضة نفسية كبيرة فهى أشبه الأشياء بزوجة الفيلسوف الكبير سقراط وما كان يلقاه منها من أذى وسلاطة لسان كان يرى فيهما ما يرى من الرياضة لنفسه .

ولما كان لابد من شكوى إلى ذى مروءة (يواسيك أو يسليك أو يتوجع) فقد رأيت أن أشكر أمر هذه الساعة المتعبة الملعونة إلى الأستاذ الهراوى نفسه الذى أشار على بعرضها على رجل (ساعاتى) لأصلحها . فقلت له لا يا سيدى أنا رجل اعتقد أن هؤلاء الناس يفسدون الساعة ولا يصلحونها وبينما أنا أجادله فى ذلك حضر الدكتور (الطبيب) حسين الهراوى والأستاذ حسين

شفيق المصرى(١) فقد تناولها بأسلوبه الفكاهى المعروف وقال (دى ساعة دايرة على كيفها) .

و (ماشيه مشى مسخرة) و (قلبها فاضى) و (رقاصها مكسح) والساعاتى لما يشوفها (قلبه يدق) وأخيراً قر القرار على أنها الساعة التى هى(أدهى وأمر) وأننى حر فى ردها إلى مهديها (ليعلم أنى بها مبتلى) . وبينى وبين الساعات من اليوم بعد المشرقين والله سبحانه وتعالى خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

وقد نظم الأستاذ الهراوى قصة هذه الساعة فقال :

وســـــاعة أهديتهــــــا   إلى الأديب " الأســـمر "

حســـبتها فـــى مخبـــــر   كمـــــا لهـــا من مظهـــر

فظـــــرفها مـــن معــدن   مــــرقـــش مظـــــهر

---

(١) حسين شفيق بن محمد نور المصرى كانت له شعر من أهل القاهرة من أصل تركى استمر سنين كثيرة وهو سيد الفكاهة فى أدب مصر الحديث عالم السياسة والأدب بأسلوب جديد من التنكيت والتبكيت وكتب فن جرائد متعددة وأصدر جرائد (السيف) و (الأيام) وأجاد الشعر الرصين المتين والزجل الرقيق قال واصف له (مزج بين الجد الوقور بالهزلالمستملح جاهد بقلمه أربعين تماماً .

له ديوان شعر صغير . وضع لفرقة الريحانى مسرحيات (آنست) و (افوتك ليه) .

الإعلام - الزركلى جـ٢ ص٢٣٩ الزركلى .

محمد عبد الطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب فقيه حنفى مولده ووفاته فى الرياض جمع مكتبة كبيرة احتوت على جملة منن النفائس له رسائل فى الدعوة إلى التوحيد ونصائح الإخوان .

الإعلام - الزركلى - جـ٦ ص٢١٨ - بيروت .

....

تمشى عليها الشمس فى عطارد والمشـــترى ؟!

وظن صديقنا الهراوى أنه بهذه القصيدة نجا من ساعته ومن متاعبها ولكنه لم يلبث حتى رأى نفسه فى ورطة أدبية فقد انتقد الأدباء بيته الذى يقول فيه وصفاً لهذه الساعة أن الشمس تمشى عليها فى عطارد والمشترى . وكتب بعضهم فى مجلة الرسالة كلمة جاء فيها ما يأتى : (ونحن إذا صدقنا أن هذه الساعة: أحجارها من لؤلؤ وجوهر وأنه لم يكن كمثلها هدية من موسر ... إلخ إلخ فإننا لا نصدق بحال من الأحوال أن الشمس تمشى عليها فى عطارد والمشترى فإن الشمس إذا انحرفت عن أبراجها ومشت على أحد الكوكبين عطارد أو المشترى لكان هول فى السماء والأرض لا يتصوره العقل إلا يوم يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات غير السموات فعطارد والمشترى كوكبان من الكواكب السبعة لا برجان من أبراج الشمس .

فلما قرأ الهراوى هذه الكلمة ضحك وقال : هذا صحيح ثم قال (دى على كدة متبقاش ساعة ، دى تبقى قيام الساعة !!) فقلت له :

لا تثريب عليكم فإنه إذا كان للصوفين (شطحات) فلماذا لا يكون للشعراء (شطحات) فقال ولكن هذه (شطحة) كبيرة .. فقلت له وأنت أيضاً شاعر كبير !!(١) .

داعب محمد الأسمر صديقه الشاعر محمد الهراوى مداعبة لطيفة تنم عن الروح المصرية الخفيفة التى تحب النكتة وتبحث عن البسمة فى بحر لجى متراكم الظلمات لأنها نبض الحياة وأمل فى مستقبل مشرق يفيض بالخير

---

(١) مع المجتمع ص١٥٧ : ١٦١ .

وقد صور الأسمر فى مقالة مواقف طريفة لهدية الهراوى فبين أنها ساعة لطيفة المنظر ولكنها تسببت له فى مفارقات مثيرة للضحك مما جعله يردها إلى الهراوى ليعلم أن هديته كانت بلاء للأسمر .

ويتمتع هذا المقال الانطباعى بجمال العرض وتناسق الفقرات وصفاء الألفاظ وقد ضاعف من حيوية الأبيات الشعرية التى تغنى بها الهراوى بساعته التى قدمها هدية للأسمر وقد أعجبنى ما جاء فى المقال من نقد أدبى جيد لبيت الهراوى الذى وصف بها الساعة :

تمشى عليها الشمس فى　　　عطارد والمشترى ؟!

جاء فى النقد :

وكتب بعضهم فى مجلة الرسالة كلمة جاء فيها ما يأتى :

(ونحن إذا صدقنا أن هذه الساعة : أحجارها من لؤلؤ وجوهر وأنه لم يكن كمثلها هدية من موسر ... إلخ إلخ فإننا لا نصدق بحال من الأحوال أن الشمس تمشى عليها فى عطارد والمشترى فإن الشمس إذا انحرفت عن أبراجها ومشت على أحد الكوكبين عطارد أو المشترى لكان هول فى السماء والأرض لا يتصوره العقل إلا يوم يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات غير السموات فعطارد والمشترى كوكبان من الكواكب لسبعة لا برجان من أبراج الشمس) .

والنقد يتمتع بسمات معنوية وعلمية جيدة تساعد على تنمية الحاسة الأدبية النقدية .

ويسير بنا موكب من وحى الدعابة فنجد مقالاً بعنوان (مع الفيران) تحدث فيه كاتبنا من آثار الزلزال النفسية والاجتماعية على أفراد المجتمع قال فيه:

(.... وفى سنة (١٩٣٠) أيام شبابى عدت إلى منزلى وكان بالحلمية الجديدة فوجدت الخادمة واقفة أمام الباب وعليها كثير من الهلع فقلت لها ما الذى حدث ؟ فقالت إن فلاناً الساكن بالعمارة قال إنه موظف بجريدة الأهرام وأخبرنا أنه سيحدث (زلزال فى الساعة الثانية عشر وقد خرج سكان العمارة إلى فضاء (القلعة) فقلت لها أذهبى والحقى بهم وكان لى صديق حميم يسكن قريباً منى فأسرعت إليه وأخبرته الخبر فأسرع وأبلغ أسرته وخرجت أسرته إلى فضاء القلعة... ورحت أمشى أنا وصديقى هنا وهنالك حتى جاءت الساعة الثانية عشرة ولم يحدث شيء ثم مرّت على ذلك ساعة ولم يحدث شيء...

فظن صديقى أننى أمزح معه فنفيت له ذلك واتصلت بجريدة الأهرام ورد على عامل التليفون وعلمت منه أن المحررين انصرفوا فسألته هل عندكم خبر عن زلزال يحدث هذه الليلة ؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً فاعتذرت لصديقى عن هذا الإزعاج له ولأسرته ... ولمت نفسى على أننى لم اتصل بجريدة الأهرام عندما علمت هذا الخبر لأتأكد من صحته وقلت لصديقى فلنعد إلى منازلنا وكنا حينئذ (بميدان باب الخلق) فلما وصلنا إلى (جامع قيسون) رأيت جندياً من جنود بوليس هذه الناحية واقفاً وسط الشارع غارقاً فى (بدلته) الصوف الغليظة ومعطفه السميك فقد كان الفصل شتاء .. ورأيت فى ضوء مصباح الطريق حيواناً صغيراً يجرى مسرعاً ثم جاء تحت قدمى الجندى واختفى !! فعجبت لذلك وأخبرت صديقى الخبر فظل يضحك وأخذ يتأملنى طويلاً وهو يقول لى أكلت ماذا ؟ شربت ماذا ؟ كنت عند من هذه الليلة ؟! يظهر لى أنك تعاطيت شيئاً ! مرة تقول زلزال !! ومرة أخرى حيوان جرى واختفى تحت قدمي الجندى !! ... ثم راح الصديق يكرر قوله أكلت ماذا ؟! شربت ماذا ؟ كنت عند من هذه الليلة ؟ يظهر لى أنك تعاطيت شيئاً ... فلم

أهتم بكلام الصديق وأصررت على الذهاب إلى الجندى لأعرف أين اختفى الحيوان الصغير الهارب ؟

ولما رأى صديقى تصميمى على ذلك حاول أن يمنعنى فلما لم يستطع حاول الهروب منى فأمسكت به وجذبته إلى الجندى جذباً وانضم إلينا قليل من المارين العائدين إلى منازلهم فقلت للجندى ألم تشعر بشىء مر تحت قدميك ؟! فظن أننا نمازحه ، أو نسخر منه ولكنه كان لطيفاً فضحك وضحك الناس ... ثم إذا بالجندى ينقلب ضحكه إلى وجوم !! ثم إذابة يتحسس ظهره ويلتوى ذات اليمين وذات الشمال وهو يصيح أحس بشىء فى ظهرى ، فوضعنا يدنا على ظهر المعطف فإذا بحيوان صغير داخل المعطف ظنناه قطة صغيرة نزعنا معطف الجندى ونحن قابضون على هذا الحيوان الذى تبين لنا بعد ذلك أنه (جرز) كبير !!(١) .

يصف مقال مع الفيران ما ينتاب أبناء المجتمع المصرى من خوف شديد عندما يسمعون بوقوع زلزال كما يبين طبيعة سلوكهم للوقاية من آثار الزلزال والمقال يبين أن طبيعة الشعب المصرى طبيعة تصبو دائماً إلى الاستقرار ويوحى بضرورة إعداد التجهيزات اللازمة لمواجهة آثار الزلزال وهذا ما تفعله الآن وزارات الإعلام والشئون الاجتماعية ووزارة الداخلية ويحمل المقال بين طياته لمسة باسمة تمثلت فى موقف طريف حدث للجندى وذلك حينما تسرب إلى معطفه جرذ كبير .

والمقال وصفى حيث وصف سلوك الشعب المصرى فى لحظات توقع الزلزال كما وصف سلوكه عند إجابة الداعى الذى يستغيث لنجدته من مكروب حل به وكذا أبناء مصر أصحاب شهامة ونجدة وطبيعة كريمة طيبة .

(١) مع المجتمع ص١٦٣ : ١٦٤ .

ويطالعنا مقال بعنوان (الشيخ عبد العظيم) علىنمط مقال السيرة قال فيه:

نشأ الشيخ عبد العظيم فى قريته نشأة ريفية وحفظ القرآن بها ثم التحق طالب علم بالأزهر مكث بالقاهرة خمسة أعوام كان فيها متفرغاً لدراسته كل التفرغ ونال الشهادة الابتدائية من الأزهر ... ثم انقطع عن طلب العلم ليشتغل فى عشرة فدادين ورثها عن والده يؤجرهاحيناً ويزرعها حيناً آخر .. وفتح الله عليه فى عمله هذا حتى أصبح من أثرياء ناحيته الذين لهم مكانتهم خصوصاً أنه كان محباً للخير معروفاً بالمروءة ومعاونة الناس .

ومرت الأعوام على ذلك والشيخ عبد العظيم متمسك بزيه القديم (العمامة والجبة والقفطان) ومتمسك بتقاليد الريف الهادئة سعيد بها وكان صديقه خليل بك – وهو من أعيان القرية – كثير الإقامة بالقاهرة يؤثر حياتها الصاخبة المرحة على حياة الريف الهادئة المتزنة .

وكان إذا حضر إلى القرية بادر بزيارة الشيخ عبد العظيم وكثيراً ما كان يلومه فى ملازمته للريف وفى ما يبذله من المال معاونة للمحتاجين والبائسين كما كان يلومه كثيراً فى هذا الزى الذى لا يزال يتمسك به (العمامة والجبة والقفطان) .

وما زال خليل بك بالشيخ عبد العظيم حتى أثر عليه فهجر القرية واستأجر داراً بالقاهرة وترك عمله لوكيله يشرف عليه .

وأخذ (خليل بك) يغمس (الشيخ عبد العظيم فى حياة الأغنياء اللاهين ويكشف له عن خبايا القاهرة ومفاتنها فخلع الشيخ عبد العظيم (العمامة والجبة والقفطان) ولبس (البدلة والطربوش) وعرف الخمر وعرف النساء وعرف القمار وحضر الحفلات الساهرة الراقصة وانغمس مع خليل بك فى

حياته المستهترة ينام النهار ويسهر الليل ولكن الشيخ عبد العظيم ظل فى هذه الحالة وشخصيته الأولى كامنة فى نفسه لا تفارقه حتى إنه فى يوم من الأيام كان يمشى بشارع (الموسكى) بالقاهرة فسمع (عربجى حنطور) وراءه يقول يمينك (ياسى الشيخ) فقفز الشيخ عبد العظيم على (التلنوار) آخذاً يمينه ظناً منه أنه المقصود بقول العربجى يمينك يا سى الشيخ ثم تذكر أنه لا يلبس لباس الشيوخ وتبين له أن تنبيه العربجى لم يكن له ولكنه لشيخ كان وراء الشيخ عبد العظيم ! .

وفى يوم من الأيام دعا خليل بك الشيخ عبد العظيم إلى وليمة من الولائم أقامها صديقه (عزت بك الدندراوى) احتفالاً بعيد ميلاده وذهب الشيخ عبد العظيم مع صديقه خليل بك إلى هذه الوليمة وفى أثناء تناوله للطعام أحس أن عزت بك ينظر إليه ويبتسم ابتسامة غريبة وراح الشيخ عبد العظيم يفكر فى هذه الابتسامة ولا يهتدى لمعرفة سببها .

وانتهت الوليمة ثم انتهت الحفلة وانصرف الشيخ عبد العظيم وخليل بك كل إلى داره ثم تلاقيا فى اليوم الثانى وتحدث الصديقان عن حفلة الأمس وتذكر الشيخ عبد العظيم (عزت بك) وهو ينظر إليه أثناء الأكل ويبتسم فسأله صديقه خليل بك عن ذلك وقال له .. لقد تكلم معى اليوم عزت بك بالتليفون ، وسأل عنك وقال : إنك رجل لطيف ولكنك متأخر فقلت له متأخر لماذا ؟ فقال ألم تلاحظه أثناء الأكل ؟ فقلت له إن من عادتى أننى لا ألاحظ أحداً أثناء الأكل ... ما الذى حدث ؟ فقال لى فضيحة .... فضيحة ... كبرى فقلت له إيه اللى حصل ؟ فقال لى تصور يا خليل بك أن صاحبك هذا كان يأكل الأرز بالملعقة ؟! تصور يا خليل بك أن (السفرجى) كان ينظر له وهو مشمئز !! يا سلام يا خليل بك هو لسة فيه إنسان بيأكل الأرز بالملعقة ؟! ..

فقال الشيخ عبد العظيم وهو فى شبه غيبوبة مما يسمع (أمال الأرز يؤكل بايه يا خليل بك ؟) فقال لـه بالشوكة ... فقال الشيخ عبد العظيم إذا كانت المسألة كذلك وكان أكل الأرز بالملعقة تأخراً وفضيحة كبرى فإن ملايين الناس فى الشرق كله تكون على هذا متأخرة وتكون غارقة فى هذه الفضيحة الكبرى فإنهم يأكلون الأرز بالملعقة لا بالشكوكة بل إن فيهم من يأكل الأرز بيده لا بالملعقة ولا بالشوكة يا سلام يا خليل بك .. أكل الأرز بالملعقة فضيحة كبرى ؟ أما مجالس الكونياك والويسكى ومجالس القمار ومجالس النساء المتهتكات وحفلات الرقص هذا يأخذ امرأة ذاك بين ذراعيه وذاك يأخذ امرأة هذا بين ذراعيه .. وصرف المال هنا وهنالك بغير حساب وخراب البيوت وانحلال الأخلاق .. كل هذا يا خليل بك ليس تأخراً ولا فضيحة كبرى وإنما التأخر والفضيحة الكبرى فى نظر (عزت بك الدندراوى) هو أكل الأرز بالملعقة ؟ أكل الأرز بالملعقة هو الذى جعل (السفرجى) ينظر إلى وهو مشمئز أما السكر وغمز العيون للعيون والرقص والهمس أثناء الرقص كل ذلك ليس فيه تأخر وليست فيه فضيحة كبرى وليس فيه ما يدعو للاشمئزاز ؟! .. التأخر والفضيحة الكبرى والاشمئزاز انحصر فى أكل الأرز بالملعقة .. مسألة خطيرة قوى أكل الأرز بالملعقة ؟! انقلب الاحتفال بعيد ميلادعزت بك إلى مأتم ؟! أعلنت الحرب ؟! وقعت السماء على الأرض !! اسمع يا خليل بك والله والله لقد مضى علىّ عام فى هذه الحياة التى أغرقتنى فيها وأنا غير راض عن نفسى...ألومها فى كل يوم بل فى كل ساعة بل فى كل دقة... حياة غريبة سهر بالليل ونوم بالنهار وكل من حولى وحولك لصوص لا هم لهم إلا اقتناص أموالنا : فلصوص يحيطون بنا باسم الأصدقاء الأوفياء ، لصوص يحيطون بنا باسم العاشقات لنا ولصوص يحيطون بنا باسم إخواننا فى لعب القمار ... حتى زجاجات الكونياك وزجاجات الويسكى لصوص أيضاً الكل يسرق ما لنا ويسرق صحتنا ويسرق شرفنا !!

لقد كنت تلومنى على معاونة المحتاجين والبائسين وتقول لى (إمسك إيدك يا شيخ عبد العظيم القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود) وأنا اليوم أنفق أضعاف أضعاف ذلك على العاشقات الكاذبات وعلى الكونياك والويسكى وعلى موائد القمار فأين وعظك وإرشادك يا خليل بك ؟!

لقد سئمت نفسى هذه الحياة يا خليل بك .. اشتقت إلى حياتى الأولى ... اشتقت إلى أن أعيش بين زوجتى وأولادى . اشتقت إلى ما كان يصنعه لى بيتى من شراب الخروب والسوبيه والليمون .. اشتقت إلى بذل المال للمحتاجين والبائسين .. اشتقت إلى كل ذلك وسئمت العاشقا المحترفات للعشق وسئمت الكونياك والويسكى وسئمت بذل المال على موائد القمار .

ومسألة أخرى أذكرها لك يا خليل بك .. لقد اشتقت إلى أكل الأرز بالملعقة وأنا بعيد كل البعد عن عزت بك الدندراوى وبعيد كل البعد عن هذا (السفرجى) الذى ينظر إلى من يأكل الأرز بالملعقة وهو مشمئز !!

وبعد أيام عاد الشيخ عبد العظيم إلى قريته وعاد إلى العمامة والجبة والقفطان وعاد إلى معاونة المحتاجين والبائسين(١) .

يتناول المقال وصف نشأة فرد من افراد قرى مصر الطيبة الطاهرة التى تنعم بالسلام الأخضر وبالقلوب العامرة التى تترنم بالحياة الباسمة ويبين كاتبنا أن أسلوب التعليم الأزهرى فى الريف هو أرقى السبل لتكوين شخصية سوية تتمسك بالقيم الإسلامية وتتمتع بوعى ثقافى يواكب التقدم الحضارى للحياة وقد تجلى ذلك فى شخصية (الشيخ عبد العظيم) الذى ترعرع فى ريفنا الساحر وحفظ القرآن الكريم ونال الشهادة الابتدائية الأزهرية فقط ومع ذلك غذته وجدانياً وفكرياً واجتماعياً .

---

(١) مع المجتمع ص١٦٥ : ١٦٨ .

ويبرز الكاتب ما حدث للشيخ عبد العظيم عندما ترك الريف وجاء إلى القاهرة حيث تبدلت أحواله فخلع زيه وانغمس فى اللهو وأصبح سخرية لأصحاب العقول الخاوية الذين يقدرون الناس بدرجة مهاراتهم فى إعداد الحفلات الصاخبة والتباهى بأساليب المأكل والمشرب والمبالغة فى نطق الكلمات مما أثار حفيظة الشيخ عبد العظيم فصرح صرخة الرفض لهذا المجتمع الغريب الذى تنغمس فيه القاهرة وعاد إلى القرية ليجد بين أحضانها الأمان والألفة والود وينعم بالجو . الأسرى السعيد .

وشخصية (الشيخ عبد العظيم) رمز لشخصية ابن البلد المصرى الأصل الذى يهتم بحفظ القرآن الكريم وتحصيل المعارف الدينية ويتسم بالمروءة والشهامة والكرم وحب الخير ويتمسك بالعادات والتقليد التى تدل على الأصالة المصرية .

والمقال يرمز إلى تحذير أبناء الشعب المصرى من الانغماس فى حياة تخالف طبيعتهم وتنافى قيمهم الأخلاقية .

وقد أعجبنى من الكاتب تصويره لكيفية صحوة الشيخ عبد العظيم وعودته إلى طريق النور طريق الحق ورفضه لمفاهيم مسمومة تحت اسم الحضارة والمدنية ومرجع ذلك تشبعه بتعاليم القرآن الكريم وثقافته الأزهرية التى ارتشفها فى مرحلته التعليمية ولعل كاتبنا يعلن للدنيا أن غرس القيم الأخلاقية عن طريق المعاهد التعليمية الأزهرية التى تهتم بالمواد الإسلامية والعلمية سبيل الوقاية من الانحرافات الوجدانية والاجتماعية والفكرية والدليل على ذلك ما حدث للشيخ عبد العظيم الذى جذبته الأضواء الكاذبة ولكنه سرعان ما استيقظ وعاد لنور الحق لتمتعه فى الأصل بنور القرآن الكريم

ونور الدراسات الإسلامية مما جعله ينتصر على شيطان اللهو والمتأمل فى قول الكاتب :

(وبعد أيام عاد الشيخ عبدالعظيم إلى قريته وعاد إلى [العمامة والجبة والقفطان] .. وعاد إلى معاونة المحتاجين والبائسين) يدرك أن الأسمر يرمز لصحوة اجتماعية ودينية وفكرية سادت المجتمع المصرى تمثلت فى ثورة يوليو ١٩٥٢م .

كما يدرك المتلقى أن شخوص المقال رمزية توحى بما ساد المجتمع المصرى من اضطراب ثم صحوة عارمة ترمى إلى التصحيح .

والمقال اجتماعى وصفى جيد بين كيف داعب الأمل وجدان الشيخ عبد العظيم عبر وهم كاذب وكيف داعبته جمال حياة الأسرة فعاد إلى أحضانها لأنها الأصل فهى أحضان مصر الحانية .

ويعقب الأسمر بعد مقال الشيخ عبدالعظيم بمقال (غرفة الأمير !!) قال فيه :

(أرسل لى صديق ظريف من القاهرة – وكنت حينئذ بالمصيف بالأسكندرية لأبحث له عن غرفة خالية بالمصيف وبعد بحث شاق وجدت له غرفة ببعض الفنادق المشهورة وأخبرته تلغرافيا فحضر ورأى الغرفة وسر منها وقلت له إن من حسن الحظ أن الأمير الشرقى (فلاناً) ينزل كل عام فى هذه الغرفة وقد غادرها من يومين راجعاً إلى بلده بعد أن قضى مدة مصيفه .

ثم تركت صديقى وعدت له فى صباح اليوم الثانى فرأيته يبدو عليه التعب فقلت له هل حدث شىء ؟! فقال لا ... شىء بسيط ... !! قلت وما هو

هذا الشيء البسيط ؟! فقال لم أسهر ليلة أمر وآثرت أن أنام واستيقظت في طلوع الشمس وفتحت نوافذ الغرفة أملأ صدري بالهواء وأنظر إلى البحر وأشعلت (سجارة) الصباح التي تعودت أن أشعلها حينما أقوم من نومي وحينما كنت أنظر إلى دخانها وهو يتصاعد أمامي تذكرت أن هذه الغرفة كان ينزلها الأمير الشرقي (فلان) كما أخبرتني فتملكني شيء من الزهو والخيلاء لإقامتي في غرفة كان يقيم بها هذا الأمير ثم عرضت لي فكرة غريبة قمت على أثرها إلى باب الغرفة ونوافذها فأغلقتها جميعاً وأحسست من نفسي نشاطاً لا عهد لي به وقلت ما دام الأمير كان نزيل هذه الغرفة فمن المرجح جداً أن يكون نسي شيئاً في دولاب الغرفة جوهرة مثلاً أو صرة من الدنانير على الأقل ! وفتشت الدولاب الصغير ودولاب الزينة فلم أجد شيئاً.. وأخيراً عدت إلى نفسي ولعنت شيطان الطمع فإنه كثير العبث بالنفوس وفتحت الباب والنوافذ ورحت انظر إلى البحر في تأمل طويل وقلت إن في النظر للبحر ما يغني عما قد يكون تركه الأمير ثم عاد لي شيطان الطمع مرة أخرى فقمت إلى الباب والنوافذ فأغلقتها مرة ثانية واتجهت نحو السرير وقلت إن المراتب أحياناً تكون مخابيء للجواهر والنقود فأنزلت المراتب عن السرير بقوة لا أعرفها في نفسي وقد كانت المراتب ثقيلة لطولها وعرضها ومكثت أجسها بيدي جس الطبيب للمريض فلم أغادر شبراً منها حتى فحصته فحصاً دقيقاً وبعد كل هذا لم أجد شيئاً ولم أجد في نفسي القدرة التي كانت موجودة حينما أنزلت هذه المراتب عن سريرها فعلمت أن الأمر يخلق القوة وأنه سبيل من سبل الحياة وعلمت أن الياس يخلق الضعف وأنه سبيل من سبل الموت !! ودققت الجرس فجاء الخادم فقلت له افتح النوافذ ففتحها ثم قلت له أعد هذه المراتب كما كانت فأعادها وهو يعجب وسألني هل وجدت في السرير شيئاً

يا سعادة البيك ؟ يقصد برغوثاً مثلاً فقلت له لا شيء مع الأسف ... لا شيء(١).

يصور مقال (غرفة أمير) خواطر نفسية عاشها صديق محمد الأسمر ونقلها بدقة له مما جعل كاتبنا يسطر هذه الكلمات ليكشف لنا عن مضمون المقال الذى تجلى فى المقولة الآتية (إن الأمل يخلق القوة وأنه سبيل من سبل الحياة وعلمت أن اليأس يخلق الضعف وأنه سبيل من سبل الموت) والمقولة تهمس فى أذن كل مصرى أن مفتاح الحضارة والمدنية يكمن فى الأمل وأن الأمل كنز العطاء وسر الحياة وأن اليأس النيران الى تبيد الحياة دخانها رماد الفناء .

والمقال دعوة للأمل الذى يدعو للعمل الجاد المثمر ويحذر من اليأس معلناً أنه من أوهام الشيطان وأن الإرادة والتحدى والعزيمة من النعم التى غرسها الله فى عباده لكى يحققوا سبل سعادتهم ورقيهم وفوزهم فى الدنيا والأخرة .

والمقال هادف جاد جيد الصورة متناسق الفقرات .

ويصل ركب (من وحى باب الدعابة) إلى مقال بعنوان (بين الإمام يحيى) قال فيه :

(صديقنا صاحب هذه القصة كاتب من كتاب مصر وعلم من أعلام أدبائها اتصل به سكرتير كبير يدعوه لمقابلة الأمير وتمت المقابلة وطلب منه الأمير إنجاز عمل أدبى ثم ودعه الأمير ثم ودعه سكرتير الأمير وفهم صديقنا من سكرتير الأمير أن المكافأة ستكون طيبة .

---

(١) مع المجتمع ص١٦٩ : ١٧٠ .

وتفرغ الصديق لإنجاز ما طلبه الأمير وبحث فى الكتب هنا وهنالك واستمر البحث واستمرت المراجعة أياماً وشهوراً وبعد ذلك جمع الصديق جهوده المتواصلة من البحث والمراجعة ونسخها كتاباً ثم حمل الكتاب وذهب إلى قصر الأمير الكبير وقابل سكرتير الأمير الكبير وسلمه الكتاب الذى طلبه الأمير الكبير ليرفعه إلى الأمير الكبير !!

ومرت الأيام وصديقنا تداعبه الآمال انتظاراً لمكافأة الأمير ثم مرت الأسابيع ثم الشهور والآمال لم تتحقق وكان الصديق يقول لنفسه ليطمئنها إن الأمراء شواغلهم كثيرة وأعمالهم متلاحقة وإن مع اليوم غدا وودع الصديق يوماً بعد يوم واستقبل غداً بعد غد ثم ضاقت نفسه لطول ما انتظر واعتراه شىء من الضجر ولكن كان يسرى عنه حسن ظنه وثقته بالأمير الكبير .

وفى يوم من الأيام جاء الفرج فاتصل به سكرتير الأمير وحدد له موعداً لمقابلة الأمير .

ملأت الفرحة قلب صديقنا لأنه سيقابل الأمير الكبير .. واستدان صديقنا ثقة بما سيناله من الأمير الكبير .. وابتهجت أسرته وابتهج له أصدقاؤه لأنه سيقابل الأمير الكبير ... وسينال مكافأة الأمير الكبير . وقال صديقنا الأمير الكبير وأثنى عليه الأمير الكبير ثم أذن له الأمير الكبير فى الانصراف وقال له مر على السكرتير قبل انصرافك .

ومر صديقنا على السكرتير والآمال تغمره وقابله السكرتير مرحباً به كل الترحيب مثنياً عليه كل الثناء ذاكراً له إعجاب الأمير بكتابه الذى أنجزه للأمير وصديقنا يقول العفو العفو لم أصنع شيئاً كل هذا من فضل الأمير ومن تشجيع الأمير !

ثم قال سكرتير الأمير للصديق إن الأمير حفظه الله جاءت له هدية (بن) من جلالة الإمام يحيى ملك اليمن . وقد رأى الأمير عرفاناً لجهودك وإعجاباً بأدبك إهداء هذا (المقطف) من البن إليك ؟ وناوله (المقطف) فتناوله الصديق وهو ذاهل وخرج وهو يردد في صوت كأنه حشرجة المحتضر (بن الإمام يحيى ، بن الإمام يحيى ، بن الإمام يحيى) وما زال يردد ذلك حتى وجد نفسه على جسر من جسور النيل فرفع يده بالمقطف ثم قذف به في النيل وهو يقول (وادى بن الإمام يحيى) (مع السلامة يابن الإمام يحيى) كفاية علينا الذهاب إلى الأمير الكبير .. ثم الإياب من عند الأمير الكبير .. !!(١) .

يصور مقال (بن الإمام يحيى) مداعبة الآمال والخواطر النفسية لكاتب عظيم من كتاب مصر وقد سطر الأسمر خلجات الكاتب في أسلوب قصصي طريف أبرز فيه بزوغ نور الأمل كما صور ساعات وأيام وأسابيع الانتظار ثم كشف ما نزل بالصديق الكاتب الأديب عندما قدم له السكرتير هدية الأمير له موضحاً الحالة النفسية التي أثرت على سلوكه في الصورة الحية الآتية :

(فتناوله الصديق وهو ذاهل وخرج وهو يردد صوت كأنه حشرجة المحتضر (بن الإمام يحيى ، بن الإمام يحيى ، بن الإمام يحيى) .. وما زال يردد ذلك حتى وجد نفسه على جسر من جسور النيل فرفع يده بالمقطف ثم قذف به في النيل وهو يقول (وادى بن الإمام يحيى) .... فقد تجرع الأديب مرارة الحرمان وذاق تلاشي الآمال واستطاع الأسمر ترجمة هذه الحالة الوجدانية بتصوير الصوت الذي يوحي بمرارة الحسرة في المقولة الآتية

---

(١) مع المجتمع ص١٧١ : ١٧٢ .

(وهو يردد فى صوت كأنه حشرجة المحتضر) كما صور عمق الآلام فى التعبير (فرفع يده بالمقطف ثم قذف به فى النيل) وكلمات (بن الإمام يحيى) تصوير صادق لتمكن الآمال فى النفس وقدرتها على مداعبة الخيال والوجدان كما أنها تبرز وجود ظاهرة الهبات والعطايا للأدباء والكتاب التى عرفت فى أزهى عصور الأدب ولعل الأسمر ينادى بضرورة تجهيز هيئة خاصة بالأدباء والشعراء تهتم بأمورهم الاجتماعية والوجدانية حتى لا تداعبهم آمال عاصفة ترمى بهم فى وادى الدمار .

وتتحرك قافلة من وحى الدعابة لتصل إلى مقال(المدالية الذهبية) الذى تناول فيه سيرة عبد الرءوف أفندى الشاعر قال فيه :

(عبد الرءوف أفندى شاعر متوسط الحال لا هو بالغنى ولا هو بالفقير ولكنه مسرف وكان إسرافه هذا يجعله دائماً أقرب إلى الفقراء .

وكان عبد الرءوف أفندى كثير الدخول فى المسابقات الشعرية كثير الظفر بجوائزها المالية وكانت هذه الجوائز تساعده على إصلاح أحواله المعيشية إن لم يكن كل الإصلاح فبعض الإصلاح وعلى كل حال فقد كانت هذه الجوائز تدخل عليه الكثير من البهجة والسرور .

وفى يوم من الأيام أعلنت شخصية كبيرة لها اتصال بالهيئة العليا الحاكمة أن لجنة أدبية ألفت للنظر فيما يصوغه الشعراء لمناسبة من المناسبات السعيدة ونشرت هذا الخبر كل الصحف .

واختلى عبد الرءوف أفندى بشيطان شعره وراح يشحذ قريحته ويسبح بفكر هنا وهنالك ثم يرص الكلام بعضه إلى بعض وكلما فرغ من بناء بيت عاد إلى بناء بيت آخر حتى فرغ من بناء القصيدة كلها فى أسبوع .

وقد كان أثناء هذا العناء المتواصل ليلاً ونهاراً يداعبه الأمل ويبتسم له خيال الجائزة المالية فيخفف عنه ذلك ما يعانيه فى تنميق أبياته وزخرفته الزخرفة الفنية . ثم كتب القصيدة بخط حسن وألقاها فى صندوق البريد بعد أن عنونها بعنوان لجنة المسابقة .

ولما كان عبد الرءوف أفندى واثقاً من نفسه كل الثقة مطمئناً إلى شعره كل الاطمئنان فقد أخذ يحلق بخاطره فى قيمة الجائزة المنتظرة ويقيس على الأشباه والنظائر فى المسابقات السابقة ثم قرر أنها قد تكون مائة جنية وربما زادت على المائة جنيه وهى لا تقل بحال من الأحوال عن خمسين جنيهاً !!

ومر شهران على ذلك وأعلنت الصحف أسماء الفائزين وكان عبد الرءوف أفندى فى أوائلهم كما أعلنت أنه نال (المدالية الذهبية) فى هذه المسابقة .

وقرأ عبد الرءوف أفندى هذا الخبر ثم عاد فقرأه ثم عاد فقرأه وهو يقول لنفسه ما هذه (المدالية الذهبية) ؟!

وأين المكافأة المالية ؟! وأخيراً أقنع نفسه أنه لابد من أن هناك مكافأة ماليةولكن الجهات المسئولة منعت نشر هذه المكافآت حفظاً لكرامة الشعراء!! وظل عبد الرءوف أفندى ينتظر الفرج وفى يوم من الأيام جاءته دعوة إلى حفلةوكانت الحفلة تحت رياسة الشخصية الكبيرة التى دعت إلى هذه المسابقة.

فاطمأن عبد الرءوف أفندى وذهب إلى هذه الحفلة وبعد انتهائها دعاه رئيس الحفلة إلى مقابلته وأطرى الرئيس شعره وعبد الرءوف افندى ذاهب عن هذا الإطراء غارق فى غيبوبة آماله .. تتراءى له (المدالية الذهبية) وهى تبتسم !! وتتراءى له الجائزة المالية وهى ترقص !! ... وبعد دقائق فتح

الرئيس درجاً من أدراج المكتب الذى كان يجلس أمامه وأخرج منه علبة مستطيلة من القطيفة وناولها عبد الرعوف أفندى فتناولها شاكراً ودسها فى جيبه ثم استأذن فى الانصراف كاتماً فرحته ضابطاً عواطفه خشية أن يبدو عليه شىء من السرور بهذه العلبة التى تحتوى على المدالية الذهبية وعلى خمسين جنيهاً على الأقل .. وخرج عبد الرعوف أفندى وهو يتباطأ فى خطاه يتصنع الوقار الذى يليق بشاعر كبير لا تستخفه الجوائز !! حتى إذا أحس أنه غاب عن أنظار الرئيس هرول مسرعاً إلى الشارع وكان الوقت مساء ثم زاد فى هرولته نحو مصباح من مصابيح هذا الشارع وتلفت يميناً ويساراً فلما تحقق من أنه ليست هناك عين تراقبه أخرج علبة القطيفة وفتحها بيد مرتعشة وأجال نظره فيها فلم يجد غير المدالية الذهبية فخيمت عليه سحابة كثيفة من خيبة الأمل وغمرته لجة عاتية من الكآبة وركب الترام إلى منزله وهو لا يدرى ثم وصل إلى منزله وهو أيضاً لا يدرى !!

عرفت زوجته التى كانت تنتظره ما يحيق به وأدركت أن الجائزة المالية التى كانت تنتظرها هى أيضاً لم تتم فقالت له تسرى عنه صحتك خير من ألوف الجنيهات ، فلم يتكلم وناولها العلبة وهو صامت ففتحتها فوجدت قطعة كبيرة مستديرة صفراء براقة وقال لها وهى تتأملها هذه هى يا سيدتى المدالية الذهبية التى كتبت عنها الصحف !!! ..... ثم طرأت له فكرة أشرق لها وجهه بعض الإشراق وقال لزوجته ناولينى هذه المدالية فناولته إياها فأخذ يرنها على بلاط الغرفة مرات كثيرة وقال لزوجته إنها ذهب فقالت له : وهل تشك فى ذلك ؟! ألم يقولوا عنها إنها المدالية الذهبية ؟! وأخذت هى الأخرى ترنها على بلاط الغرفة وظلا هكذا ساعة من الزمن يتناوبان رن المدالية على البلاط.... وفاتح عبد الرعوف أفندى زوجته فى أنه سيبيع المدالية غداً لأحد

الصائغين .. فقالت له : هذا لا يليق .. فقال لها يليق أو لا يليق لابد من بيعها .. إنها على أقل تقدير تساوى عشرين جنيهاً من الجنيهات الورقية عشرة لك وعشرة لى .. فسكتت وقال : أنت تعرف أكثر منى ما تراه صالحاً فأفعله !! وأصبح الصباح وذهب عبد الرءوف أفندى إلى وظيفته وكان كاتباً ببعض المصالح الحكومية وكان له زميل بهذه المصلحة اسمه السيد أفندى أكثر من عبد الرءوف أفندى بؤساً وكان عبد الرءوف أفندى يثق به فناوله (المدالية الذهبية) وأسر إليه قصتها وكلفه أن يبيعها ...

وكان السيد أفندى يعتقد فى نفسه الدراية بالمعادن فأكد لعبد الرءوف أفندى أنها ذهب وإن كانت غير مدموغة دمغة الذهب !!

وقام السيد أفندى يحمل المدالية إلى سوق الصائغين وظل عبد الرءوف أفندى ينتظر عودته وكانت الدقائق تمر به مر السنين ..

وعاد السيد أفندى وهو عابس الوجه .. ومال على أذن عبد الرءوف أفندى وقال له وهو يبلع ريقه هذه المدالية نحاس!! فصعق عبدالرءوف أفندى.

ثم استعاد كبرياءه الشاعرى وقال له ولماذا لم تبعها ؟! .. فقال له قدروها بثلاثة قروش ! فقال له عبد الرءوف أفندى فى هدوء المستسلم للمقادير بعها بالقروش الثلاثة وهات لنا اثنين (ساندوتش بالفول المدمس) وعاد السيد أفندى بالساندوتش ، ثم أخذ يتناولانه فى صمت عميق(١) .

ارتشف مقال (المدالية الذهبية) معينةمن أفكار المقال السابق له (بن الإمام يحيى) حيث عالج كل منهما كيفية تقدير الآثار الأدبية المتميزة مبيناً طبيعة الشعور النفسى للأديب الذى تداعبه الآمال فى هبة مالية تنعش حياته

---

(١) مع المجتمع ص١٧٣ : ١٧٥ .

وكيف تتحول هذه الآمال إلى سراب يحفر فـى نفس الأديـب حسـرة الحرمـان ومرارة الإخفاق .

فقد كانت هدية الأديب فى مقال (بن الإمام يحيى) المقطف الذى يفوح برائحة البن وكان مصيرها طرحها فى النيل أما هدية الشاعر فقد كانت المدالية الذهبية لتى كان مصيرها البيع بقروش ثلاثة .

ويدرك القارىء للمقالين أن الهدف منهما دعوة صريحة لتصحيح أوضاع تقدير الأدباء والشعراء فهم مرآة لحضارة الأمة ودلالة على درجة رقيها وعنوان سموها كما أنهم لسانها الإعلامى الذى يترجم درجة شرفها وتميزها الإنسانى العالمى .

ومقال (المدالية الذهبية) اجتماعى ينم عن تجربة ذاتية ولعل شخصية (عبدالرءوف أفندى الشاعر) هو محمد الأسمر نفسه .

والمقال واضح الصور صادق الأحاسيس يكشف النقاب بجلاء عن الأوضاع الاجتماعية التى يعانى منها طبقة الكتّاب والشعراء وقد صاغ المنشىء أفكاره بتناسق تعبيرى وتناسب لفظى يوحى بدلالات اجتماعية ووجدانية واضحة الملامح .

ثم يسطر الأسمر مقاله الاجتماعى (معركة رهيبة) يبين فيه كيفية سلوك صديقه عبد السميع مع المواقف البسيطة كيف يعقدها ويصعدها لتصبح مشكلة تثير غضبه جاء فيه :

(عبد السميع أفندى) رجل خفيف لطيف المعاشرة ولكنه يبالغ أحياناً فى تجسيم بعض توافه من شئون الحياة فيضيق بها صدره فمثلاً إذا اشترى (بطيخة) ولم يجدها (حمراء حلوة) ثارت ثائرته على الدنيا وعلى خراب

ذمم البائعين .. ثم يأخذ قطعة من (البطيخة) بعد أن يلفها فى ورقة لفاً أنيقاً ويذهب بها إلى بائع البطيخ وينتحى به ناحية بعيدة من الدكان ويفتح الورقة ويريه قطعة البطيخ وهو يقول للبائع هل هذا يصح ؟! هل هذه هى الأمانة ؟! هل هذه هى الثقة التى وضعتها فيك ؟!

كل ذلك فى صوت مرتفع يسمعه جميع من فى الدكان وعبد السميع أفندى يظن أنه إنما يكلم بائع البطيخ بصوت منخفض !! وبائع البطيخ يعرف طباع عبد السميع أفندى فيعتذر له عن هذا الخطأ غير المقصود ويبالغ فى اعتذاره .... ويقول له إن التجار الكبار للبطيخ هم الذين يخدعوننا فيما يبيعونه لنا ... فتثور ثائرة عبد السميع أفندى على هؤلاء التجار الكبار ويرميهم بكذا وبكيت .... ويدافع أحد المشترين عن التجار الكبار للبطيخ ويلقى الذنب على المزارعين فيترك (عبد السميع أفندى) الحديث عن كبار التجار ويتكلم عن المزارعين ويصفهم بأنهم علة العلل وأنهم سبب كل بلاء ثم يعتذر لبائع البطيخ ويستغفر الله عما اتهم به كبار تجار البطيخ !!

تلك هى أحوال (عبد السميع أفندى) مع التوافه من شئون الحياة وفى صباح يوم من الأيام جاء إلينا وهو شاحب الوجه يبدو عليه أثر الإجهاد فلما سألناه عن سبب ذلك قال كانت ليلة البارحة ليلة ليلاء !!

قلنا له خير إن شاء الله ماذا جرى ؟

فاعتدل فى جلسته وبدا عليه الاهتمام ثم قال .. دخلت أمس غرفة نومى واستلقيت على السرير وبعد ساعة نمتها نوماً هادئًا استيقظت على صوت (خرفشة) بالغرفة فأضأت النور وأرهفت أذنى هنا وهنالك فلم أسمع شيئاً فقلت لعل ما سمعته وهم من الأوهام ثم عدت إلى النوم .. ولكنى استيقظت على

صوت (الخرفشة) ذاتها فأضأت النور مرة ثانية وأرهفت أذنى هنا وهنالك حتى عرفت مصدر الصوت فقد كان مصدره ورق الصحف المتراكم فوق دولاب الملابس .... وتناولت (بخاخة الفلت) وصوبتها ناحية ورق الصحف وأمطرت هذه الناحية بالفلت...ثم سكتت (الخرفشة) وبعد ذلك ظهر اللعين!!.. نعم ظهر اللعين لم يكن ثعباناً كما كنت أتوقع ولكنه (صرصار!!) ... صرصار جرىء مستبسل خرج من الورق وهو ينفض عن أجنحته (الفلت) ومشى على طرف الدولاب وكأنه يتحدى !! والحقيقة التى لا ريب فيها أننى حينما فوجئت برؤيته دخلنى منه شىء من الرهبة خصوصاً بعد أن قفز من الدولاب قفزة بهلوانية فإذا به فوق الحائط القريب من السرير

....

كان يقص علينا (عبد السميع أفندى) هذه القصة ونحن نكتم الضحك خشية أن ينقطع إكمالها وبعد أن فرغ منها ضحكنا كثيراً ونحن نتظاهر أننا نضحك من هزيمة (الصرصار) اللعين .... ثم أخذنا نفيض فى الحديث عن خطورة (الصراصير) من الناحية الطبية وأنها ناقلة للأمراض لترضى بذلك (عبد السميع أفندى) ونضخم له جلال انتصاره ... فقال لنا فى غضب واضح .. طب إيه وأمراض إيه ؟! (الصرصار فى ذاته !! شىء فظيع .. ثم قام (عبد السميع أفندى) منصرفاً إلى منزله ليستريح !!(١) .

والمقال دعوة اجتماعية تهدف إلى صرف الفكر والطاقة إلى ما يثمر ثمار الخير على المجتمع المصرى كما ترمى إلى أن بذل الفكر فى التوافه من شئون الحياة يتسبب فى تعطيل الحركة الإنتاجية التى ترقى بحضارة مصر .

---

(١) مع المجتمع ص١٧٦ : ١٧٩ .

ويكشف المقال أن المداعبة النفسية التى شغل بها (عبد السميع أفندى) مداعبة فارغة لا تسمن ولا تغنى من جوع فقد ضاع بها وقته وأرهق فكره وأهمل عمله .

ويجد المتلقى في روضة (من حى الدعابة) مقال بعنوان (مع الشيخ عوض) يعالج فيه أهمية استثمار الوقت بما يعود على الفرد والجماعة بالنفع.

(قابلته فى صيف عام من الأعوام بالأسكندرية عند صديق لى وأول ما لفت نظرى إليه لحيته الطويلة وعمامته الكبيرة .. وبعد ذلك لفت نظرى إليه كلامه الغريب فقد سمعته يقول لصديقى يا سيد أحمد أنا نفسى فى (حلة بذنجان محشى) أدخل بها فى بيت فيه سبع غرف بسبعة مفاتيح كلما دخلت غرفة أقفلتها على حتى أدخل الغرفة السابعة وبعد ذلك آكل (حلة البذنجان)... فنظرت إلى صديقى فأشار إلى بعينه أن التزم الصمت فسكت ثم قال له صديقى ... وليه لزوم التعب ده (يا شيخ عوض) كفاية غرفة واحدة بمفتاح واحد فقال له الشيخ عوض وبعدين معاك يا سيد أحمد على كل حال هذا رأيى ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ ثم انصرف هادئاً وهو يقول مترنماً : (آه يا جنان يا جنان يا جنان ..... وادى أوان البيدنجان) وسألت صديقى بعدما انصرف الشيخ عن حقيقة أمره فقال وهو يبتسم : هذا رجل طيب يحفظ القرآن ، ظريف الحديث وفيه ذكاء فطرى تعتريه فى بعض الأحايين هذه الحالة التى تراها .... ومرت ثلاثة أعوام قابلت بعدها الشيخ عوض بالأسكندرية فسلمت عليه وعرفته بنفس وأخبرته أننى كنت قابلته عند السيد أحمد وعرضت عليه أن نشرب معاً فنجاناً من الشاى على مقهى من مقاهى البحر فقبل ولما ذهبنا إلى المقهى اخترت مكاناً بعيداً عن الناس .. وشربنا الشاى ... وابتدأت اتحدث معه حديثاً خفيفاً ورأيته يخلط حديثه فى بعض

الأحيان بتعليقات غير مألوفة ولكن حديثه كان خفيفاً على نفسي مستظرفاً لدي.

قلت له في خلال الحديث هلى تزوجت يا شيخ عوض ؟ فقال الزواج شركة منزلية راس مالها التعاون والأمانة والإخلاص وأنا لا استطيع التعاون مع غيري وأخشى أن يكون شريكي فاقداً للأمانة أو فاقداً للإخلاص ... وعلى كل حال هذا رأيي ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

قلت له : إذا ليس لك أولاد ؟ فقال : الأولاد في أكثر الأحيان متاعب ولكنها متاعب يحبها الكثير من الناس .. فقلت له إنهم من زينة الحياة الدنيا فضحك الشيخ عوض كثيراً ولا أدري لماذا ضحك ثم وضع عمامته الكبيرة على كرسي بجانبه وقال اسمع يا سيدي ساعات تشوف زينات متعلقة على بيت واللي في البيت في غاية الهم والنكد .. ثم تناول عمامته ووضعها على رأسه وهو يقول : وعلى كل حال هذا رأيي ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

فقلت له : لو جربت (الحب) يا شيخ عوض لتزوجت ولكان لك أولاد فقال لي حب إيه وهباب إيه .. يا أستاذ لا ينشغل بالحب إلا من ليس لديه ما يشغله .... أصل إحنا يا أستاذ في الحقيقة (بلاليص) و (البلاص) ما دام مليان بحاجة موش ممكن يتسع لحاجة تانية فالعالم مثلاً (بلاص علم) والفنان مثلاً (بلاص فن) والرجل المشغول يجمع المال (بلاص مشغولية).. والحب زي الهواء لما يمر على راجل فاضي يروح ماليه يبقى (بلاص حب).. وعلى كل حال هذا رأيي ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .....

فقلت له : يا شيخ عوض أنت بهذه العقلية الواسعة تصلح أن تكون حاكماً لأمة من الأمم .. فقال بعدما مشط لحيته بأصابعه ونظر إلى نظرة

طويلة وقال : يا سلام عليك يا أستاذ يا سلام ... دا أنا مرة اشتريت (عشرين كتكوت) وقلت أربيهم ما نمتش يا أستاذ ... عاوزين أكل وعاوزين شرب وعاوزين المحافظة عليهم من القطط ومن الحدادى ومن العرس والكتكوت ده نقر الكتكوت ده والكتكوت ده عيان والكتكوت ده واخد على خاطره والكتكوت ده ما نيش عارف ماله ... حاجة تطير العقل ومحسوبك عقله خفيف شوية .. آخر ما غلبت منهم يا أستاذ فرقتهم على الجيران !! ويبقى حضرتك بعد كده عاوزنى أكون حاكم لأمة من الأمم .

أنظم لها مساكنها وأكلها وشربها وأحفظ الأمن فيها وأحميها من أعدائها.. لنفرض أن هذه الأمة (عشرون مليوناً) من الناس فكيف أقوم بأمرها وأنا لم استطع أن أقوم بأمر عشرين كتكوتاً ؟.. أنا رأيى يا أستاذ أن أشق مهنة فى الدنيا هى مهنة الحكم ... وعلى كل حال هذا رأيى ..

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ .

فقلت له كلامك يا شيخ عوض يميل إلى العدالة فى الاستنتاج أنت تصلح أن تكون قاضياً !! فقال هذا صحيح ولكن للقضاء نواح تكرهنى فيه منها كثرة المتقاضين ، وهى تستلزم كثرة القضايا وأنا وقتى ضيق .. ومنها ما قد يحدث فى بعض القضايا من شعورى الداخلى بتزييف المستندات المقدمة فيها ولكننى مضطر أن أحكم بالظاهر ومنها الضمير ومحسوبك له ضمير لا ينام والإنسان معرض للخطأ وربما أخطأت فيوقظنى من نومى فى هذه الحالة ضميرى الذى لا ينام فلا أنام وأنا أحب النوم !! ثم قال فى لهجة حازمة : يا سيدى الأستاذ أنا لا أصلح للقضاء ... وعلى كل حال هذا رأيى.. ﴿ فوق كل ذى علم عليم ﴾ .

فقلت له يا شيخ عوض أنت تلعب بى فى حديثك ... أنت تصلح أن تكون محامياً .. فانتفض الشيخ عوض انتفاضة أزعجتنى وقال يا شيخ فال الله ولا فالك .. ليه كدا يا أستاذ ؟ فقلت له إلى هذا الحد تكره المحاماة ؟ فقال لا أكرهها ولكنها مزعجة ، مزعجة جداً كفاية متاعب الزباين ، وهروبهم من دفع الأتعاب وهروبهم أحياناً من دفع الرسوم وكفاية أن المحامى طول النهار أمام المحاكم يترافع وفى الليل يستقبل المتقاضيين ويكتب المذكرات ويعيد المستندات ويكيف الوقائع التكيف القانونى ولا تنس جريه فى اليوم الواحد من محكمة إلى محكمة وقد لا يتمكن من حضور كل قضاياه مما قد يؤدى إلى شطب بعض القضايا وخسارة البعض الآخر ولا تنسى أيضاً ما يلاقيه من خصوم موكليه من شتائم وتهديدات ... المحامى يا أستاذ لا يستريح فى الليل ولا يستريح فى النهار وبعض هذا كله إما أن يقبض .. وإما أن لا يقبض !! المحاماة يا أستاذ ... متعبة جداً ... وعلى كل حال هذا رأيى ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ فقلت له يا شيخ عوض أنت رجل كامل الإنسانية ومثلك لو كانت طبيباً لأدى للإنسانية الشىء الكثير .. فقال أنا معك فى ذلك لكن أنا أحب أن يكون وقتى ملكاً لى والطبيب لا يملك وقته يطلب فى النهار ويطلب فى الليل ويطلب وهو نائم ولا يقبل منه عذر ثم هو بعد عمله فى العيادة لابد له من قراءة كل ما تخرجه المطابع خاصاً بالطب ليتابع تطورات الأمراض وتطورات العلاج وهو يعيش فى جو الأمراض والمرضى ومنهم البائسون الذين لا يجدون ثمن الدواء الذى يصفه لهم بل منهم من لا يجد ثمن الغذاء فتعكس كل هذه الظلال عليه .

- أنا دارس عربى كويس يا أستاذ فلا تندهش إذا وجد فى كلامى بلاغة عربية - أقول لك تنعكس كل هذه الظلال على الطبيب وعلى حياة

الطبيب فيعيش فى حياة قاتمة الألوان وأنا أحب التفريح يا أستاذ .. أنا لا أصلح طبيباً .

وعلى كل حال هذا رأيى ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ ... ثم صفق بيديه فجاء (الجرسون) فقلت له إن الشيخ يمزح معك .وتذكرت(حلة البذنجان) والحالة التى تعترى الشيخ عوض .

ولما أحس الشيخ عوض أننى سأقترح عليه أن يكون شيئاً آخر غير الذين ذكرتهم له قال لا تتعب نفسك .... لقد فكرت قبلك فيما أصلح له واستعرضت ما ذكرت وما لم تذكر فوجدت أن لكل شىء متاعبه .... وأخيراً رأيت أن أحسن شىء لى هو أن أكون (بواب عمارة) جلسة مريحة ... وهواء من كل مكان ولكنى تذكرت نداء الساكنين علىّ وكثرة طلباتهم .. هذا عاوز فول مدمس وهذا عاوز سجاير وهذا عاوز كذا وهذا عاوز كيت إلى آخر هذه الطلبات التى لا تنتهى ثم تذكرت تأخر الساكنين فىَ دفع الأجرة وتنبيه صاحب العمارة علىّ المرة بعد المرة فى تحصيلها والساكنون معذورون وصاحب العمارة معذور ولكن الذى لا يعذره أحد هو (بواب العمارة) فالساكنون لا يرضون عنه حينما يطالبهم بالأجرة وصاحب العمارة غير راض عنه لأنه لم يحصل الأجرة ثم تذكرت (مسح السلم) والمقشة والخيشة والجردل . ثم تذكرت بعد كل هذا قيامى للساكنين وهم داخلون وقيامى لهم وهم خارجون ثم القعود بعدان يدخلوا ثم القعود بعد أن يخرجوا... (قيام قعود ، قعود قيام) (قيام قيام ، قعود قعود) (قائمقام قاعد قعود- قاعد قعود قائمقام) وظل الشيخ عوض يردد هذه الألفاظ ترديداً سريعاً ويخلط بينهما خلطاً عجيباً وهو فى أثناء ذلك يلعب عينيه وحاجبيه فضحكت ضحكاً شديداً مما رأيته منه حتى كاد يغشى على من كثرة الضحك ... ولكنه انقلب

بعد ذلك عابساً صامتاً ثم نظر إلى نظرة غاضبة مزعجة فحبست الضحك فى صدرى ... ثم قال لى وهو يكبس عمامته فوق رأسه بيديه الاثنين كبساً عصبياً أسمع يا أستاذ ... (لا أريد إلا أن أكون الشيخ عوض :) ثم قام وهو يقول وعلى كل حال هذا رأيى ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾(١) .

يدرك متذوق مقال (مع الشيخ عوض) أهداف الكاتب الكامنة خلف السطور حيث يتبين له أن شخصية (الشيخ عوض) شخصية رمزية اتخذها الأسمر أداة حية لكشف النقاب عن الأصول الاجتماعية والأخلاقية والوجدانية لكافة الوظائف كما يبين من خلال الحوار الحى الذى عقده بينه وبين الشيخ عوض أن الحياة تتكون من العقل والعاطفة الأخذ والعطاء وأن ضابط ميزانها الشعور الواعى بالمسئولية ويعلن الكاتب بلسان الشيخ عوض أن تكامل دائرة الحياة تشرق من صحة العلاقة بين الفرد وأسرته ثم بين الفرد ومجتمعه وقد أحسن الكاتب فى سرده لأحداث تربية الشيخ عوض(الكتاكيت) وليست القضية متعلقة بهذه الحادثة إنما المراد مخاطبة الحاكم بعظم المسئولية ولهذا قال الأسمر بلسان الشيخ عوض :

(.... يبقى حضرتك بعد كده عاوزنى أكون حاكم لأمة من الأمم أنظم لها مساكنها وأكلها وشربها ولبسها وأحفظ الأمن فيها وأحميها من أعدائها ... لنفرض أن هذه الأمة [عشرون مليوناً] من الناس فكيف أقوم بأمرها وأنا لم استطع أن أقوم بأمر عشرين كتكوتاً ؟) وبهذا فالفقرة نداء لكل من يتولى أمرالرعية بضرورة معرفة قدرته على العطاء والتضحية وقدرته على ضبط احتياجات المجتمع للوصول به إلى أرقى آيات الحضارة .

---

(١) مع المجتمع ص١٨٠ : ١٨٤ .

كما يدرك المتذوق فى حديث الأسمر مع الشيخ عوض مواصفات الزوج لتكوين أسرة مستقرة ومواصفات القاضى والمحامى والطبيب والجرسون والبواب فلكل صفاته الاجتماعية والوجدانية التى تجعله جديراً بتحمل أثقالها ويصرح الأسمر أن الفطن من يعرف نفسه ويضعها فى موضعها المناسب حتى تنطلق منه وتؤدى دورها على أكمل وجه .

والمقال اجتماعى جيد استطاع فيه الأسمر تجسيد المعانى فى شخصية الشيخ عوض .

ويتسم المقال بالوضوح الفكرى مع حسن العرض وذكاء الرؤية السياسية والاجتماعية والوجدانية ويصل ركب من وحى الدعابة إلى مقال **(لجنة يوم الخميس)** جاء فيه :

(ليست هذه اللجنة مالية ولا لجنة علمية ولا لجنة أدبية ولا ما يشابه ذلك من اللجان ... ولكنها لجنة طعامية !! وقصة هذه اللجنة أن صديقاً لى يمتاز فى هذا العصر بسخاء الكرماء فى العصور الأولى ... وكثيراً ما تناولت طعام الغذاء لدى هذا الصديق الكريم غير أننى كنت أتحاشى الغذاء عنده يوم الخميس لكثرة الزائرين للصديق فى هذا اليوم ... وفى يوم من الأيام ألح علىَّ صديقى أن أتغذى عنده يوم الخميس فنزلت على إرادته وجلست على مائدته التى التف بها جماعة من الظرفاء المثقفين منهم الشاعر والكاتب والقاضى والمحامى ومنهم غير ذلك وقدمنى صديقى إليهم ثم قدمهم إلىّ على أنهم اللجنة !! فقلت له لجنة ماذا ؟! فقال لجنة يوم الخميس فقلت له : وماذا تعمل لجنة يوم الخميس فى يوم الخميس ؟! فقال : تنعقد هنا للأكل !! وقلت فى نفسى إن ملايين الناس تتناول طعامها يوم الخميس فما السر يا ترى فى

تسمية هذه الجماعة بلجنة يوم الخميس حتى لكأنها تقوم بعمل فنـى لا يستطيع أن يقوم به سواها ؟ .

وصفق صديقى بيديه تصفيقتين وصاح الأكل يـا (طـه) وسمعت طـه يصيح من المطبخ ويقول حاضر .. صاح بها فخمة طنانه رنانـة تشعرك بمـا وراءها من المأكولات ورأيت اللجنة مشمرة عن سـواعدها يبدو عليهـا كأنهـا تتأهب لخوض معركة من المعارك ولقد أحسست برهبة لا عهد لى بها على موائد الطعام قبل ذلك!! وخيل إلى أننى مقبل على مشاهدة هول من الأهوال!!

وجاء (طه) يحمل طبقاً كبيراً عليـه ديك رومـى مستلق علـى الأرز المزركش بالصنوبر وقطع الكبدة فتناولته أيدة اللجنـة وتنـاولت أرزه ونظـرت إلى الطبق بعد ذلك فإذا به كأنه مغسول .... وجاء طه باللحم الضأن المشـوى وسلطة الطحينة والأرغفة فحل بها ما حل بالديك .

وجاء طه بعد ذلك بالدجاج فـأخذت اللجنـة تتناولـه وتوقفت عن الأكل فقال لى عضو من أعضاء اللجنة لماذا لا تأكل ؟! فقلت له كفى لقد أكلت من اللحم كثيراً فقـال لـى وهـو يتعجب وهل الدجاج لحـم ؟! الدجـاج مـا هـو إلا (شربة) يا أستاذ .... فقلت هذه أول مرة أسمع فيها أن الدجاج (شـربة) وأن الجامد سائل ثم صاح أحد أعضاء اللجنة (الحمام) يا طه أين الحمـام الحمـام يا طه وجاء طه بطبق الحمام وهنا حدث شيء لم أكن أتصور أنه يحدث ولـو رواه لى راو لما شككت فى مبالغته فقد رأيت عضواً من أعضاء اللجنة يـأكل الحمام بعظمه ! ولقد حسبت أن نظـرى يخدعنـى فـأردت أن اتثبت من ذلك فسألته هل تأكل الحمام بعظمه ؟ فقال لى وهو عابس وهل هذه أول مرة تـرى فيها إنساناً يـأكل الحمـام بعظمـه ؟! فداخلنـى منـه خـوف وسـرت فـى جسـمى قشعريرة من تهيبه فقلت له لأرضيه ولأتحاشى غضبه لقد رأيت ذلك كثيراً

جداً ثم أحببت أن أزيد فى إرضائه ومسالمته فقلت لـه لقد رأيت مـرة رجـلاً يأكل (ديكاً رومياً) بعظمه !! فقال وهو يحملق فى وجهى حملقة مزعجـة هذه مبالغة هذه إهانـة لعبقريتـى لا أقبلهـا وشـعرت بارتبـاك شـديد وأننـى وضعـت نفسى فى ورطة كنت فى غنى عنها ثم ألهمنى الله وقلت له كان ذلك فى منـام رأيته !! فقال حسبته فى اليقظة فقلت له وهل هذا معقـول ؟! فضحـك وقـال : ما دام ذلك كان مناماً فالحمد لله فتضاحكت وقلت : الحمد لله ألف مرة وجـاء بعد ذلك ألوان من الطعام حل بها ما حل بسابقها ثم جاءت الفاكهة .... ثم انتقلنا من غرفة الأكل إلى غرفة المقابلة وجـاء طـه بالشـاى الأحمـر والشـاى الأخضر ودار الحديث حول الأدب والأدباء وتحدث بعضهم عن بلاغة القرآن فقلت وهل تحفظ اللجنة شيئاً من القرآن ؟! فقالوا نعم نحفظ سـورة (المـائدة) وسورة (الحشر) !! ثم قلت لهـم مـا قولكـم فـى الذيـن إذا أكلـوا جعلـوا ثلث البطن للطعام والثلث للشراب والثلث للنفس ؟! قالوا نحن مع البطن فى الأكـل نعمل بقول القائل (نُضيق عليها بالأكل تضييق ونزرق لها المـاء تزريـق وأمـا النفس فإن طلـع طلـع وإن لـم يطلـع اللـه لا يجعلـه يطلـع !!) قلت فـإن مـات شخص – لا قدر الله – بسبب هذه الحالة ؟! فقالوا يموت شهيداً ؟!

قلت لهم ذكرتمونى بأبى خارجة فقالوا ومـن (أبـو خارجـة) قلت لهـم جاء فى كتب الأدب أن رجلاً سمع أعرابياً يدعو ويقول اللهم أمتنى كمـا أمـت أبا خارجة فقال له الرجل وما ميتـه أبـى خارجـة ؟! فقـال أكـل لحمـاً وشـرب عسـلاً ونام فمات فلقى الله وهـو شبعان ريان.. فصاحت اللجنة اللهم أرحـم (أبا خارجة) اللهم أرحم شهيد الواجب ... رحمـك اللـه يـا أبـا خارجـة .. فـى جنات الله يا أبا خارجة مع الأبرار الذين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ...(١) .

---

(١) مع المجتمع ١٨٥ : ١٨٧ .

يعالج مقال (لجنة يوم الخميس) ما يحدث عند بعض الأثرياء الذين يعقدون ندوة كبرى تستقبل الضيوف تهتم بتقديم ألوان الطعام لهم .

والمقال لا يهدف إلى وصف هيئة المائدة وما تضم من صنوف الطعام إنما يرمى إلى اليقظة الفكرية الواعية التى تستوعب المفاهيم الإسلامية وتعمل بها ويبين الكاتب أن آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ وضعت القوانين والقواعد والأصول التى ترقى بالأمة الإسلامية وأن الالتزام بها يجب أن يكون من منطلق الإيمان التام بالبناء الإسلامى الحنيف كما يجب أن يصاحب الإيمان الفهم الواعى لأمور الشريعة ولعل مقولة كاتبنا الآتية :

(هل تحفظ اللجنة شيئاً من القرآن ؟! فقالوا : نعم نحفظ سورة (المائدة) وسورة (الحشر) - إنما أراد بها دعوة لليقظة الفكرية الإسلامية التى تحث على معرفة ما يتصل بالمعارف الدينية عن طريق الوعظ والإرشاد حتى تتحقق لنا الكرامة التى أرادها الإسلام .

والمقال اجتماعى انطباعى يدعو إلى الصحوة الإسلامية الواعية فيبين أن الإسلام دين العمل والكفاح والفكر والعطاء دين الحضارة والمدنية والرفعة وليس دين الطعام والشراب وإنما ذكر الطعام والشراب فى القرآن الكريم لأنهما من مستلزمات الحياة البشرية .

والمتذوق للمقال يشعر بنبرة الرفض لبعض السلوكيات والأقوال التى تنطلق تحت ستار الإسلام وأصحابها يجهلون أبعاده الراقية ومعانيه البليغة وأهدافه النبيلة وقد تجلى ذلك فى الصورة التعبيرية الآتية :

(رحمك الله يا أبا خارجة فى جنات الله يا أبا خارجة مع الأبرار الذين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وفاكهة مما يتخيرون

ولحم طير مما يشتهون) والصورة تعلن ضرورة الغيرة على المفاهيم الإسلاية وتوضيحها حتى لا تستخدم بجهل يمس جلال الإسلام وتقع مسئولية الوعظ والإرشاد على عاتق دعاة الأزهر الذين يحملون لواء الوعى الإسلامى.

ويتمتع المقال بجمال العرض وحسن الربط بين الفقرات مع سهولة الألفاظ ووضوح المعانى مما أدى إلى تناسق الشكل مع المضمون .

وبعد :

فقد ختم كاتبنا كتابه النثرى الجيد (مع المجتمع) بمقال (لجنة يوم الخميس) وقد ضم الكتاب الأبواب الآية :

- من وحى الحياة .
- من وحى الحرب .
- من وحى الدين .
- من وحى النيل .
- من وحى الأغانى .
- من وحى الدعابة .

وبهذا يسدل الستار على الفصل الثانى لتشرق شمس الفصل الثالث الذى يتناول الخصائص الأدبية والفنية لكتاب (مع المجتمع) وتستمد هذه الدراسة أصولها من منبع الأصول التى وضعها النقاد لجودة الأثر الأدبى وكيفية الحكم عليه .

الفصل الثالث

الخصائص الأدبية لمقالات (مع المجتمع)

الخصائص الأدبية لمقالات (مع المجتمع)

تهدف دراسة الخصائص الأدبيـة لمقـالات (مـع المجتمـع) إلـى إبـراز الملامح الفنية التى اتسمت بها وأصبحت علامات ناطقـة تميز كاتبهـا وأديبنـا محمد الأسمر منشىء عذب الألفـاظ سلسـل العبـارات مشـرق الديباجـة جـزل الصياغـة واضـح الصـور يتـذوق المتلقـى نتاجـه فيعيـش فـى رحـاب روضـة ساحرة غناء تتراقص غصونها برشاقة ورقة فى متاجاة عاطفية حالمة تداعب زهورها ورياحينها مداعبة يفوح عطرها فيسحر القلوب ويثمل الأرواح ثملاً يحلق بها فى عالم النشوة فقلم محمد الأسمر يتمتـع بالجمـال السـحرى المبـدع حينما يشدو بالشعر أو يترنم بالنثر ورغـم أن المنشـىء يحلـق فـى دنيـا الأدب بجناحين هما الشعر والنثر إلا أن الأعـلام والأدبـاء والشـعراء وصفـوا شـعره ولم يصفوا نثره ولعل ذلك يرجع إلى ثلاثة أسباب :

أولهما : غزارة نتاج محمد الأسمر الشعرى حتى أصبـح يلقـب بشـاعر الأزهر وشاعر الأهرام وشاعر العروبة .

ثانيهما : أن وصف الجزء الأكبر من نتاجـه يـدل علـى سـمات الجـزء الآخر ويهدى إليه .

ثالثهما : أن النثر بوجه عام لم ينل حظاً من عناية النقاد والأدباء(١) .

وقد أدرك النقاد درجة الاهتمام بالشعر دون النثر فنـاقش ضيـاء الديـن ابن الأثير هذه القضية مناقشة موضوعية فبيـن أن صناعـة تـأليف الكـلام مـن المنثور : "منظوم تحتـاج إلـى أسـباب كثيرة وآلات جمـة ... وتنحصـر آلات

---

(١) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور طبعة المجمع العراقـى ١٩٥٦م – ١٣٧٥هـ والكتاب رمز (ز) رقم ٦٢١٤٤ هيئة الكتاب المصرية .

التـأليف إلـى قسـمين : الأول يشـترك فيـه النظـم والنـثر وهـى سـبعة (الأول) معرفة علم العربية من النحو والتصريف والإدغام و(الثانى) معرفة ما يحتـاج إليه من اللغة و(الثالث) معرف أمثال العرب وأيامهم و(الرابع) الاطـلاع علـى تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة والمنظـوم منهـا والمنثـور والتحفظ لكثير مـن ذلـك و(الخـامس) معرفـة الأحكـام السـلطانية فـى الإمامـة والإمـاءة والقضاء وغير ذلـك و (السـادس) حفـظ القـرآن الكريـم والممارسـة لغرائبـه والخـوض فـى بحـر عجائبـه و (السـابع) حفـظ مـا يحتـاج إليـه مـن الأخبـار الواردة عن الرسول ﷺ أما القسم الثانى فإنه يخـص النظـم دون النـثر وذلـك علم العروض والقوافى الـذى يقـام بـه ميـزان الشـعر والمتلقـى الكريـم لكتـاب (الجامع الكبير) يجد أن ابن الأثير الناقد البصير فضل المنثـور علـى المنظـوم وعرض أسباب رويته عرضاً يكشف عن ذكـاء نقـدى وذوق بصـير بمواطـن الإبداع والابتكار .

(وأعلم أن الأقوال متعارضة فى تفضيل كل واحد مـن هذيـن القمسـين على الآخر إلا أن المذهب الفحل والقول القوى هو أن الكـلام المنثـور أفضـل من الكلام المنظوم والدليل على ذلك أربعة أوجه :

الأول : أن القرآن الكريم ورد نثراً ولولا فضله وعلو درجتـه لمـا نـزل كتاب الله عز وجل – على أسلوبه ومنهجه وأيضاً فإن القرآن الكريـم معجـزة الرسول ﷺ ومن المعلـوم أن المعجزات لا تجـىء إلا عـن طريـق الأصعـب بحيث إنه لا يمكن أحداً من خلق الله الوصول إليها والإتيان بمثلهـا ولمـا كـان النثر من الأقوال الشاقة والأشياء الصعبة أنزل الله تعالى القرآن الكريـم الـذى هو معجزة على قانونه ومما يدلـك علـى أن النـثر أشـق مـن النظـم وأصعـب مأخذاً هو أن العرب كانوا أفصح الناس وأبلغهم وأكثر قـدرة علـى التفنـن فـى

الكلام ومع هذا فلم نسمع لأحد منهم نثراً إلا لقس بن ساعدة الذى يضرب بكلامه المثل فى الفصاحة والبلاغة ولأقوام آخرين وهم قليل .

وأما النظم فإن جميع العرب كانوا يقولونه وكان عليهم من أسهل الأشياء حتى على نسائهم .

أما الوجه الثانى : فهو أن النثر ينوب مناب النظم ولا ينوب النظم مناب النثر وذلك أنه إذا أخذ معنى من المعانى وعبر عنه بلفظ مطابق له وكان ذلك الكلام المنثور فإنه لا يمكن التعبير بمقدار ذلك اللفظ ويكون الكلام شعراً وذلك أنه يحتاج فى الشعر إلى إقامة الوزن وهذا لا يتم إلا بزيادة لفظ أو نقصان لفظ وإذا زيد على ذلك شىء صار فى الكلام ما لا حاجة فيه إذا المعنى كان يصح بدونه وإن نقص منه شىء صار المعنى ناقصاً مما كان عليه فى الأول .

أما الوجه الثالث : فهو أن النثر لا ينال إلا بعد تحصيل آلاته المذكورة فى صدر كاتبنا هذا أو بعضها وذلك بخلاف النظم فإنه قد يقوله من لم يحصل من آلاته شيئاً البتة وكثيراً ما رأينا ممن يقول الشعر الحسن ويصيب معانيه ويجيد ألفاظه وهو لا يعرف من آلات التأليف شيئاً كالسوقة والعامة من أرباب الحرف والصنائع .

وأما الوجه الرابع : فهو أن الناثر تعلو درجته حتى ينال الوزارة للخلفاء والملوك وأما الشاعر فلا تعلو درجته عن رتبة المستعطين ومنزلة الطالبين لما فى أيدى الناس ولو فضل الناثر وما عرف من شرف صنعته والحاجة إليها لما رقى إلى درجة الوزارة وكذلك الشاعر فلولا كساد صنعته والاستغناء عنها لعلت درجته وارتفعت منزلته ولما كان طول عمره كلا على الناس وهذا شىء مطرد لم يزل(١) .

---

(١) الجامع الكبير – ابن الأثير – تحقيق د. مصطفى عبد الجواد ص ، ٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

كما تناول القلقشندى قضية المفاضلة بين الشعر والنثر قائلاً : (اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوى قوافى قصائده مما لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام مع طول بقائه على مر الدهور وتعاقب الأزمان وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة لتمكن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلق بعضها ببعض ... إلى غير ذلك من الفضائل الجمة والمفاخر الضخمة فإن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة واشرف مقاماً وأحسن نظاماً إذا الشعر محصور فى وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير وقصر الممدود ومد المقصور وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها وغير ذلك مما تلجىء إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شىء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معانى النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته ....) .

كما صرح بأن الألفاظ الكتابية انتخبها الكتاب وانتقوها من اللغة استحساناً لها وتمييزاً لها فى الطلاوة والرشاقة على غيرها(١) .

وبهذا أعلن ابن الأثير والقلقشندى أن للنثر مزيته ومنزلته وأنه كما بين الجاحظ أن الكتاب التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً حوشياً ولا ساقطاً سوقياً وكما ذكر ابن الأثير فى (الجامع الكبير) و (المثل السائر) أن الكتاب غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظاً رائقة .

---

(١) صبح الأعشى القلقشندى – طبعة وزارة الثقافة ص٥٨ ، ٥٩ ، ١٦٢

، البيان والتبين – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون ٠ بغداد ، طبعة ١٩٦٠م .

ويطالعنا د. زكى مبارك فى كتابه (النثر الفنى فى القرن الرابع) مبيناً موقف النقاد من تحديد مقاييس جودة الأثر الأدبى فذكر أن اهتمامهم كان بالشعر فقال :

(إن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد فى كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التى يراد بها رد معانى الكتاب إلى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا فى درس معانى الشعر وبيان المبتكر منها والمنقول فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد فى بيت من الشعر فيذكرون أجديد هو أم قديم .. فالشعر فى نظر النقاد من العرب أكثر حظاً من الفن وأولى بالنقد والوزن والنثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر ولذلك قلت العناية بتقيد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود وليس فى اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملاً فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبى ..... وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة فى البيئات العربية فهذا أبو بكر الخوارزمى الذى كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه اهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة من كتاب الصاحب إلى ابن العميد جواباً عن كتابه عليه وصف البحر والواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية وهو بالذاكرة أعلق وعلى الألسنة أيسر بفضل القوافى والأوزان .... ومن الجدير بالذكر أن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم فى شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شئون العمران ... والواقع أن الوقت قدحان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين فإن النثر اليوم هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب والكتاب يحتلون مكانة

يصعب أن يتسامى إليهـا الشـعراء لأن النـثر هـو الأداة الطبيعيـة لنشـر الأراء والمذاهب والعقائد وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شيء والشعر كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان غير خليق بتقديم ما تحتاج إليـه العقـول صبـاح مسـاء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى وهو حين يجود يظل مقصوراً على بعض النوازع القلبية والنفسية التى لا تستريح إليها الجماهير إلا فى لحظـات الفـراغ وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته لا فإنه لا تـزال لدينـا جوانـب وجدانيـة تتشوف إلى التغنى بالشعر البليغ لأن الطبيعة لا تزال تتألق فى خلـق دواعـى الشـعر .... ولكـن يجـب أن يقـدر النـثر حـق قـدره وأن يعلـم المتلقـى للنـثر ضرورة مشاركة الكاتب فى حسه وشعوره وذوقـه ووجدانـه وضلالـة وهـداه ومـن أجـل هـذا يجـب الاهتمـام بتحليـل آراء الكتـاب ومذاهبهـم الاجتماعيـة واتجاهاتهم العقلية وثوراتهم النفسية والوجدانية ولا يشترط من حيث الصـورة إلا أن يكون الكاتب كاتباً أى قديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلويناً يستهوى العقول والألباب فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جـذب المتـذوق إليـه إنمـا يسـتميل الكتـاب الفنـانون الذيـن يجمعـون بيـن جـودة المعنـى وجمـال الأداء...(١) .

ويـرى د. طـه حسـين فـى كتـابه (مـن حديـث الشـعر والنـثر) أن الشعر ضرورة من ضرورات الحيـاة فى طور من أطوارهـا فـإذا انقضـى هذا الطور أصبح الشعر عاجزاً على أن يقوم بشـىء مـن ذلـك وأصبـح النـثر خليفته يصور هذه الأشـياء الجديدة والشـعر الذى كـان ضـرورة أولاً يصبـح فى الطور الثانى ضرباً من الترف والزينـة والحيـاة لا تسـتطيع أن تسـتغنى عن كليهما .

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع د. زكى مبارك – الطبعة الثانية جـ١ ١٧ : ٣٠ بتصرف؟

ومما سبق يدرك المتلقى الكريم درجة اهتمام النقاد بالشعر كما يدرك درجة الصحوة الأدبية النقدية التى تنادى بضرورة العناية بالنثر وكشف مواطن جودته وتقدير أثره الإيجابى فى بناء الفكر والوجدان كما يدرك أن المقاييس التى وضعها النقاد للحكم على جودة الأثر الأدبى تضم بين طياتها الشعر والنثر إلا أن الشعر نال حظوته لفيض تطبيق مقاييس الجودة والرداءة عليه دون النثر وقد يرجع ذلك لظروف المجتمع العربى فى العصور السابقة أما الآن فإن النثر هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب حيث يحتل الكتاب مكانة يصعب أن يتسامى إليها الشعراء لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شىء(١) .

ومن الجدير بالذكر أن مناقشة النص النثرى يقتضى إبراز مواطن الجودة أو الرداءة عبر القواعد النقدية التى أجمع عليها النقاد والتى تهدف إلى ترقية البناء الأدبى الفنى كما تصبو إلى تهذيب الذوق ومضاعفة النشاط الذى يدفع إلى ازدهار النهضة الأدبية .

وتتبع عيون جودة الأثر الأدبى من تناسق الكلام الذى يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبه إعجازه بهواديه وموافقه مآخيرة لمبادية مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً حتى لا يكون لها فى الألفاظ أثر فنجد المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعة وجودة مقطعة وحسن وصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه(٢) وبهذا فإن مقاييس الجودة تعلن تحقق السمات الآتية فى النص :

---

(١) النثر الفنى – د. زكى مبارك جـ١ ص٢٩ بتصرف .

(٢) كتاب الصناعتين – لأبى هلال العسكرى • بيروت ص٦٩ بتصرف .

- سهولة المطلع وسلاسة العرض .

- سلاسة الألفاظ وتناسق حروفها .

- وضوح المعانى والأفكار والخواطر .

- الصدق التعبيرى النابع من الصدق العاطفى .

- وضوح ملامح الصورة وانسجام عناصرها .

- دلالة الإيقاع الصوتى للعبارة على المعانى وطبيعة التجربة .

- الوحدة الموضوعية التى تبرز درجة الترابط والتلاحم بين المعانى والأفكار .

- الصدق العاطفى .

وبعد :

فسوف يعرض البحث - بإذن الله - السمات الأدبية التى تميزت بها مقالات (مع المجتمع) مبيناً درجة جودتها ومنزلتها من منبع مقاييس جودة النص الأدبى التى أجمع عليها النقاد :

سهولة المطلع وسلاسة العرض :

تتمتع مقالات الأسمر بسهولة العرض ويسر التناول وموضعية المناقشة لعناصر القضية الأدبية حيث يوحى عنوان المقال بفكرته كما يدرك المتلقى عمق الترابط بين العنوان وطبيعة الموضوع بل يستشف من الكلمة الأولى رؤية الكاتب وما يريد بثه من آراء وأفكار فى فكر ووجدان المتلقى ففى مقال (وحش الوحوش) سطر الأسمر كلمات ثائرة مطلعها :

(الأسد له مكانته الافتراسية بين سباع البر والنسر له مكانته الافتراسية بين سباع الجو وكلب البحر له مكانته الافتراسية بين سباع البحر) .

هل سمعنا عن هذه الوحوش الكواسر أن أسداً افترس أسداً أو أن نسراً التهم نسراً أو أن كلباً من كلاب البحر التقم كلباً آخر ؟

معاذ الله أن نكون رأينا شيئاً من ذلك أو سمعنا بـه فمهما تبلغ وحشية هذه الضوارى من التوحش فهى بطبعها بعيدة عن أن تغتال حياة أمثالها وهـى لو حاولت ذلك لما استطاعت إليه سبيلا ولما طاوعتها مخالبها وأظافرها .

أما الإنسان العاقل الذى بعث الله إليه الرسل وأكرمه بالعلم والفنون هذا الإنسان فى القـارة الأوربيـة مهد حضـارة العصـر الأخير ومـأوى المسيحية الفسيح هذا الإنسان العاقل المتدين يأكل أخاه الأوربى وغير الأوربى ، يأكلـه أكلاً لما فلا يغادر منه شيئاً(١) .

يشعر المتذوق من الكلمة الأولـى للمقـال بصرخـة الكـاتب وتهكمـه مـن المنهج الذى سلكه الإنسان مع أخيه وما ترتـب علـى هـذا المنهـج مـن تدهـور سفك كرامة الإنسان وقد أمعن كاتبنـا فـى بلـورة فكرتـه التـى تنـادى بالسـلام وبالمثالية الأخلاقية حينما أعلن التزام الحيوانـات بشـريعة المحافظـةعلى بقـاء جنسها .

ووضوح هذه الرؤية الشعورية للمتلقى تدل علـى مـا تتميز بـه مقـالات الأسمر من سهولة المطلع وسلاسة العرض والمراد بهذه السـمة قـدرة الكـاتب على ترجمة خواطره بجلاء مما يسر إحـداث المشـاركة الوجدانيـة بينـه وبيـن المتلقى من وحى إيقـاع العنوان ومـن وحـى صياغـة الكلمـات وتعبيرهـا عـن

---

(١) مع المجتمع ص٤٥ .

المعانى ومن الجدير بالذكر أن سهولة المطلع ويسره تدل على تمتع الكاتب بالحاسة الفنية المرهفة التى تفيض على الأثر الأدبى بالحيوية والصدق التعبيرى .

سلاسة الألفاظ وتوظيفها للأداء التعبيرى :

تتميز مقالات (مع المجتمع) بسلاسة الألفاظ ووضوحها وقربها من المتلقى الذى يدرك أن منبع السلاسة يشع من حسن اختيار الكاتب لألفاظه حيث ينتقى لموضوعه منها ما يعبر عن المعنى بدقة ويكشف عن المضمون بجلاء وعلى سبيل المثال مقاله (شروق وغروب) الذى يتمتع بجمال الألفاظ وسحر وقعها وائتلاف حروفها ومن المقال هذه الفقرة :

(ذهبت إلى الأسكندرية .... وفتحت نافذة غرفتى بالفندق ورحت أطيل النظر إلى البحر ورأيت الشمس تجنح للغروب وكأنى لم أر الشمس قبل ذلك وهى تجنح للغروب فقد بدا لى فى هذا اليوم أنها لا تغرب فى كل يوم إلا لتقول لنا بلسان غروبها : أيها الناس كل شىء للغروب !! فلا يلهينكم الشروق عن الغروب للدول شروق وغروب وللملوك شروق وغروب وللحاكمين شروق وغروب وللجاه شروق وغروب وللمال شروق وغروب وللشباب شروق وغروب وللصحة شروق وغروب وللجمال شروق وغروب ولكل شىء فى الحياة شروق وغروب(١) .

يشعر المتذوق فى الفقرة السابقة ما تمتعت به الألفاظ من رونق وطلاوة وجمال نبع من بساطتها وقدرتها على الأداء التعبيرى فلفظة (شروق) عندما يستقبلها المتلقى يستحضر منظر الشمس وهى تبدد حجب الظلام لترسل

---

(١) مع المجتمع محمد الأسمر – ص٣٨ .

أنوارها ببهجة وشموخ وكبرياء وتضم الكون بين أحضان ضوء شغوف بحياة تفيض بالأمل الباسم أما لفظة (غروب) فتوحى باستسلام الكون لتفشى خيوط الظلام مما يشيع الشعور بذبول أزهار الأمانى والشروق والغروب من الألفاظ المعهودة ولهما دلالاتهما القريبة لخيال المتلقى ولكن كاتبنا بما وهب من قدرة تعبيرية استطاع تلوين الشروق والغروب برؤية خواطره كما استطاع بث أحاسيسه فى وجدان المتلقى وبهذا يدرك المتذوق أن سلاسة الألفاظ لا تهدف إلى الوضوح فحسب بل ترمى إلى قدرة المنشىء على استخدام الألفاظ القريبة التى تتمتع بالرونق وسلامة التكوين وتتشبع بمشاعره وخواطره التى تعبر عن رؤيته للحياة بحيث يذوب المتلقى مع المنشىء فالقضية لا تسعى للنظر فى الألفاظ المجردة ولكن الألفاظ الواضحة السهلة القادرة على أداء المعنى بدقة وجلاء وهذا ما تجلى فى مقالات محمد الأسمر التى تمتعت بالألفاظ الواضحة السهلة التى تحمل بين طياتها المعانى بمهارة فنية وطلاقة تعبيرية متميزة .

وضوح المعانى والأفكار والخواطر :

من آيات نجاح الأثر الأدبى وضوح معانى الموضوع فى وجدان المنشىء وفكره حتى يتمكن من إثارة مشاعر المتلقى ونشر رؤيته كما أن جلاء عناصر الفكرة وتشبعها بخواطره من أعظم مقومات جودة الأثر وكاتبنا محمد الأسمر يهتم بوضوح أفكاره وما تضم من المعانى كما يعتنى بالصلات الوثيقة بين الموضوع ومعانيه وأفكاره وخواطره ففى مقال **(مغارس الإيمان)** عالج طبيعة إيمان أهل البوادى والقرى وإيمان أهل المدن فبين الأسباب التى دعمت الآيات الإيمانية فى نفوس أهل البوادى والقرى كما بين الأسباب التى حجبت الرؤية الإيمانية الواضحة فى وجدان أهل المدينة حيث قال : (وإذا كانت البيئة مؤثرة فى تكوين الأجسام وصبغ الألوان وغرس الطباع وكان

ذلك مقرراً ومشاهداً فى كائنات كل بيئة فإن ذلك مما يرجح أن هذه البيئة ذاتها لها تأثيرها أيضاً فى المعتقدات إيمان وغير إيمان فأهل البوادى والقرى أقرب إلى الإيمان من رجال العواصم والمدن وذلك لأن الأولين لا يكاد يقع بصرهم إلا على ما هو من صنع الله تعالى وما هو على فطرته التى فطره الله عليها فالزرع والضرع والأرض بوهادها وجبالها وسهولها وروابيها وجداولها وينابيعها والسماء بشمسها وقمرها ونجومها والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس كل هذا وما يماثله يملأ البادى والقروى إيماناً بالله ورهبة لله حتى إنه فى هذه البيئة المحيطة به ليعبد الله كأنه يراه .... وإن نظرة فطرية إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ، لكافية أن تملأ قلب البادى والقروى إيماناً بالله فى غير حاجة إلى كثير من البرهنة والبيان وقال بعض الأعراب فيما قال : إن الأثر يدل على المسير فارض ذات فجاج وبحار ذات أمواج وسماء ذات أبراج ألا يدل ذلك على العليم القدير فهؤلاء الباديون والقرويون أقرب الناس فى حالاتهم واستدلالاتهم إلى الفطرة والناس بفطرتهم مؤمنون فهم أقرب من غيرهم إلىالإيمان بالله وصلوا إلى ذلك لا عن طريق الجدل أو الاشتغال بالإلهيات ، وإنما آمنوا لأن كل ما يحيط بهم ينادى للإيمان ولأن كل ما يحيط بهم يتجلى فيه واضحاً صنع الله فهم دائماً يستشعرون الحاجة إلى ذلك الخالق المبتدع وهم لهذا الاستشعار الملازم لهم لازمتهم مبتدعاته يعبدونه رغباً ورهباً يرجون نعمه ويخشعون نقمه فهو الذى يرسل السحاب بالمطر وهو الذى يسير السحاب بالصواعق وهو باسط الرزق وقابضة وهو المحيى والمميت وهو من عرفوه أنه على كل شيء قدير أما سكان العواصم والمدن فهم أهل صناعة وفن وانغماس فى اللذات وهم فى غفلة من التفكير فى عظمة الكون وعجائبه كل ما يحيط بهم واضح فيه إنه من عمل

أيديهم ذللوا البحار والكهرباءوأنشئوا من المخترعات ما شغلهم عما خلق الله..)(١).

تشرق الفقرات السابقة بوضوح المعانى وجلاء الأفكار وقد نبع ذلك من دقة الألفاظ وسهولة المطلع وعمق الترابط بين الفكرة ومعانيها ويحمد لمحمد الأسمر تمتع مقالاته بسمة الوضوح مما يدل على امتلاكه زمام اللغة وقدرته على انتقاء ما يعبر به عن أفكاره ومعانيه بدقة العالم وحس البليغ وحيوية المفتن وذكاء الكاتب الذى صقل موهبته بالدربة والممارسة .

الصدق التعبيرى النابع من الصدق العاطفى :

ينبع الصدق التعبيرى من الصدق العاطفى الذى يعد من أعظم عناصر الأثر الأدبى حيث يؤثر تأثيراً فعالاً فى خلوده واستمراريته كما أن صدق عاطفة المنشىء تساعد أيضاً على حيوية الأثر حيث تثير عاطفة المتلقى من خلال الإيقاع التعبيرى الصادق ففى مقال (استغفروا ربكم) يعيش المتلقى فى رحاب انفعالات جياشة تفوح بعواطف سامية نبيلة استطاع المفتن التعبير عنها بنبض قلبه فنبض قلب المتذوق معه :

(الدعاء كله مستحب والضراعة إلى الله تعالى مطلوبة وكل مخلوق أدرى بأمره بما يدعو به خالقه ..... وقد تبين لى من هذا أننى فى حاجة إلى سؤال المغفرة من الله قبل أن أكون فى حاجة إلى أن أسأله تعالى أى شىء آخر وعلمت أن هذه منزلتى ومنزلة أمثالى ولكل مقام مقال ورحم الله أمرأ عرف قدر نفسه فأنزلها منزلتها . وليس استغفار الله بالشىء القليل الأثر ولكنه غرس إذا صحت نية صاحبه جاء بالخير العميم قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم

---

(١) مع المجتمع ٥٧ ، ٥٨ .

بـأموال وبنيـن ويجعـل لكـم جنـات ويجعـل لكـم أنهـارا ﴾ أرأيـت كيـف عقبـى الاستغفار الصادق ؟ أرأيت كيف يحدثنا اللـه عنـه ويرغبـن فيـه ؟! أرأيـت أن هـذه الجنـات والأنهـار والأمـوال والبنيـن كيـف تكـون كلهـا جـزاء اسـتغفار المستغفرين ؟

نحن مذنبون غارقون فى ذنوبنا تكتنفنا هذه الذنوب فى كل وقت وفى كل مكان تحيط بنا فى الليل والنهار وتحيط بنا فى محل أعملنـا وفـى طرقاتنا نذنب بأيدينا ونذنب بألسنتنا ونذنب بعيوننا ونذنب بقلوبنـا فـإذا كـان هـذا حالنـا فما لنا لا نستغفر الله كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان حتى نلقى من الله مـا وعد به المستغفرين ؟

لا يقولن قـائل مـا بالنـا (ونحن مذنبـون غـير مسـتغفرين) فـى جنـات وأنهار وأموال وبنين ؟! نعم لا يقولـن قـائل ذلك فنحن فـى غـلاء هـو غـلاء الجدب فما قيمة الجنات والأنهار ونحن فقراء إلى السعادة شـاكون مـن عقـوق الأولاد فما جدوى الأموال والبنين ؟! وإن حرمانك من الانتفاع بالشـىء وهـو أمام عينيك وفى متناول يدك لأشد حسرة وألماً من حرمانك منه وهو مفقود !! أيها الناس أيهـا المخطئـون استغفروا ربكـم وعـودوا إليـه !! اسـتغفروا ربكـم ليبارك لكم فى جناتكم وأنهاركم وأموالكم وأبنائكم(١) .

لقد عاش المتذوق رحلة روحية إيمانية فاضت فيها العواطف النبيلة فـى عالم السمو حيث استطاع الأسمر إثارة عواطف المتلقـى ومرجـع ذلـك إيمانـه بما سطر من أفكار عكست دلالاتها عنفوان عاطفته ممـا أثمـر عمـق الصـدق التعبيرى الذى اتسمت به مقالاته حتى أصبح ظـاهرة عامـة تـدل علـى صـدق مشاعره وانفعالاته وعواطفه .

---

(١) مع المجتمع ص٦٨ – ٦٩ .

وضوح ملامح الصورة وانسجام عناصرها :

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ويضاف إلى ذلك مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفنى مثل طريقة تناول الموضوع أى الأسلوب الذى تعرض به التجربة الأدبية فالمنشئ المرهف ينتقى من القاموس اللغوى ما يتفق مع محور معانيه ويعبر بدقة عن خواطره وخلجاته ومشاعره وانفعالاته والمتذوق لمقالات محمد الأسمر يدرك تمتعها بوضوح ملامح الصورة وانسجام عناصرها حيث يشعر بقدرة الألفاظ على أداء المعنى بدقة ووضوح مما يدل بالتالى على تمتع الكاتب بذوق رفيع وموهبة متميزة وقد أثمر انسجام الألفاظ مع العبارات فى نسيج تعبيرى بديع روعة الصورة وعذوبتها وسحر عناصرها وحيوية أشكالها التى تجسد بمهارة فنية الحركة وطبيعة الصوت والهيئة كما توحى بدرجة اللون فتصبح الصورة المتخيلة من باب الخيال الابتكارى الحى الذى يمنح الصورة حياة معبرة ناطقة تعكس للمتلقى رؤية المنشئ فيرى الصورة كما صورها بجميع عناصرها وتتمتع مقالات الأسمر جميعها بسمة الوضوح التعبيرى والانسجام الأدبى لعناصر الصورة ومن نماذج مقالاته مقال (أسوان الجميلة) جاء فيه :

(حتى إذا ما لاح فجر اليوم الثانى وفتحت نافذة غرفتى ونظرت إلى الجانب الغربى لأسوان وهو يستيقظ مع الفجر وإذا كان انحسار الليل عن كائن من الكائنات علامة لاستيقاظه فقد كان إذا أول ما استيقظ هنالك الجبل الجاثم على ضفة النيل ثم استيقظ النيل مبتسما ابتسامته العذبة الهادئة وبدأ نخل الجزيرتين وهو واقف وقفته العسكرية كأنه لم ينم وكأنه قضى الليل واقفًا يحرس الجبل والنيل ... ولكأن العالم كان مسدولاً عليه كلل بعضها فوق بعض حتى إذا ما لاح الفجر أخذت هذه الكلل ترتفع واحدة بعد واحدة وما

أجمل أسوان حينئذ وهى تبدو شيئًا فشيئًا والفجر يرفع بيده الرفيقة الرقيقة كلل الليل الأخيرة عنها كأنها الحسناء فى غلائلها السوداء يجردها العاشق منها غلالة غلالة رويدًا رويدًا .

إن الجماد لم يستيقظ وحده فى هذه الساعة الجميلة بل استيقظت الأصوات فهذه العصافير على أشجار النهر تقرأ أورادها وتعزف ألحانها وهذا شيخ يسعل سعال الشيوخ يقرع بعصاه الأرض فى طريقة إلى المسجد وهذا بائع اللبن ينادى عليه متجولاً جريًا وراء رزقه وكلما قاربت الشمس طلوعها من الجانب الشرقي لأسوان تهلل الجانب الغربى منها وبدأ على وجهه ما يبدو على وجه المحب المرتقب يرى مقدمات مجيء حبيبة ولا يراه .

فالجبل قاعد قعدة الشيخ الوقور المنتظر ! والنخيل واقف وقفة الجندى الذى يعرف واجبه ! والنيل ينقل خطاه نقلاً خفيفًا كأنه لا ينقلها ! والعصافير تقرأ أورادها وتعزف ألحانها ! ثم لاحت الشمس التى من أجلها كل ذلك وحيت بأشعتها الباسمة هذا العالم الذى ينتظرها فسرت الابتسامة وهى سحر ساحر فالجبل ذهب أصفر والأرض قطع من العنبر والنبات زمرد أخضر أو عقيق أحمر والنيل مرآة من البلور أو فيض من النور كل ذلك والعصافير تقرأ أورادها وتعزف ألحانها .. وسمعت صدى قارئ يقرأ القرآن من مذياع بعيد فتذكرت قول الله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) فرأيت فى هذه الآية الكريمة جمالاً غطى على كل ما أراه من جمال ونورًا يغرق فيه كل نور !!

ثم نظرت إلى ما هو أمامى نظرة أخرى فإذا جزيرة الفيلة وخلفها جزيرة الملك يبدوان كأنهما جزيرة واحدة وكأنهما معًا مكان رحيب جميل أقامت فيه الطبيعة حفلاً باهرًا كهذه الحفلات الساهرة التى يشاهدها سكان العواصم الكبيرة !! ونظرت من نافذة غرفتى إلى شجرة عارية من أوراقها

ماعدا رأسها فلاحت لى كأنها راقصة هذا الحفل ! وكمـا أن سيدات الحفلات الساهرة يتأنقن فى اختيار ثيابهن وتصفيف شعورهن فكذلـك بـدت لـى أشـجار الجزيرتين وهى فى حللها البديعة برؤسها الجميلة فالنخيل الفـارغ ينظـم علـى الطريقة الغلامية الحديثـة (الأجرسـون) وغيره مـن الأشـجار يرسـل شـعره على الطريقة القديمة وهنالك أشجار لاصقة بالأرض كأنها أطفـال جـاءت مـع أمهاتها فهى جالسة تشاهد هذا الحفل مأخوذة بما تراه(١) !!

يشعر المتذوق للمقال ما تتصف به الألفاظ من عذوبة ووضوح وتناسـق عبر سياق تعبيرى جيد جسد فيـه المفتـن ملامـح صـوره بإحسـاس مرهـف وعاطفة جياشة وخيال ابتداعي ساحر الأشكال والهيئـات والحركـات والألـوان وقد تولد السحر التصويرى من المهارة الفنية التى نسج الأسـمر خيوطهـا مـن ألفاظ رسمت الصور بجلاء فالعبارة (ثم استيقظ النيل مبتسمًا ابتسامته العذبـة الهادئة) تثير فى نفس المتلقـى هيئـة النيـل بهيئـة إنسـان سـاحر المنظـر بديـع الملامح يشرق وجهه بابتسامة وديعة هادئة والصورة بجمالهـا وسـحرها تثـير ملكة التخيل كما تثير عاطفة الانتماء لأرض النيل .

كما أبدع المنشئ فى تصويره لهيئة تلاشى الليـل وانحسـار ظلامـه بيـن أحضان شعاع الفجر وأحسن حينما صور هذا الانحسار والتلاشى بما يلى :

(والفجـر يرفـع بيده الرفيقـة الرقيقـة كلـل الليـل الأخـيرة عنهـا كأنهـا الحسناء فى غلائلها السوداء يجردها العاشق منها غلالة غلالة رويدًا رويدًا).

حيث كشفت العبارة عن طبيعة علاقة الليل بالفجر مبينًا أنها علاقة الود والألفة والعشق والحنين وجميل منه تصويره لحركـة انحسـار الظـلام بتجريـد

---

(١) مع المجتمع ص ٧٥ ، ٧٦ .

العاشق للحسناء من غلالتها السوداء غلالـة غلالـة ممـا يوحـى بكثافـة الظـلام وتراخى سدوله برشاقة .

كما يتذوق المتلقى جمال تصوير الحركة فـى العبـارة الآتيـة : (والنيـل ينقل خطاه نقلاً خفيفًا كأنه لا ينقلها) حيـث جسـدت الألفـاظ الواضحـة حركـة النيل عندما يداعبه النسيم برقة ولطف حيث تبدو على سطحه الفضى حركة . موجية خفيفة يمتصها النيل سريعًا ليجددها فـى حيويـة متدفقـة تنـاجى طبيعتـه الهادئة العذبة .

وقد أحسن الأسمر فـى لوحتـه الفنيـة التـى شـكلت لـون النيـل والأرض والنبات فى صورته التى وصف فيها شروق الشمس لتقدم التحية للنيل العظيـم (وحيت بأشعتها الباسمة هذا العالم الذى ينتظرها فسرت الابتسامة وهى سحر ساحر فالجبل ذهب أصفر والأرض قطع من العنبر والنبات زمرد أخضـر أو عقيق أحمر والنيل مرآة من البلور) .

والصورة بتكوينها اللفظى نسـجت عبـارات حيـة ناطقـة حـددت طبيعـة الألوان بجمال سحرى يجذب الألباب وقد أحسن الأسـمر وأجـاد عندمـا نبـض قلبه بقول الحق (وأشرقت الأرض بنور ربها) حيث أعلن أن ما تمتع به من رؤية بصرية فاضت على إحساسه بروعة الجمال والسحر تلاشى أثرهـا عنـد سماع كلمات الحق جـل عـلاه لأن كـل جمـال مـن صنعـه فيجـب العـودة إلـى رحابة لتسبيحه وتقديسه فكل سحر من صنعه وكل جمال يخضع لقدرتـه وكـل نور يستمد من نوره سبحانه وتعـالى لأنـه نـور السموات والأرض والمتـذوق لتصويـر هيئـة النخيـل يـدرك مهـارة الأسـمر الفنيـة فـى التعبيـر عـن ملامــح الصورة عندما يستحضر هيئة ما رسمه بألفاظه الدقيقة السـهلة فـى التعبيـرات التصويرية التالية :

(ونظرت من نافذة غرفتى إلى شجرة عارية من أوراقها ما عدا رأسها فلاحت لى كأنها راقصة هذا الحفل ... وكما أن سيدات الحفلات الساهرة يتأنقن فى اختيار ثيابهن وتصفيف شعورهن فكذلك بدت لى أشجار الجزيرتين وهى فى حللها البديعة فالنخيل الفارغ ينظم رأسه على الطريقة الغلامية الحديثة (الأجرسون) وغيره من الأشجار يرسل شعره إرسالاً على الطريقة القديمة وهناك أشجار لاصقة بالأرض كأنها أطفال جاءت مع أمهاتها فهى جالسة تشاهد هذا الحفل مأخوذة بما تراه !!) .

فقد استطاع المنشئ رسم الهيئات بألفاظ دقيقة موحية بالمناظر والألوان بمهارة يعجز الرسام عنها حيث استطاع الأسمر مع روعة التصوير بث الحيوية عبر ألفاظ متناسقة تشع بدلالات عاطفية واجتماعية تثير فى نفس المتلقى روعة التخيل وجمال التصور ومرجع ذلك ما تميز به أديبنا من انسياب تعبيرى وانسجام لفظى جعل الصورة تشرق بالوضوح والسلاسة .

دلالة الإيقاع الصوتى للعبارة على المعانى وطبيعة التجربة :

ينتقى المنشئ من القاموس اللغوى ما يعبر به عن أحاسيسه ويعكس مشاعره ويترجم عواطفه والمنشئ المرهف تأتى كلمات صوره الأدبية ناطقة برؤيته لأنها نغمات قلبية وومضات فكرية ظلت تبرق حتى عرف نورها منبع إشراقاته فاستقر ليرسل الأضواء الهادئة التى تحمل بين طياتها دلالات إيقاعية وجدانية اجتماعية وطنية توحى نبراتها بنوع التجربة كما توحى بهدف تسجيل المفتن لعباراته ويدرك المتلقى تمتع أدب الأسمر بقوة الدلالة عند تذوقه لمقالات (مع المجتمع) وعلى سبيل المثال مقال (**النيل يخاطب أبناءه**) ورد فيه :

(قال النيل لأبنائه أطلب إليكم أن تكونوا مثلى فالولد سر أبيه وأبناء النيل أولى الناس بأن يكونوا مثل أبيهم النيل .

أطلب إليكم أن تتحدوا ففى الاتحاد قوة وهل أنا إلا قطرات صغيرة حينما اتحدت كونت هذا النهر الكبير ؟

وهل أنا إلا قطرات ضعيفة حينما اتحدت كونت هذا النهر المتدفق ؟

أطلب إليكم أن تسيروا دائمًا إلى الأمام فإننى دائمًا أسير إلى الأمام ما رجعت يومًا ولا ساعة ولا لحظة إلى الوراء فليكن شعاركم فى كل أعمالكم (إلى الأمام) فإنه شعارى من يوم أن كنت ما نكصت على عقبى ولا توقفت فى سيرى ولا عدت من ناحية مصبى إلى ناحية منبعى بل دائمًا إلى الأمام وإلى الأمام وحده إن أباكم ما مشى فى حياته إلا إلى الأمام فإلى الأمام .

أطلب إليكم أن لا تحول العوائق التى تظهر فى سبيلكم بينكم وبين الوصول إلى غايتكم بل أطلب إليكم أن تزيد هذه العوائق فى سرعة سيركم نحو أهدافكم فإن الشلالات التى أمر عليها نحو غايتى انحدر من فوقها لا أتهيب الهوات التى خلفها إن إقدامى على الانحدار من فوقها يزيد فى سرعتى ويقربنى من الوصول إلى غايتى .

أطلب إليكم ألا تتخلقوا بأخلاق البحار الصاخبة المضطربة بل اعملوا أعمالكم فى وقار واتزان فإن هذه أخلاقى اجعلوا أعمالكم هى التى تتحدث عنكم كما تتحدث الأشجار والثمار عنى ولا تكن أعمالكم ضجيجًا من الأقوال كأمواج البحار التى لا تنبت الأشجار ولا تثمر الثمار .

أطلب إليكم أن تكونوا أوفياء إن أباكم يضرب به المثل فى الوفاء إن (وفاء النيل) يعرفه العالم كله لا يمنعنى عنه مانع ولا يحول بينى وبينه حائل.

أطلب إليكم أن تكونوا نافعين لا مناظر كل ما فيها أشكال وألوان إننى وأنا أبوكم أجوب النواحى وأرحل إلى هنا وهناك لينتفع بى الإنسان والحيوان والنبات فأنا مع كل هؤلاء سر الحياة وسر الازدهار .

يا أبناء النيل يا أبنائى فى مصر والسودان أطلب إليكم أن تؤدوا رسالتكم فى الحياة كما أوديها فالولد سر أبيه)(١) .

والقارئ الكريم عندما يتذوق النص النثرى السابق يعيش فى رحاب صحوة اجتماعية وفكرية ووجدانية تجدد عهد الرقى والحضارة وتذكر المصريين بأمجادهم وسيادتهم كما تذكرهم بواجبهم الإسلامى الوطنى من خلال عرض قوى يفيض بالحماسة والحمية والغيرة وقد نهج المنشئ منهجًا طيبًا حيث جعل إثارة الانفعالات بلسان النيل الذى تحدث عن أصالته ومنزلته وشموخه وخلوده ومنهجه الذى خلقه الله عليه وقد استطاع الكاتب توظيف الصورة لخدمة المضمون وتجلى ذلك بوضوح فى قوة الدلالات الإيقاعية للعبارات التى دلت بحسن تناسقها وصدق معانيها ودقة ألفاظها على طبيعة التجربة ودرجة تشبع نفس الأسمر بها حيث استخدم من الأساليب الأدبية والفنية ما يبلور معانيه ويعبر عن عواطفه بحس مرهف ومقدرة لغوية تشعر برنين الألفاظ ونغمة الحروف وإيحاء العبارات عن طريق تكرار المعانى مثل (أطلب إليكم أن تسيروا دائمًا إلى الأمام فإننى دائمًا أسير إلى الأمام ما رجعت يومًا ولا ساعة ولا لحظة إلى الوراء فليكن شعاركم فى كل أعمالكم

---

(١) مع المجتمع ٧٣ ، ٧

إلى الأمام فإنه شعارى من يوم أن كنت ما نكصت على عقبى ..... بل دائمًا إلى الأمام وإلى الأمام وحده إن أباكم ما مشى إلا إلى الأمام .. فـإلى الأمـام) يجد المتذوق أن التكرار يهدف إلى غرس معانى الحمية وإثارة انفعالات الحماسة الوطنية وإلى جانب سمة التكرار التى أوحت بطبيعة الـدلالات استخدم الكاتب أسلوب الحوار مما ضاعف من حيوية الإيقاع المعنوى مثل :

(قال النيل لأبنائه أطلب إليكم ...) ،

، و (أطلب إليكم أن تسيروا دائمًا إلى الإمام ...)

، و (أطلب إليكم أن لا تحول العوائق التى تظهر ...)

، و (أطلب إليكم ألا تتخلقوا بأخلاق البحار الصاخبة ...)

، و (أطلب إليكم أن تكونوا أوفياء ...)

، و (أطلب إليكم أن تكونوا نافعين ...)

، و (يا أبناء النيل ، يا أبنائى فى مصر و السودان ...)

ويجد المتذوق أن تكرار العبارات الذى انبثق من الحوار دعوة صريحة لصحوة إسلامية وطنية شامخة عزيزة الأركان كما يشعر المتلقى أن الأسمر استطاع ترجمة عواطفه بصدق عن طريق دلالات الألفاظ والعبارات والإيقاع الصوتى للحروف والمعانى فعاش المتذوق تجربة الكاتب بحيوية وصدق .

الوحدة الموضوعية :

تهدف الوحدة الموضوعية إلى ترابط وتكامل وتلاحم أجزاء الأثر الأدبى بحيث يصبح وحدة متجانسة البناء يهدى فيها اللفظ إلى المعنى الذى يهدى إلى طبيعة العاطفة ويشبه هذا الترابط والتكامل الجسم الحى النابض

والمتذوق لمقالات محمد الأسمر يدرك تحقق هذه السمة بجلاء فالمقال وحدة وجدانية ووحدة فنية تدعو كل عبارة ما بعدها بحنين المشتاق وتحتضن كل لفظة أختها حتى تكتمل حبات العقد الذى يسحر المتذوقين ويحلق بهم فى عالم الفضيلة فإذا تذوق القارئ الكريم مقال (الحداد والحديد) على سبيل المثال يدرك إدراك اليقين درجة الترابط الوجدانى والفنى كما يدرك كيفية تلاحم أجزاء الصورة ومن الجدير بالذكر أن هذا الترابط سمة عامة فى مقالات الأسمر :

(الحداد و الحديد)

(زعموا أن حدادًا من الجبارين ألقى بمطرقته جانبًا وترك ناره وكيره وصار إلى غابة من الغابات ليروح عن نفسه .

وكانت خطى الجبار فى الغابة خطى ثقيلة الوطأة تسحق تحتها الأزاهير والأعشاب والحشرات الصغيرة الضعيفة .

وكان الجبار مغتبطًا بهذا كل الاغتباط يودلو أنه كان يمشى على السماوات بهذه الخطى فيسحق نجومها ويطمس هلالها (ويشوت) برجله شمسها .

وبينما كان الجبار غارقًا فى خيالاته وكبريائه عثرت قدمه بشئ صلب فاستيقظ من أحلامه وانحنى غاضبًا يرى ما هذا الشئ الذى تجرأ فأدمى أصابع قدمه ثم تناوله بيده وتأمله فإذا به قطعة من الحديد .

ضحك الحداد الجبار ساخرًا وقال : قطعة وقحة من الحديد تقف فى سبيل الحداد الجبار ثم صاح أيتها الحديدة الويل لك أنا الحداد أنا الجبار .

فأجابته قطعة الحديد لا تتعجل أيها الحداد الجبار أنا لم أقف فى سبيلك ولكنك استبحت أن تطأ هامتى بقدمك .

فقال لها تلك جريمة أخرى أتجرئين على محاورتى لأسحقنك بيدى ثم أخذ يضغط عليها بأصابعه وهو وهو يصيح أنا الحداد . أنا الجبار .

فلما أدمت الحديدة أصابعه هرول بها حيث المطرقة والكير والنار وظل يردد وهو يطرقها أنا الحداد أنا الجبار فتطاير الشرر منها إلى عينيه وكلما قسافى طرقه كثر تطاير الشرر إلى وجهه وظل يقسو فى الطرق وظل الشرر يتطاير حتى شوه وجه الحداد وحتى أحرق الكير وحتى صاح جيران الحداد الجبار كفاك أيها الحداد الجبار لقد صدعت آذاننا بمطرقتك وهذه نار كيرك المحترق تكاد تندلع ألسنتها إلى منازلنا .

وأبى الحداد الجبار أن يستمع للناس فالتقط الحديدة وقذف بها إلى فرن من أفرانه الصاهرة فلما أبصرها وهى تسيل ذائبة ضحك ضحكة الجبارين وقال لها ألم أقل لك أننى أنا الحداد أنا الجبار ؟

واضطجع بعد ذلك الحداد الجبار اضطجاع الفارغين من انتصاراتهم اللاهين بالنظر إلى فرائسهم لا تعدو عيناه حديدته المصهورة أمامه ولكن غبطة الحداد الجبار لم تتم فإنه أبصر الفولاذ المصهور يسترد طبعه رويدًا رويدًا وإذا بالحديدة تعود وهى كما كانت – الحديدة وإذا بها تقول للحداد الجبار أنا الحديد أنا الحديد(١) .

يعيش المتلقى مع المقال السابق عبر دلالات إيقاعية توحى بأبعاد وجدانية واجتماعية ووطنية متشابكة تعكس نغماتها رؤية الكاتب لأفكاره التى

---

(١) مع المجتمع ٥٣ ، ٥٤

تنبع من معين واحد لتفيض بمشاعر حية الانفعالات متجانسة المعانى مترابطة العناصر تعطى للمتلقى وحدة تعبيرية متناسقة الدلالات والإشارات والأفكار والمعانى والأحاسيس وبهذا يتبين أن النص النثرى الجيد يجب أن تتحقق فيه الوحدة الموضوعية الفنية التى تنطق بطبيعة الموضوع .

ويمكن للمتذوق إدراك تحقق سمة الوحدة الموضوعية فى مقالات الأسمر عندما يعيش فى رحابها وقد عرض البحث نموذج (الحداد والحديد) ليستدل به المتذوق على درجة الترابط بين عناصر الأثر من النغمة الأولى للنص ففى النموذج الذى بين أيدينا بدأ الكاتب بهذه النغمات :

(زعموا أن حدادًا من الجبارين ألقى بمطرقته جانبًا وترك ناره وكيره وصار إلى غابة من الغابات ليروح عن نفسه) حيث يدرك المتلقى عندما يتذوق النغمات السابقة أنه سيعيش فى إطار لحن يتغنى بأحداث الجهاد المصرى الأزهرى الشريف من منبع الإيحاء الرمزى .

ويتبين أن عبارة (زعموا أن حدادًا من الجبارين) تشير إلى ما عرف عن المحتل الغاصب والمعتدى الظالم من جبروت وكبرياء .

كما يتبين أن صياغة (تسحق الأزاهير والأعشاب توحى بفقد هذا الغاصب سمة الإنسانية حيث قتل الأبرياء والضعفاء واغتال الأمل الأخضر الذى يغرس غصون السلام فى أرض مصر .

ويسير المتلقى مع نغمات لحن (الحداد والحديد) فنجد به هذه النغمة العالية (وبينما كان الجبار غارقًا فى خيالاته وكبريائه عثرت قدمه بشئ صلب فاستيقظ من أحلامه وانحنى غاضبًا من هذا الذى تجرأ فأدمى أصابع قدمه ثم تناوله بيده وتأمله فإذا به قطعة من الحديد) يدرك المتلقى أن المراد

بالشئ الصلب إرادة الشعب المصرى وثورته العارمة ضد المحتل الغاصب كما يدرك أن التعبير (فأدمى أصابع قدمه) يوحى بآثار الثورة المصرية التى تشعبت بأنوار الجهاد الإسلامى الذى استمد حماسه الواعى من الأزهر الشريف.

ويشعر المتلقى بطبيعة الشعب المصرى عبر الصياغة الآتية :

(أنا لم أقف فى سبيلك ولكنك استبحت أن تطأ هامتى بقدمك) حيث تعلن العبارة وداعة الشعب المصرى وحبه للسلام كما تعلن ثورته العارمة عندما تمس كرامته وقد عبر الأسمر بعبارة (تطأ هامتى) ليوحى بعظم الكبرياء وجلال العزة وشرف المنزلة المصرية .

ويسير المتلقى فى رحاب الكفاح والجهاد المصرى حتى يصل إلى قول الأسمر (واضطجع بعد ذلك الحداد الجبار اضطجاع الفارغين من انتصاراتهم اللاهين بالنظر إلى فرائسهم لا تعدو عيناه حديدته المصهورة أمامه ولكن غبطة الحداد الجبار لم تتم فإنه أبصر الفولاذ المصهور يسترد طبعه رويدًا رويدًا وإذا بالحديدة تعود وهى - كما كانت - الحديدة وإذا بها تقول للحداد الجبار أنا الحديد أنا الحديد) والنغمات السابقة هى آخر نغمات موضوع مقال (الحداد والحديد) وقد أوحت بما حدث للشعب المصرى من صحوة وطنية واعية شامخة تستقى عزيمتها من أنوار منابر الأزهر الشريف كما أوحى التكرار (أنا الحديد أنا الحديد) بصلابة الشموخ واستمرار الجهاد والتصميم على النصر .

والمتذوق للمقال من أول (زعموا أن حدادًا إلى قول الأسمر أنا الحديد أنا الحديد) يدرك درجة الترابط الفكرى والمعنوى بين الحروف والألفاظ والعبارات والصورة التى أوحت بطبيعة العاطفة وعمق التجربة الأدبية .

الصدق العاطفى :

يعد الصدق العاطفى من أبرز عناصر نجاح الأثر الأدبى وخلوده ويرجع منبع تكوين العاطفة إلى تشبع نفس الأديب وفكره بموضوع أو مشاهدة تأثر بهما تأثيرًا عظيمًا دفعه إلى التعبير عنهما تعبيرًا يعكس رؤيته ومشاعره بصورة تثير عواطف المتلقى حتى يشعر بشعور المنشئ وقد تمتعت مقالات الأسمر بالصدق العاطفى الذى عبر عن انفعالات وجدانية واضحة الملامح الشعورية ويستطيع المتلقى إدراك تحقق الصدق العاطفى عندما يتذوق مقال (الشكوى) كنموذج يستدل به على تحقق سمة الصدق العاطفى يشعر بحرارة الانفعال وصدق معايشة الأديب لقضيته الأدبية :

(الشكوى)

(الشكوى موجودة منذ كانت الآلام والآلام باقية ما بقى الإحساس والإحساس مختلف اختلافًا عظيمًا بين الناس ومن أجل هذا الاختلاف شقى قوم بما يسعد به آخرون .

ونفوس الناس معادن شتى فمنها المصقول ومنها الهش ومنها السائل فلو طرقت بمطرقة من الحديد على هذه الأشياء التى ذكرنا لاختلف تأثير الطرقة وسريان تيارها فيها اختلافًا بينًا وأتعس الناس فى هذه الحياة هم ذوو النفوس المصقولة فصوت المطرقة عليهم له صلصلة مسموعة وتلك الصلصلة هى الشكوى فكلما تسمع هذه الصلصلة من الحديد إذا اصطدم بالحديد فكذلك النفوس المصقولة إذا اصطدمت بالمظالم والحوادث فهى لا محالة صائحة أما النفوس الهشة أو السائلة فهى أسعد فى هذه الحياة من سابقتها .

والشكوى التى أعنيها هنا ليست هى المذلة والضراعة ولكنها الصوت الطبيعى للتألم وهى دليل الحيوية الثائرة على ما يؤلم والصدى الطبيعى لإحساس النفس المصقولة وشكوى المتألم إذا سرت بين المتألمين كان فيها بعض العزاء وهى وإن لم تدفع شيئًا فإنها تشعر المتألم المستمع إليها أن فى الدنيا متألمين مثله فيأنس بذلك بعض الأنس كالسارى فى الظلام فى الطريق المخوف تراه يأنس إذا التقى فيه بإنسان ولو كان خائفًا مثله) .

والمتلقى لأول كلمة فى المقال (الشكوى) يدرك أن المقال يترجم تجربة حية تبرز درجة الآلام التى يعانى منها أصحاب الأحاسيس السامية ويتبين للمتذوق أن العاطفة تتصاعد فبعد أن كانت دمعة متحجرة أصبحت دموعًا منهمرة تسيل بصراخ وصياح رافضة الأخطاء والعيوب قال الأسمر :

(ونفوس الناس معادن شتى فمنها المصقول ومنها الهش ومنها السائل فلو طرقت بمطرقة من الحديد على هذه الأشياء التى ذكرناها لاختلف تأثير الطرقة وسريان تيارها فيها اختلافًا بينًا وأتعس الناس فى هذه الحياة هم ذوو النفوس المصقولة فصوت المطرقة عليهم له صلصلة مسموعة وتلك الصلصلة هى الشكوى فكما تسمع هذه الصلصلة من الحديد إذا اصطدم إبالحديد فكذلك النفوس المصقولة إذا اصطدمت بالمظالم والحوادث فهى لا محالة صائحة وقد شكا الناس قبلنا وسيشكو الناس بعدنا وقديمًا قيل.

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

لقد شكت الجماعات وشكت الأمم وشكا الأنبياء والمرسلون وصدق الذى قال :

كل من ألقاه يشكو دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن ؟

فعلى الذين يلمون الشاكين أن يتريثوا فالجريح لا يغنى ولكنه يئن وكم فى الدنيا من جريح ؟(١) .

يعيش المتذوق للمقال السابق فى إطار لحن عاطفى يترنم بنغمات إيحاء وجدانى يضم بين طياته مشاعر الإنسانية التى تعانى من الأمراض السلوكية والنفسية مما يسبب الآلام لأصحاب الإحساس المرهف والنفوس العالية المصقولة بالمثل النبيلة هذه النفوس تبكى عالمها الشريف كلما اصطدمت هذه الصلصلة من الحديد إذا اصطدم بالمظالم والحوادث فهى لا محالة صائحة أما النفوس الهشة أو السائلة فهى أسعد فى هذه الحياة من سابقتها .

يدرك المتلقى درجة الصدق العاطفى ففى أول المقال ذكر الشكوى الناتجة عن الآلام ثم تحدث عن احتدامها عند الاصطدام بالمظالم ليبين بعد ذلك أن الشكوى نابعة من عاطفة حية صادقة المشاعر تفيض من النفس لتعكس الصدى الطبيعى للنفوس المصقولة الطاهرة النبيلة والمقال من بدايته إلى نهايته أنغام عاطفية صادقة تنمو فيه العاطفة وتشتعل بصورة طبيعية .

والمقال يكشف عن تجربة فكرية نفسية فلسفية مترابطة المشاعر واضحة الأحاسيس وقد استطاع الكاتب من خلال الصورة الجلية تحديد ملامح عواطفه ومشاعره وانفعالاته التى اندمجت وذابت لتوحى للمتلقى بطبيعة التجربة الأدبية . وبعد :

---

(١) مع المجتمع ٣٣ ، ٣٤

فقد كشف العرض الأدبى الخصائص العامة لمقالات محمد الأسمر ما تتمتع به من سمات الإجادة الفنية المتمثلة فى حسن المطلع وجودته وسلاسة الألفاظ وسهولتها وتجنب غريبها وشواذها وصحةالعبارات وسلامتها ووضوح معالم الصورة التى تفيض بالتدفق الفكرى والتناسق التعبيرى مع تحقق الوحدة الموضوعية وقد فاضت السمات السابقة فى مقالات محمد الأسمر عبر نسيج عاطفى صادق المشاعر نبيل الأحاسيس ترجم بجلاء طبيعة التجربة الأدبية .

وإلى جانب تمتع مقالات الأسمر بخصائص الإجادة الفنية العامة تتميز بملامح خاصة نابعة من فكره وتكوينه الشخصى والوجدانى والفكرى أبرزها:

١ – التنوع الموضوعى للمقالات :

يعيش المتذوق فى مقالات محمد الأسمر بين روضة ساحرة متنوعة الأزهار والرياض تفوح بعبير الجمال حيث تناجى بعضها البعض عبر رباط وجدانى واجتماعى موضوعى جيد يعالج قضايا الحياة بوعى وبصيرة مما يشعر المتلقى بأن الكاتب عاش تجارب مجتمعه الإنسانية بصدق وسجلها بخفقات قلب ينبض بالرجاء الذى يسمو لعالم مثالى ترفرف عليه أجنحة الرضا وتحتضنه آيات السعادة .

فالمتلقى الكريم يعيش فى رحاب باب (من وحى الحياة) فتحركه ثورة واعية تحثه على الأخلاقيات والسلوكيات العالية النبيلة فالمتذوق لمسرحية الحياة وأمواج البحر وأمواج البر ومعركة الذهب وحقيقة الإنسان والقرنقليون وبائع الجنبرى المتعلقون والمتملقون ونفاق ونفاقياق والانتفاح والانتفاش وقطان جائعان والقط ياسمين وجناية أم وقلب الأوضاع ومظاهرة ومع القمر والشكوعويين الكذب والسياسة والناصحون واللائمون وارح ناقتيك وشروق وغروب وزحام وزعيق وضجيج وكراكيب والباقى من الزمن يدرك أنها

حبات منسقة فى عقد من لؤلؤ كل حبة فيه تهدى لهدف ينادى بالإصلاح عن طريق النصح الجميل والإرشاد الرقيق والموعظة الحسنة والعبرة الواعية وقد ترجم كاتبنا ما سبق من خلال صورة تعبيرية موحية بطبيعة التجربة الأدبية .

وباب (من وحى الحياة) يعالج العادات والتقاليد والسلوكيات الاجتماعية السقيمة التى تهدد الكيان الاجتماعى ولهذا أطلق على هذا النوع من المقالات المقال الاجتماعى(١) .

ثم يعيش الملتقى بعد باب (من وحى الحياة) فى رحاب (من وحى الحرب) الذى يغرس الروح الوطنية وينادى بصحوة الكرامة المصرية ويعلن أصالة أبناء مصر وما لديهم من شعور فطرى بالكبرياء والشرف وتمتعهم بالإرادة الواعية والتحدى الحر المستنير وقد عبر المنشئ عن هذه الأفكار والمعانى بطلاقة فنية وجمال تعبيرى يتحرر من قيود الصياغة ويضم هذا الباب عناصر المقال التاريخى ولمحات المقال السياسى(٢) أما باب (من وحى

---

(١) يعالج مشكلة من المشاكل الاجتماعية وينتقد العادات السيئة والتقاليد الضارة وينفر مما هو ضار ويرغب فى النافع المفيد ودور الكاتب فيه المشاركة فيما يدور حولهم على طريقة تقوم على الملاحظة الدقيقة والعمق والتأمل فيما يحيط بهم .

المقال وتطوره فى الأدب العربى د. مرسى أبو ذكرى - طبعة ١٩٨٢ ص٨٤ .

(٢) ١ - المقال التاريخى هو الذى يتناول عصراً مضى أو ثوره سلفت أو شخصية ولت بلغة الأدب وطريقة التأثرين ويعتمد الكاتب فيه على الحقائق والأخبار والروايات وعلى الكاتب أن يربط بين حلقات الواقع بخياله حتى يخرج منها سلسلة متصلة دائمة .

٢ - المقال السياسى يتناول مشكلة حزبية أو فكرة سياسية أو وطنية أو دولية ويهاجم الاستعمار على اعتدائه علىالحريات ويعبر الجمهور بما يحيط ببلاده ويستثيره للذود عن مقدساته بأسلوب سهل بعيد عن الزخرفة و يعتمد فيه على إثارة العواطف .

المقال وتطوره فى الأدب العربى - د. السيد مرسى - طبعة دار المعارف ص ٧٨

الدين) فيهدى المتلقى لمنابع الرضا والنشوة والسعادة حيث يبين لـه أن استحضار جلال الله والعيش فى رضوانه نور الأنوار وتمام البركات وكمال النعم ويضم هذا الباب بين طياته روح المقال الانطباعى(١) ولمحات المقال الذاتى فالمتذوق (لمغارس الإيمان) ، وبين التوكل والتواكل ، و (المأذون الشرعى السنيمائى) ، و (القرآن وقانون من أين لك هذا) ، و (الأديان والمتدينون) ، و (استغفروا ربكم) يشعر برؤية الكاتب الذاتية ورؤيته الانطباعية وقد سجل رؤيته بجلاء تعبيرى مما ضاعف من جمال الصورة وحيويتها .

ثم ينتقل المتلقى إلى باب (ومن وحى النيل) الذى ينادى فيه الكاتب بالوعى الوطنى وضرورة الاتحاد الإسلامى العربى وتتمتع مقالات هذا الباب بروعة الوصف وتلوين الإيقاع وتناسق العبارات وجمال الصور كما تتمتع بصدق المشاعر ونبل الولاء الذى يتحدث عن علاقة الكاتب ببعض إخوانه ويضم هذا الباب عناصر المقال الوصفية وعناصر مقال السيرة(٢) التى تجلت

---

(١) المقال الانطباعى : هو الذى يصور انطباعات الكاتب عن أناس عاش معهم أو مشاهدة اكتشفها أو تأثر بعالم جديد لم يؤلف وهذا اللون من الكتابة يحتاج لعقل حرف سريع التأثر والتكيف والاستجابة بما يعن له حتى يدرك المعانى التى تكمن وراء ما تقع عينه عليه .

والمقال الذاتى هو المعبر عن عواطف الكاتب والمصور لانفعالاته الصادقة عن ذات نفسه أمام خاطره عابرة أو مشهد مؤثر أو حدث وقع وتبرز شخصيته من خلال افكاره الممزوجة بمشاعره المتاججة معبرًا عنها بأسلوب رائق ولفظ فائق وخيال خصب وبيان رائع ومعان رقيقة .

(٢) المقال الوصفى الذى يصور البيئة المكانية التى عاشها الكاتب تصويرًا يتم عن إحساس عميق وبصرنافذ وإدراك واع مع دقة الملاحظة والتعاطف مع الطبيعة

فـى مقالاتـه (أنطـون باشـا الجميـل) و (محمـد توفيـق وهبـى) و (محمـد مصطفى جمام) أما (أسوان الجميلة) ، و (من الشلال إلى حلفا) فقد تجسد فيهما الإبداع التصويرى الوصفى الذى يجعـل كاتبنـا مـن أبـرز رواد مقـالات الوصف الإبداعى التصويرى المتميز .

ثم ينتقل المتلقي إلى روضة (من وحى الأغانى) التى تتسم بالموضوعية الواعية(١) حيث تحدث عن أصول الأغنية الإذاعية وأغانى الأفلام وما يجب أن تتسم به من سمو ونيل يثير فى المتلقى مشاعر الرقى ويهذب نظرته للحياة ويبين من خلال عرضه الجيد آثار هذه الأغانى علىسمعة مصر العالمية وفى المجال الإنسانى الشريف كما ناقش بموضوعية الأصول الأخلاقية التى يجـب الالتزام بها عند سماع المذياع وتعرض لواجب أئمة المساجد ووزارة الداخلية للحفاظ على مظهر مصر الحضـارى وهـذا البـاب يتسم بالموضوعيـة الجـادة والروح الساخرة الهادفة وقد تمتعت صياغتـه بالبسـاطة والسـهولة والوضـوح مع تجنب الألفاظ الغريبة والشاذة مما حافظ على سلامة العبارات وصحتها .

والوصف الحى الذى ينقل أحاسـيس الكـاتب ومظـاهر الطبيعـة كمـا تتراءى فـى نفسـه بصدق وأمانة وإخلاص .

أما مقال السيرة فيترجم فيه الكاتب سيرة إنسان حى ويعكس مدى تأثره وانطباعه عنـه والكاتب فيه يعتمد على حسن التنسيق وجلال التعبير حتى تبدوا الشـخصية الموصوفـة كأنها تحدثنا فتعجب بها إذا راقتنا وتنضر منها منها إذا ساءتنا .

المقال وتطوره – د. السيد مرسى – دار المعارف طبيعة ١٩٨٢ ص ٧٤ .

(١) المقال الموضوعى هو الذى يتجرد فيه الكـاتب عن شـخصيته وتتـوادى فيـه عواطفـه ويعالج موضوعه معالجة تقوم على تقصى الأفكار وتنسيق المـادة المدروسـة وإبـراز عناصرها مستخدمًا الأسلوب المحدد الدقيق الذى يهتم بإبراز الفكرة وتوضيحها مدعمًـا بالأدلة والبراهين .

المقال وتطوره فى الأدب المعاصر د.السيدمرسىدار المعارف ص ٧٧ طبعة ١٩٨٢م

ويختم الكاتب كتابه النثرى الجيد (مع المجتمع) بباب أطلق عليه اسم (من وحى الدعابة) ضم المقالات الآتية :

(ساعة مع لص) و (الثقلاء) ، و (ثلاثون جنيهًا) ، و (قصة دجاجة) ، و (ساعة الهراوى) ، و (مع الفيران !!) ، و (الشيخ عبد العظيم) و (غرفة الأمير) ، و (بن الإمام يحيى) ، و (المدالية الذهبية) ، و (مع الشيخ عوض) و (لجنة يوم الخميس) والمتذوق لمقالات هذا الباب يدرك أن تسميته (من وحى الدعابة) يهدف إلى كشف المعاناة الاقتصادية التى يتجرعها الشعب المصرى مع إبراز ملامح الإطار الأخلاقى الذى يعكس العادات والتقاليد والسلوكيات المنتشرة بين أبناء الشعب المصرى والتى يريد الكاتب علاجها بأسلوب موضوعى يناسب ظروف البيئة المصرية الاجتماعية والوجدانية والفكرية والسياسية وعلى سبيل المثال الدعابة الواردة فى مقال (غرفة الأمير) :

(أرسل لى صديق ظريف من القاهرة .. وكنت حينئذ بالمصيف بالأسكندرية – لأبحث له عن غرفة خالية بالمصيف وبعد بحث شاق وجدت له غرفة ببعض الفنادق المشهورة وأخبرته تلغرافيًا فحضر ورأى الغرفة وسر منها وقلت له إن من حسن الحظ أن الأمير الشرقى فلاناً) ينزل كل عام فى هذه الغرفة وقد غادرها من يومين راجعاً إلى بلدة بعد أن قضى مدة مصيفه ثم تركت صديقى وعدت له فى صباح اليوم الثانى فرأيته يبدو عليه التعب فقلت له هل حدث شىء ؟! فقال لا ... شىء بسيط ...!! قلت وما هو هذا الشىء البسيط ؟! فقال لم أسهر ليلة أمس وآثرت أن أنام واستيقظت قبل طلوع الشمس ، وفتحت نوافذ الغرفة أملأ صدرى بالهواء وانظر إلى البحر وأشعلت (سيجارة) الصباح التى تعودت أن أشعلها حينما أقوم من نومى وحينما كنت

انظر إلى دخانها وهو يتصاعد أمامى تذكرت أن هذه الغرفة كان ينزلها الأمير الشرقى (فلان) كما أخبرتنى فتملكنى شىء من الزهو والخيلاء لإقامتى فى غرفة كان يقيم بها هذا الأمير ثم عرضت لى فكرة غريبة قمت على أثرها إلى باب الغرفة ونوافذها فأغلقتها جميعًا ، وأحسست من نفسى نشاطًا لا عهد لى به وقلت ما دام الأمير كان نزيل هذه الغرفة فمن المرجح جدًا أن يكون نسى شيئًا فى دولاب الغرفة جوهرة مثلاً أو صرة من الدنانير على الأقل !! وفتشت الدولاب الصغير ودولاب الزينة فلم أجد شيئًا ... وأخيرًا عدت إلى نفسى ولعنت شيطان الطمع فإنه كثير العبث بالنفوس وفتحت الباب والنوافذ ورحت انظر إلى البحر فى تأمل طويل وقلت إن فى النظر للبحر ما يغنى عما قد يكون تركه الأمير .. ثم عاد لى شيطان الطمع مرة أخرى فقمت إلى الباب والنوافذ فأغلقتها مرة ثانية واتجهت نحو السرير وقلت إن المراتب أحيانًا تكون مخابئ للجواهر والنقود فانزلت المراتب عن السرير بقوة لا أعرفها فى نفسى وقد كانت المراتب ثقيلة لطولها وعرضها ومكثت أجسها بيدى جس الطبيب للمريض فلم أغادر شبراً منها حتى فحصته فحصًا دقيقًا وبعد كل هذا لم أجد شيئًا ولم أجد فى نفسى القدرة التى كانت موجودة حينما أنزلت هذه المراتب عن سريرها فعلمت أن الأمل يخلق القوة وأنه سبيل من سبل الحياة وعلمت أن اليأس يخلق الضعف وأنه سبيل من سبل الموت !! ودقت الجرس فجاء الخادم فقلت له افتح النوافذ ففتحها ثم قلت له أعد هذه المراتب كما كانت فأعادها وهو يعجب وسألنى هل وجدت فى السرير شيئًا يا سعادة البيك ؟ يقصد برغوثا مثلاً فقلت له لا شئ مع الأسف ... لا شئ !!)(١) .

---

(١) مع المجتمع ١٦٩ : ١٧٠

يعد المقال السابق نموذجًا من النماذج التى يستدل منها على معنى الدعابة التى يرمى إليها الكاتب ففى مقال (غرفة الأمير) يبين الأسمر قدرة الأمانى على مداعبة النفس الإنسانية كما يعلن أن الإرادة وليدة الأمل وأن الأمل عندما يداعب النفس والفكر يثمر ثمار الحيوية مما يدفع إلى البناء برغبة وتحدى فتصبح الحياة خضراء يانعة باسمة مستبشرة .

والمتلقى لأفكار (من وحى الدعابة) يجد أنها تتمتع بالصفاء الأسلوبى والسحر التعبيرى ووضوح الهدف الذى يبلور قدرة مداعبة الآمال والأمانى للوجدان والفكر كما ينادى بضرورة الإصلاح الاجتماعى الذى يثمر الرقى الإنسانى .

وبهذا يتبين للمتذوق أن كتاب (مع المجتمع) روضة فيحاء تفوح كل زهرة بعبير يميزها فيستنشق المتلقى (من وحى الحياة) عرض شامل للعادات والسلوكيات المنتشرة بين أبناء الشعب المصرى و(من وحى الحرب) على الروح الحماسية و (من وحى الدين) يستشف الدعوة إلى الإيمان بحلاوة الإسلام وجمال تعاليمه أما (من وحى النيل) فيدرك دعوة الكاتب إلى الاتحاد الإسلامى العربى وعندما يصل الملتقى إلى باب (من وحى الأغانى) يجد أنه صيحة عالية تنادى بضرورة الحفاظ على القيم الأخلاقية باعتبار أن ما يذاع يعد أخطر وسيلة إعلامية تعبر عن مصر وفكرها بين العالم ثم يصل المتذوق لثمرة المطاف (من وحى الدعابة) الذى يعلن جمال الأمل وروعة الأمانى وأنهما رحيق الحياة وربيعها الأخضر الذى يتولد من التحدى والإرادة وأبواب (مع المجتمع) بما تضم من مقالات تتسم بجودة الأداء وقدرة الكاتب على توظيف الألفاظ لخدمة الصورة مع جمال

التنسيق وتلوين الصور وتنويع الدلالات عن طريق الإيقاع الصوتى للعبارة كما تتصف بالوحدة الموضوعية والصدق العاطفى ويضاعف من روعة مقالات الأسمر أنها تناجى مشاعر المصرى وتداعب فكرة عبر التدفق الفكرى الذى يصور الحياة المصرية بصدق وجلاء . والمتذوق لمقالات الأسمر يدرك أنه ينتمى لمدرسة الجاحظ الأدبية الهادفة التى تتمتع بروعة الأسلوب وجمال التعبير وسحر التنسيق كما تتسم الصورة النثرية لمحمد الأسمر بالطابع الكلاسيكى(١) الرفيع وبهذا يجمع نثر كاتبنا بين الأصالة التعبيرية والفنية وبين التجديدية الفكرية .

وتتجلى فى نثر أديبنا سمات الاستقصاء والغوص فى المعانى وتوليدها. أما سمات التكرار والاستطراد والإطناب فقد برزت فى باب (من وحى الأغانى) خاصة بحيث لا تعد سمات عامة لكتابه النثرى (مع المجتمع) ومرجع ذلك إدراك الأسمر لخطورة الجهاز الإعلامى الذى يتمثل فى الإذاعة والسينما ولهذا يجد المتلقى تكرار معانى التحذير من الأغانى الهابطة المثيرة للغرائز كما حذر من رؤية الشباب لمشاهد الأفلام الماجنة وقد ساعدت عضويته فى لجنة اختيار النصوص بالإذاعة المصرية وتحديد ملامح القصص السينمائية الجيدة على غرس القيم الأخلاقية السامية التى يجب أن تكون الهدف النبيل لهما .

---

(١) المذهب الاتباعى أو الكلاسيكى نشأ عند الإغريقى وترعرع عند الرومان وشاع فى أوربا عصر النهضة وظل سائداً إلى ما قبل مطلع القرن التاسع عشر بقليل وكلمة كلاسيك مشتقة من كلاسيوس الكلمة اللاتينية التى تشير إلى الطبقة العليا من الشعب فى روما القديمة ويمتاز الأدب الكلاسيكى بروعة التصوير وقوةالتفكير وسمو المعانى والابتكار الخيالى ورقة العاطفة وسحر الأسلوب .
النقد العربى الحديث ومذاهبه – أ. د. عبد المنعم خفاجى – مكتبة الكليات الأزهرية – ص١٢٥ .

والقارىء الكريم يجد أن باب (من وحى الأغانى) يضم المقالات الآتية :

- حول الأغانى (التأليف - اللحن - الأداء - الإذاعة والممثلون الفكاهيون - الإذعة وأغانى الأفلام الإذاعة والموسيقى) .

- الإذاعة والأصوات .
- الأغانى قديماً وحديثاً .
- الحب والأغانى الشعبية .
- أغانى الشرق ونزهة بغداد !!
- سمعة مصر فى الخارج .
- الأفلام وأغانى الأفلام .
- سقوط القاهرة .
- الأغانى المسجلة .
- تحركوا يا جبال .
- كارثة الراديو .
- الراديو وجار السوء .
- الراديو وحنفية الماء !!
- مراقب عموم برامج الإذاعة .
- راديو الجيران .
- واجب الإذاعة وواجب أئمة المساجد وواجب وزارة الداخلية .
- قانون استعمال الراديو ومواعيد الإذاعة .
- طلائع الإرشاد والحزم .

وعندما يتذوق المتلقى مقالات (من وحى الأغانى) يدرك أن التكرار يهدف إلى التحذير والعبرة والعظة والنصح والإرشاد لتحقيق حياة فاضلة كما يدرك أن تكرار الفكرة لا يقتصر على المقال بل ينتقل شعاعها لمقال آخر فى نفس الباب مع حدوث الإطناب والاستطراد مما يشعر المتلقى برغبة المنشىء فى تكوين المجتمع الإسلامى المصرى الرفيع وقد تجلى ذلك فى عرضه الموضوعى لقضية التأليف حيث قال :

من الحدود التى أراها ناهضة بتأليف الأغنية ما يأتى :

١ - الابتعاد عما يثير الخلافات الدينية وغيرها .

٢ - الابتعاد عن الخرافات مثل (فتح الفنجان) وما شابه ذلك من الأغانى التى تشيع فى الشعب الجهالة والتأخر .

٣ - الابتعاد عن الأغانى المتخاذلة المخنثة التى يظن مؤلفوها أنها تعبر عن الحب ثم الحرص كل الحرص على السمو بهذه الأغانى سمواً يتفق مع كرامة الشرق وكرامة الرجولة حتى لا يخجل الرجل المهذب من أن تستمع إلى هذه الأغانى أسرته .

٤ - الابتعاد عما يسىء إلى بعض الأفراد مثل (العمدة) و (شيخ البلد) ومراعاة شعور كل طائفة مراعاة دقيقة .

٥ - أن لا تكون الأغنية من النظم الذى يحتاج فهم ألفاظه إلى عناء ولا من النوع الغامض المعانى المعقد الخيال ...

٦ - يجب ذوقاً وديناً أن تخلو قصائد مدح الرسول من المقدمات الغزلية ويجب أن لا يمدح الرسول بما تمدح به الغانيات الفاتنات ... ففى ذلك ما فيه من الاستهتار بهذا المقام العظيم والخروج الواضح على تعاليم الإسلام وآدابه .

وقال فى سمات اللحن الجيد :

من الحدود التى أراها ناهضة باللحن ما يأتى :

١ - أن يكون اللحن مناسباً للشعر فلا يكون الشعر حماسياً ولحنه لحن شعر الحب أو العكس .

٢ – أن لا يكون اللحن منقولاً أو على الأقل لا يكون منقولاً نقلاً واضحاً من غير تصرف يعطيه لوناً غير لونه الأول المنقول عنه .

٣ – أن لا ينقل الملحن لحناً من أغنيته له إلى بقية الأغنيات التى يطلب منه تلحينها لكيلا تكون ألحانه لحناً واحداً أو لحناً متشابهاً كل التشابه .

٤ – أن يبتعد الملحن عن الميوعة التى تحمل فى ثناياها الكثير من الانحراف عما يجب على الملحن نحو فنه ونحو أمته .

٥ – من الواجب أن يقرأ الملحن النص مع المؤلف قبل التلحين ليبتعد بذلك عن الخطأ فى غناء القطعة قبل تلحينها ..

٦ – أن لا يطغى الملحن بموسيقاه على صوت المغنى فإنه بذلك يطمس شعر الأغنية وصوت المغنى وقال عن الأداء :

من الحدود التى أراها ناهضة بأداء الأغنية ما يأتى :

١ – أن يدرس صوت المغنى ويختار له ما يناسبه من التأليف واللحن وهذا لا ينافى أن هناك أصواتاً منحها الله القدرة على أداء المتنوع من التأليف والمتنوع من الألحان .

٢ – أن يبتعد المغنى عن التكلف فى الأداء عن الميوعة فيه .

٣ – أن يحفظ المغنى القطعة قبل غنائها فذلك أدعى إلى التفرغ لأدائها خصوصاً حين تسجيلها .

٤ – أن لايسجل المغنى قطعة إلا بحضور المؤلف فكثر من المغنين يخطئون فى الأداء أخطاء واضحة تغير المعنى وتشوه التأليف
....

والحقيقة بعد ذلك كله : هى أن (الأغانى) و (الألحان) و (الأفلام السينمائية) التى تحمل الذلة والخنوثة والتهريج لا نتيجة لها إلا خلق جيل ذليل مخنث مهرج وعاقبة كل ذلك الوصول بمصر وبالبلاد العربية إلى الانحلال الدينى والأدبى والاجتماعى .

إن الرضا عن مثل هذه الأغانى والألحان والأفلام التى ذكرناها هو فى نظرنا قتل للوطن وتستبعد كل الاستبعاد أن يكون فى البلاد العربية من يريد قتل وطنه([1]) .

والمتلقى لهذا المقال يشعر بروح إسلامية مصرية أزهرية راقية تعشق الحضارة بمفهومها الصحيح النابع من الفكر الإسلامى المستنير الذى يتسم بالشرف والرقى ومن الجدير بالذكر أن من يتذوق مقال (سمعة مصر فى الخارج) و(الأفلام وأغانى الأفلام)([2]) ، مقال (سقوط القاهرة) يدرك انهما ينبعان من معين واحد وهو رفض جميع مظاهر الانحلال والانحراف حتى تظل مصر رائدة للعالم الإسلامى وموقف الأسمر فى باب (من وحى الأغانى) يمثل ومضة أمل تترنم برحيق الفضيلة بجعل الأغانى والأفلام وسيلة إعلامية تتفق مع جلال الإسلام ومنزلته الشريفة وقد سبق الأسمر الإمام الغزالى([3]) فى الحديث عن صفات السماع الذى يثير العواطف النبيلة والمشاعر السامية فورد فى باب اختلاف العلماء فى إباحة السماع أن (السماع هو أول الأمر ويثمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما

---

(١) مع المجتمع – محمد الأسمر – رادجع مقال (حول الأغانى) ص١٠٧ : ١١١ .
(٢) مع المجتمع ص١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) إحياء علوم الدين – الغزالى – بيروت جـ٢ ص٢٤٥ وما بعدها ، المرجع السابق جـ٣ ص١٢٠ وما بعدها .

بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص ..... وقد دل النص والقياس على إباحته إما القياس : فهو أن الغناء أجمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب فالوصف الأعم أنه صوت طيب .. إما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك.... إما النص فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ فقيل هو الصوت الحسن وفى الحديث (ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت) بالقرآن من صاحب القينة لقينته ...... والأصوات باعتبارها فمخارجها ثلاثة فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره وإما أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور فهى مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع.... فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الأدمى كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره ولا يستثنى من هذه إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ... وقيل إن السماع لا يجعل فى القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب وهى سبعة مواضع :

الأول : غناء الحجيج فإنهم أولاً يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء وذلك مباح لأنها أشعار نظمت فى وصف الكعبة والمقام والحطيم

وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى ......

الثانى : يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو وذلك أيضاً مباح كما للحاج ولكن ينبغى أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج لأنه استثارة داعية للغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار ...

الثالث : الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ...

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قسمان محمود ومذموم فإما المذموم كالحزن على ما فات .....

وإما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه ....

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء فى أيام العيد وفى العرس وفى وقت قدوم الغائب وفى وقت الوليمة والعقيقة ..... ويدل على هذا ......إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب لشكر علينا ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه ﷺ ....

السادس : سماع العشاق تحريكاً للشوق ......

السـابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شىء إلا رآه فيه سبحانه ......

ثم يناقش الغزالى آثار السماع وآدابه فى حدود الشرع الإسلامى الشريف(١) .

وبهذا بين الغزالى أن للغناء أصولاً أخلاقية نابعة من القيم الإسلامية الرفيعة وقد اتفق الأسمر مع الإمام الغزالى فى ضرورة السمو بالغناء حتى يهذب الذوق الإسلامى الذى يعد دلالة حية على الرقى الحضارى المتميز .

ولم يكن الأسمر الأديب الأزهرى المتفتح الوحيد الذى نقاش بموضوعية وإيجابية الأسس الفنية والأخلاقية للأغانى بل أن شيوخ الأزهر كانوا وراء تطوير فن الغناء مما يشير إلى أن للأزهر دوراً إعلامياً حياً فقد ذكر كمال النجمى(٢) فى كتابه (تراث الغناء العربى) أن الشيخ المسلوب هو الذى ارتاد طريق الدور الغنائى لزملائه المغنين والملحنين قبل مئة عام وتلقفه منه عبده الحامولى ومحمد عثمان وكان المشايخ هم الذين نهضوا بحركة الغناء والشعر معاً خاصة أنهم يمثلون خلاصة مثقفى الأمة الغيورين على تُراثها القومى ونال الشيخ المسلوب مكانة خاصة بين شيوخ الغناء (توفى عام ١٩٢٨) وأشهرمابقى لنا من تواشيحه (لما بدا يتثنى) وهو من صيغة (الروندو) ويعتبر مثالاً فى دقة الصنعة وحلاوتها وسهولتها وقد جمع هذا

---

(١) راجع إحياء علوم الدين جـ٢ ص٢٤٥ : ٢٨٠ بتصرف .

(٢) كمال النجمى هو أكثر النقاد الذين اهتموا بتحليل ودراسة تاريخ الموسيقى العربية وقد بدا ذلك واضحاً فى صدور أربعة كتب موسيقية له فى الفترة ١٩٦٦ إلى عام ١٩٧٢م ثم كتابه يوميات المغنين والجوارى وكتابه تراث الغناء العربى .

الموشح صوراً من الموسيقى والغناء العربى مع موافقته لقواعد الموسيقى الأوربية(١) .

ومما سبق يدرك الباحث الكريم أن رواد الأزهر ومن بينهم محمد الأسمر تمتعوا بروح القيادة الإيجابية التى تبنى قواعد المجتمع بروح إيمانية وفكر مستنير .

ويتبين من الجولة السابقة بين رياض الخصائص الأدبية لمقالات (مع المجتمع) أديبنا محمد الأسمر تميزها بالفخامة الأسلوبية والقوة التعبيرية والصدق العاطفى والوحدة الموضوعية كما يتبين أن سمات التكرار والإطناب والاستطراد برزت فى باب (من وحى الأغانى) وأنها كانت دعوة للنصح والإرشاد ومحاولة جادة لترقية الذوق والحافظ على القيم الإسلامية الرفيعة مع الأصالة التى تميز مصريتنا الإسلامية باعتبار أن الأغانى والأفلام مرآة

---

(١) أخبار النجوم عدد ٣٢ السنة الأولى - ٢٣ ذو القعدة ١٤١٣هـ - ١٥ مايو ١٩٩٣م ص١٨ تحت عنوان (إعادة اكتشاف تراث الغناء العربى) ظهرت الموشحات على أيدى شعراء الأندلس وهو فن جديد من فنون الشعر العربى يمتاز بجماله الفنى وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها فى صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره وبأوزانه الكثيرة التى تلائم الذوق وتوائم الموسيقى والغناء وتتمشى مع الترف وجمال الفن ويقال إن أول التواشيح هو المنسوب لى أولاد النجار عند قدوم النبى ﷺ المدينة فاستقبلوه والجوارى ينشدن :

أشرقت أنوار محمد واختفت منه البدور

يا محمد يا محمد أنت نور فوق نور

وقد أثرت الموشحات بما فيها من موسيقى غنائية شعبية فى الشعر الأوربى .

راجع أو زان الموشحات وتأثرها فى الشعر الأوربى فى البناء الفنى للقصيدة العربية أ. د. محمد عبد المنعم خفاجى الطبعة الأولى من ص١١ : ١٣٨ .

صادقة تعكس بجلاء طبيعة العادات والتقاليد وتبرز درجة التطور والاستجابة الإعلامية بين مصر ودول العالم بشرط أن يكون التجاوب نابعاً من وحى الشريعة الإسلامية حتى تحتفظ مصر بكيانها الراقى ومنزلتها الشريفة ومن الجدير بالذكر أن الأسمر لا يرفض سماع الأغانى أو مشاهدة الأفلام إنما ينادى بضرورة الالتزام الذى يضع لهما الضوابط الأخلاقية والإيمانية حتى يصبح للإعلام المصرى هدفه النبيل الإنسانى العالمى .

وبعد .

فقد تجلى للمتلقى الكريم أن كتاب (مع المجتمع) يضم بين طياته سمات وأحوال المجتمع المصرى مع طرح الحلول التى تجعل منه مجتمعاً إنسانياً راقياً وبهذا يعد هذا الكتاب النثرى من الأدب الإسلامى الإنسانى الهادف الذى صور بدقة دلالاته التعبيرية وإيقاعاته الموسيقية وقدرته التشكيلية ووضوح مضمونه مع عمق الإيحاء العاطفى صورة المجتمع المصرى وقد بلغت مهارة المنشىء التصويرية تجسيده لمشاهد المجتمع المصرى فنبض لها قلب المتذوق فعاش بسمعة وبصره وفكره وعواطفه فى تلك الحقبة التى صورها المنشىء بصدق عاطفى ومهارة تعبيرية مما ترجم سبب خلود هذا الأثر النثرى الجيد وأعلن أن الأسمر رائد النثر الاجتماعى الهادف وبهذا فهو جاحظ العصر الحديث الذى شرف الأزهر ومصر بصدق غيرته عليها .

وأزهرنا الشريف يفيض برواد مثل محمد الأسمر ورواد فى مختلف المجالات ولهذا نتضرع إلى الله – جل علاه – أن يحفهم بنور توفيقه ويمهد لهم سبيل الخير الخالص لوجهه العظيم ويحفظ قلوبهم ببركة أسرار القرآن الكريم حتى يظل الأزهر شمساً ساطعة تنير للإنسانية عيون الفضيلة وهنا نستحضر نغمات الأسمر :

علم الزعامة فى يديه وحده   وما كان أحراه بذاك وأجدرا

حمل اللواء إلى الأمام فما مشى   يوماً به فى الحادثان القهقرى(١)

ويصل ركب البحث بحمد الله وتوفيقه إلى ثمرة المطاف حيث يجمع زهور (مع المجتمع) فى صحبة تفوح بعبير كل زهرة عبر سطور خاتمة تترجم لمحات من قضايا هذا الكتاب النثرى الجيد .

---

(١) ديوان محمد الأسمر - فن الطباعة بمصر ص٥٢ .

الخاتمة

تعد الخاتمة الرحيق الساحر الذى يرتشف منه المتلقى الأدبى القضايا التى تناولها البحث وكيفية عرضها كما يرتشف منها ذوق الباحث وطبيعة رؤيته لموضوعات بحثه كما تمهد له الطريق لاكتشاف موضوعات أدبية يمكن طرحها فى بستان الأدب ومناقشتها مناقشة موضوعية جادة تثرى المكتبة الأدبية وتبين أن الأدب يعكس الحياة ويصورها بصدق وحيوية وبعد :

فقد تناول البحث كتاب (مع المجتمع) لمحمد الأسمر حيث نسج خيوطه من تصدير وثلاثة فصول بين التصدير أن الأدب مرآة لحياة المجتمع يعبر بدقة وجلاء عن ظروفه المادية الوجدانية .

أما الفصل الأول فينقسم إلى مبحثين :

كشف المبحث الأول النقاب عن ظروف المجتمع المصرى وألقى الضوء جلياً على طوفان المظالم التى تعرض لها المجتمع ودور رجال الأزهر فى إحياء المشاعر الدينية برفض العادات والتقاليد الأجنبية التى تجافى القيم الإسلامية كما بين دورهم فى إشعال الغيرة الوطنية على مصر برفض السيطرة الأجنبية أما المبحث الثانى فكشف الروافد التى استمد منها محمد الأسمر آيات تكوينه الاجتماعى والفكرى والوجدانى فتحدث عن حياته ومكانته الأدبية التى شرف بها الأزهر كما بين منزلة نتاجه الشعرى والنثرى وما يتصف به من جمال تصويرى وسحر تعبيرى وخصوبة خيال وفخامة أسلوبية وحلاوة سبك ورقة طبع وأشار هذا المبحث إلى منهج الأسمر ومذهبه الذى يثمر الإجادة الفنية التى تتمثل فى الجمع بين الأصالة والتجديد مما يدل

على طبيعة ذوق الأسمر النقدى وما تمتع به من حاسة نقدية تجعله من أبرز نقاد النهضة النقدية الحديثة .

ويصل موكب البحث إلى الفصل الثانى الذى تناول كتاب (مع المجتمع) بالعرض والتحليل فذكر أنه يضم بين طياته الأبواب الآتية :

١ - من وحى الحياة .
٢ - من وحى الحرب .
٣ - من وحى الدين .
٤ - من وحى النيل .
٥ - من وحى الأغانى .
٦ - من وحى الدعابة .

وكل باب يحتوى على مجموعة مقالات ترتبط به وتدل عليه تنبع من وحى البيئة المصرية يعرضها المنشىء عبر لمسات رقيقة إيجابية تضع الحلول التى ترقى بالمجتمع المصرى فيجد المتلقى فى باب (من وحى الحياة) دعوة للإنسانية الفاضلة والاتزان الوجدانى والسلوكى وفى باب (من وحى الحرب) يجد المتذوق آيات الوطنية التى تبنى مشاعر العزة والكرامة والحمية والغيرة وأما باب (من وحى الدين) فيثير فى المتلقى المشاعر الإيمانية الراقية وينادى بضرورة التمسك بالأخلاقيات الإسلامية الشريفة واحترام كل ما يمس الشريعة مثل مقال (المأذون الشرعى السينمائى) الذى ورد فيه ما يلى :

(والذى يزيد من ألم كل مسلم حريض على كرامة دينه أنه حينما يشاهد عقد قرآن مسيحى أو يهودى يجده محوطاً بالقدسية والجلال ويجد عقد قران المسلم ينفرد بهذا التهريج والعبث الواضحين فى شخصية (المأذون الشرعى) كلاماً وثوباً وتمثيلاً !!([1]) يجب على الأزهر وعلى وزارة الداخلية

(١) عرض هذا المقال فى باب (من وحى الدين) ص٦١ .

فى مصر وعلى جميع المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى حكومات وشعوبات أن ينتبهوا لهذه المسألة الدقيقة كل الانتباه حتى لا يبدو (المأذون الشرعى السينمائى) فى شكل لا يتفق مع كرامة الإسلام والمسلمين .

ثم يصل الموكب إلى باب (من وحى النيل) الذى يغرس فيه الكاتب روح الوحدة العربية وينادى بضرورة الانتماء العربى ويعلن أن لمصر دوراً إيجابياً على الساحة العربية يتمثل فى الزعامة المادية والوجدانية ولهذا يجب على رجالها دراسة المواقف جميعها بوعى وبصيرة للحفاظ على كيان هذه الزعامة وعلى سبيل المثال ماذكره فى مقال (مصر والعروبة) ومن هذا المقال (إن للزعامة أخلاقاً لا تتغير بتغير الظروف والملابسات فلتتحل مصر دائماً بأخلاق زعامتها وإن للزعامة ثمناً غالياً ولقد بذلت مصر هذا الثمن من مالها ومن دمها غزيراً .

يقول العاطفيون ما أقساها محنة مرت بنا ويقول العقلاء ما أنفعها تجربة لنا فالعاطفيون ينظرون من زاوية فيجدون ظلاماً والعقلاء ينظرون من زاوية فيجدون نوراً ومن أراد أن يأمن العثرات فليسلك سبيل النور فانهضى يا مصر على بركة الله غير خادعة وغير مخدوعة انهضى كريمة الأفعال كريمة الأقوال)[١] أما باب (من وحى الأغانى) فقد أعلن الكاتب فيه ضرورة الالتزام فى الفن الغنائى والسينمائى بتكوين لجان لا ختيار النص الإذاعى ومشاهد الأفلام كما يجب أن يلتزم هذا الفن بتمثيل البيئة الإسلامية المصرية فيعرض القضايا المختلفة بأسلوب يتفق مع كرامة الإسلام وماله من جلال ولهذا يجب على اللجنة المختصة رفض عوامل الإثارة التى تنافى الأخلاقيات الإسلامية حتى يكون الهدف من الفن ترقية الذوق وتنمية

---

(١) تحدث هذا المقال عن نكبة فلسطين وموقف مصر النبيل راجع البحث ص .

الإحساس وتهذيب النفوس وتطهير المشـاعر فتنتشر الفضيلة مما يساعد على حماية المجتمع الإسلامى من الانحرافات النفسية والسلوكية ويشير الكاتب إلى أن الفن أداة إعلامية خطيرة تدل على موطنها وأصالة أهلها ولهذا يجب تقديم ما يحافظ على سمات البيئة وكرامتها ثم يصل الركب إلى باب (من وحى الدعاية) الذى يبين ما للأمل من سحر يغرس فى النفوس روح التحدى والرغبة فى الوصل إلى الهدف المنشود كما يعالج بعض المشاكل الاجتماعية ويطرح الحلول الإيجابية للحد من انتشارها مثل عرضه لمقالات (ساعة مع لص) ، و (ثلاثون جنيهاً) ، و (قصة دجاجة) . وقد اعتمد الفصل الثانى على تحليل الصورة الأدبية للمقالات وكشف عن أهدافها التى ترمى إلى تصحيح البناء الاجتماعى مما يجعل كتاب (مع المجتمع) ينتمى إلى الأدب الاجتماعى الإسلامى الهادف الذى يجمع بين طياته المقالات الاجتماعية والتاريخية والوصفية والانطباعية والتأملية إلى جانب مقال السيرة .

وتمضى أفكار الفصل الثانى فتمهد السبيل للفصل الثالث الذى ناقش الخصائص الأدبية لمقالات (مع المجتمع) وقد أشرق هذا الفصل بالحديث عن عناصر الحكم على جودة الأثر الأدبى مبيناً انها تشمل الشعر والنثر إلا أن الشعر ينفرد بالعروض والقوافى فقط كما ناقش هذا الفصل آراء بعض النقاد فى مزية النثر ومنزلته مثل ابن الأثير والقلقشندى و د. زكى مبارك و د. طه حسين ثم كشف النقاب عن تمتع مقالات الأسمر بمقاييس جودة النص الأدبى حيث اتسمت بالعذوبة اللفظية والسلاسة التعبيرية والطلاقة الفنية والخصوبة الخيالية ورقة الطبع وحلاوة السبك وحسن المطلع وجمال الترابط بين الأفكار وسحر الختام إلى جانب تحقق الوحدة الموضوعية والصدق العاطفى الذى جعل المقالات تتسم بالحيوية والخلود والإبداع الذى تجلى فى

القدرة على توظيف الصورة للأداء التعبيرى الجيد عبر إيقاع الدلالات المادية والمعنوية .

ويسدل ستار هذا الفصل على تجسيد ثمرته التى تعلن أن الأسمر هو جاحظ العصر الحديث وأن نثره يعد من الأدب الهادف النبيل وأنه يمثل بخصائصه المذهب الكلاسيكى الرفيع .

ومن وحى هذه الجولة التى ناقشت كتاب (مع المجتمع) يحمد لمحمد الأسمر تناوله البيئة المصرية بصدق موضوعى طرح عبر سطوره القضايا الاجتماعية والوجدانية فناشد جميع الجهات التى حملت أمانة بناء المجتمع القيام بدورها الإيجابى الذى يتمثل فى إعادة التصحيح لنهضة مصر الغالية وصرح بأنه يجب الاهتمام بغرس القيم الإسلامية فى النفوس عن طريق الوعى الدينى المستنير الذى ينبع من الأجهزة الإعلامية التى تهدف إلى التقدم الحضارى الإسلامى ولقد بين الأسمر أن للأزهر دوراً عظيماً فى وضع قواعد الأصول الإعلامية لأنه وجه مصر المشرق بين العالم ورجاله رواده الكرام الذين يعلنون للعالم أن مصر الإسلامية العربية تفيض على الدنيا بنور الفكر الذى يثمر حلاوة الإيمان وجلال النهضة الأدبية والعملية والعلمية . وينشر الأمل الذى يفوح بعطر الفوز ويناجى الله سبحانه مردداً :

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

تم بحمد الله

المراجع والكتب

ابن الأثير :

- الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور - مطبعة المجمع العراقى ١٩٥٦م .
- المثل السائر - تحقيق د. أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة .

ابن خلدون :

- المقدمة لجنة البيان العربى طبعة ١٩٥٧م .

ابن رشيق :

- العمدة تحقيق محمد محيى الدين طبعة ١٩٦٣م .

ابن قتيبة :

- أدب الكاتب - تحقيق محمد محيى الدين .

ابن منظور :

- لسان العرب - دار المعارف - بمصر .

أبو هلال العسكرى :

- كتاب الصناعتين-تحقيق مفيد قميحة بيروت - ١٩٨١م.

د. إبراهيم أنيس :

- موسيقى الشعر - الطبعة الثالثة ١٩٦٥م .

د. أحمد الشايب :

- أصول النقد الأدبى الطبعة السادسة - ١٩٦٠م .

أنيس المقدسى :

– الأساليب النثرية فى الأدب العربى – دار الملايين – بيروت الطبعة الأولى.

الجاحظ :

– البيان والتبين – تحقيق عبد السلام هارون رسائل الجاحظ – مكتبة الخانجى – القاهرة تحقيق عبد السلام هارون .

جورجى زيدان :

– تاريخ التمدن الإسلامى مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٢م

– تاريخ آداب اللغة العربية طبعة ١٩٥٧م .

الحصرى :

– زهر الآداب – تحقيق على محمد البجاوى الطبعة الأولى ١٩٥٣م.

رضا كحالة :

– معجم المؤلفين – بيروت .

– الزركلى – الإعلام – دار الملايين – بيروت .

د. زكى مبارك :

– النثر الفنى فى القرن الرابع الطبعة الثانية – المكتبة التجارية الكبرى .

د. شوقى ضيف :

– الفن ومذاهبه فى النثر العربى – دارالمعارف الطبعة التاسعة ١٩٦٠م .

د. طه حسين :

– من حديث الشعر والنثر – دار المعارف طبعة ١٩٦١م

– فصول فى الأدب والنقد – دار المعارف الطبعة الرابعة .

عباس العقاد :

– دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية – الفجالة .

قدامة بن جعفر :

– نقد النثر – بيروت – دار الكتب العلمية .

القلقشندى :

– صبح الأعشى – طبعة وزارة الثقافة ، والإرشاد .

ماهر حسن :

– الكلاسيكية – مكتبة الأنجلو .

محمد الأسمر :

– مع المجتمع – محمد الأسمر المطبعة المنيرية ١٩٥٥م .

– ديوان محمد الأسمر – شركة فن الطباعة شبرا – بمصر .

د. محمد عبد المنعم خفاجى :

– مذاهب الأدب – المطبعة المنيرية بالأزهر – القاهرة الطبعة الأولى – ١٩٥٢م

– الأزهر فى ألف عام – الطبعة الأولى ١٩٥٥م

– الأدب العربى الحديث ومدارسه – مكتبة الأزهر ، البناء الفنى للقصيدة العربية – مكتبة القاهرة بالأزهر الطبعة الأولى .

د. محمد النويهى :

– ثقافة الناقد الأدبى – الطبعة الأولى ١٩٤٩م .

د. نجوى حسين خليل :

– المجتمع المصرى قبل الثورة – الهيئة المصرية العامة – طبعة ١٩٩٥م .

الفهرس

رقم الإيداع ٤٤٠٨ / ٩٦
I. S. B. N. 977-19-0593-7